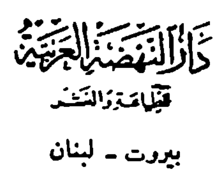
المدخل الى دراسة البلاغة العربية

للدكتور
السيد احمد خليل
الاستاذ المساعد بجامعة الاسكندرية
والمنتدب بجامعة بيروت العربية

١٩٦٨



بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

وبعد

فهذه صفحات أردت أن أجلو بها الأصول التي قام عليها الدرس البلاغي في البيئة العربية ، ولم أحاول أن أتتبع حياة هذه الأصول في صورة مسرفة ــ الا بالقدر الذي تقتضيه امانة الدرس وعمقه ،

وقد حرصنا على الجانب الوصفي لهذا الدرس والكشف عن العوامل التي أثرت في وجوده والتي حددت نشاطه وعمقت مسالكه .

ولم يكن بد من أن اتتبع نشأة الدرس البلاغي ، وتطور حياته ، وما أصابها من جمود أحيانا جف به ماؤه وبخاصة في القرون السادس والسابع والثامن وهي الفترة التي ركدت فيها حياة الادب ، وانشأ فيها الادباء يحرصون على الزينة اللفظية دون نظرة واعية الى الفكرة او المضمون ، وكان من أثر ذلك عندهم أن جدوا في التصنيع ، وأسرفوا في التماس اسبابه ، وحاولوا أن يشققوا القول فيه فظهر البديع في صورة اخرى غير تلك الصورة التي عرفناه عليها أيام نهضة الأدب العربي وقوته وأثره في قيادة الفنون الادبية التي تتخذ الكلمة اداة لها وكان مما يدعو الى الدهشة ، وقد يثير العجب احيانا أن المعنيين بالبديع وصلوا بتقسيماته الى ما أربى على المائة ، مما يؤدي الى اضطراب الذوق ، وكد الذهن ، وبلادة الحس أحيانا ،

وأنا لنجد صورا شتى مـن صور هذا الاضطراب فيما ترك ابن أبي الاصبع ومـن جاء على أثره من اصحاب البديع • ولا جدال في أن العناية باللفظ وما تقتضيه مـن زخرف قد تضيع معه الفكرة ، أو يضطرب دونه الذهـن المدرك كان لها أثرها في تجميـد الدرس البلاغي كله وتقسيمه هذا التقسيـم المسرف ، الذي خضع احيانا للمنطق ، وللقسمة العقلية ،

نلحظ ذلك واضحا في التعريفات والحدود والرسوم والخلاف حول استيفائها شروط الحد الصحيح ، فلا تكاد تقع عينك على باب من أبواب البلاغـة العربيـة حتى تلقاك خصومات عنيفة حول التعريف والتقسيم ،

ولا ضرورة هنـا أن ندعم ما قلناه بالامثلة والشواهد فالتلخيص ، وشروحه ، والايضاح تعرض لنا في بيان كاف كثيرا مـن هذه الخصومات التي تعتمـد أساسا على الذوق والاحساس بالفكرة ، ومقدار ما بين اللغة وبينها مـن تكافؤ تتضح به جوانب هذه الفكرة ، ويعمق به أثرها فـي القارىء والمفسر ، والسامع للنصوص جميعا ،ومذ دعا عبد القاهر في دلائل الاعجاز الى العناية بالذوق واتخاذه أساسا للحكم النقدي على العمـل الادبي ، كان ينبغي على الخالفين أن ينموا هذه الفكرة ، وأن يحـددوا المنابع التي تغنى هذه الذوق وتمكـن له ، وتحصنه مـن الانحراف في الحكم وتؤمن طريقه الى الأهداف التي يسعى اليها من وراء ما يصدره من أحكام على الاثر الادبي جمـلة ، ولكـن اولئك الخالفين الهاهم ذلـك التقسيـم ، وكلفهم بالمنطق وحدوده عـن أن يقوموا بما كان ينبغي أن يقوموا به مـن رعاية هذا الذوق وتصفيته ، وانمائه ،

وفي الحق أن الدرس البلاغي عن عبد القاهر في كتابيه دلائـل الاعجاز ، وأسرار البلاغة كان المصدر الذي استقيمنه البلاغيون الخالفون

مادتهم ولم يهتم عبد القاهـر بالتعريف ولا بالحد كما صنع السكاكي في مفتـاح العلوم وانما درس البلاغة على أنها فـن القول واقام درسه لهـا على أساس مـن الدلالة وتطورها والنقل ، وصوره •

ومـن هنا حرصت على أن أتحدث عن العربية ودلالاتها وتـدرج هذه الدلالة ، ونحـن نعلم أن اللغة عاشت في بيئتين هما بيئة الأدباء ، والمشرعيـن ، وكانت الدراسات التي قامت بها هاتان البيئتان حول اللغة ووظيفتها في المجتمـع ، ودورها في التعبير عـن المظاهر الحضارية المختلفة ـ كانت الدراسات التي قامت بها هاتان البيئتان مـن العوامل التي أدت الى تطور الدرس البلاغي ، وانماء حياته وامدادها بالثراء والغنى ،

ونجد صورة مـن صور هذا التعاون بينهمـا فيما ينقله البلاغيـون حول أدوات القصر ، فانا نراهم يقولون ان ـ انما ـ أفادت القصر لمـا يذكره المفسرون في معنى قوله تعالى انما حرم عليكم الميتة والدم ولحـم الخنزير وما أهل لغير الله به ـ أن معنى الآن ما حرم الله الا كذا وكذا •• مـن الأشيـاء المذكورة •

ولأن المفسريـن اداروا دراساتهم حول النص القرآنـي ، ولأن الدرس البلاغي تركز حول بيان وجوه اعجاز القرآن فقد كان عملهـم مـن بيـن المصادر التي اعتمـد عليها الدرس البلاغي ومهما يكـن من أمـر فان البلاغة العربيـة التي نفهم بها النصوص ، الادبية ، والتشريعية ، ونحدد على هدى مـن أصولها ـ المعاني التي تعرضها هذه النصوص ـ مهمـا يكـن مـن أمر فان هذه البلاغة عملت فيها عوامل كثيرة منهـا ما هو وافد على البيئة العربية نتيجة احتكاكها بغيرها من البيئات التي فتحها المسلمون والتي تأثروا فيها بكثير مـن مقومات الدراسات الانسانيـة التي أخصها اللغة ووظيفتها ، وأثرها في رقي المجتمع ، او انحطاطه ،

وقد انتهيننا مـن قبل في بعـض البحوث التي قمنـا بها الـى أن أساس الدرس البلاغي عن العرب وغيرهم كان نظريةالنظم او بناء الاسلوب وهندسة العبارة ،

وهذه النظريـة ليست في اصولها الأولى يونانية خالصة ولا عربيـة خالصة وانما هي مزاج مـن يوناني وهندي وعربي ،

وقد أشار الجاحظ في حديثه عن البلاغة الى شيء مـن هذا الامتزاج وأسبابه في البيئة الاسلاميـة اذ انه يحكى في البيـان والتبييـن ، قيل للعربي ما البلاغة فاجاب .. وقيل للهندي وقيل للفارسي وقيل وقيل ، وكل هذه النقول واشباهها لها دلالتها على الأصول الأولى التي قام عليها الدرس البلاغي ،

ولاجدال في أن الهنود كانوا أسبق أولئك الدارسيـن الى الكلام عن نظريـة النظم ، لارتباطها عندهم بكتاب ديني هو الفيدا وان هذا الكتاب أختلف الهنود حول اعجازه وأسباب هذا الاعجاز بما يمكـن أن يحدد به تصورهم لهذا الاعجاز وقضاياه الكبرى ،

وقد ذكر مؤرخوا الحضارة الهندية ان الاسكندر حين فتح الهند ، واستقر فيها دهش من كان معه من العلماء حين رأوا تقدم الهنود في أمثال هذه الدراسات التي تعنى بالنظم وأصوله ، واللغة ودلالاتها ، ثم تطور هذه الدلالة ، وحياة الألفاظ ، وما تعرضت له مـن احياء لبعضها أو اماتة له ، كمـا أن يسيرسون في كتابه عـن اللغة نشأتها وتطورها يشير الى الدور الذي قامت به الكشوف العلمية في الهند في تطور الدرس اللغوي الحديث ،

ولا نزاع في أن أغلب الذين عنوا بالدرس البلاغي كانوا مـن الموالي ولهؤلاء صلتهم بماضي هذه البيئات التي عاش فيها أسلافهم والتي تشكل

منطقة مـن الأرض قامت فيها حضارات وامتد بها عمران ، وذاعت فيها ألوان مـن الفكر والثقافة لا يستطاع انكار آثارها في امداد العقـل أو الفكر البشري بكثير مـن أصول النظـر الدقيق ، سواء أكان هـذا النظر يتعلق باللغة ووظيفتها ، أم الحضارة بعامة .

وبالرغم مـن أن اولئك البلاغيين كانوا مـن الموالى وأنهم عاشوا في ظل الدولة الاسلاميـة وأنه لم تكـن هناك حدود أو حواجز بين الأقاليم التي خضعت للحكم الاسلامي بالرغم مـن كل أولئك فان طبيعة المواريث العقليـة تحدث آثارها في منهجيـة التفكير عند كل فرد له صلة بها فاذا نحـن نظرنا الى عبد القاهر الجرجاني أو الى عبد العزيز الجرجانـي أو الزمخشري أو سواهم ممن تركوا آثارا في الدرس البلاغي وجدنا أن أولئك جميعـا لهم أصولهم في الولاء ، وأن هذا الولاء أكسبهم القدرة علـى التحليـل والتركيب والبحث في طبيعة اللغة ووظيفتها ودلالاتها ، وعمل المجتمـع في تطور هذه الدلالة ، حتى تلائم تلك النقلات الكثيرة التـي يحدثها سيرا لزمن في حياته والتي يظهر أثرها واضحا على اللغة ، اذ أنهـا الأداةالتصويرية التيكان يتخذها مستعملوها منالأباءوالعلماء أداةتطوير حياة ذلك المجتمـع أدبيا وعلميـا .

وقد امتاز عبد القاهر الجرجاني كما قلنا بأنه كان أقدر أولئـك الباحثين جميعا على ابراز الأصول والقواعد التي ترتكز عليها نظرية النظم ، ومـن هنا أشرت اليه في كثير مـن فصول هذا البحث وأبوابه ،

وقد بنيت البحث ــ في البلاغة العربية على أصول أولها اللغةالعربية وتطورها الدلالي ، ثم لمحة عامة في تاريخ البلاغة مرتبطة بتطور حياة المجتمع العربي نفسه ، الى اشارات لحركات التجديد في الدرس البلاغي ،

وأن هذه الحركات منها ما كان بعثا لكتب عبد القاهر ولفتا اليها

ومنها ما هو متصل بدراسة التراث البلاغي القديم ورده الى أصوله التي صدر عنها ، وموقف الأديب المعاصر منها ـ في كتاب فن القول للاستاذ امين الخولي ،

ومنها ما هو نقد جريء لم يحاول فيه أصحابه بيان الأصول التي يعتمدون عليها في هذا النقد سوى النظرة الى التطور وعمله في تغيير الفن القولي وتطويره على يد سلامة موسى وجبر ضومط وجبران

ولم يكن بد من أن نلخص جملة ما انتهى اليه الدرس البلاغي ليكون لنا من هذا التلخيص فرصة نكشف فيها عن أصول نظرية النظم التي هي صلب العمل ، البلاغي ،

واذا كان الدكتور شوقي صنيف كتب كتابه عن البلاغة تاريخ وتطور فانه لم يعد الجانب الوصفي الى الجانب التحليلي ولكنه استطاع أن يحدد الخطوط الرئيسية التي سار فيها البحث البلاغي دون محاولة لتفسير نشأة هذه الخطوط مرتبطة بالمضمون الأدبي وتطوره ، وطاقاته الجديدة التي اكسبته أياها الثقافات والحضارات التي اتصل بها العرب،

على أني ـ في هذا البحث انتصفت لأسلافنا في محاولاتهم الكشف عن طاقات اللغة في التعبير والبيان وما أدى اليه ذلك الكشف من القدرة على تفسير النصوص وتحليلها ،

وانه ليكفي أن أذكر هنا أن البحث البلاغي أمد الاصوليين والمفسرين بكثير من القدرات النافذة لاستغلال طاقات اللغة في استنباط المعاني والاصول التشريعية التي يمكن أن يواجه بها المشرع سير الحياة وتطوره

وحسبي أني حاولت ـ وقديما قال اسلافنا ليس بشرط على المجتهد أن يصيب الحق ، ما دام قد أدى واجبه ، وبذل الجهد ليصل اليه ،

والله ولي التوفيق ،

العربية وتطورهـــا الدلالي

لا جدال في أن اللغة أقدر السائل التي عرفتها الانسانية في تاريخها الطويل للتعبيــر عــن الأفكار والانفعالات والعواطف وهي على قدرتها تمــتاز باليسر والسهولة وان كانت تنقصها الدقة احيانا ، ذلك لأن الطاقة اللغويــة عند المستعمليــن لها تختلف مــن شخص الى آخر ، يقــــول Potter (١) : « ان المعرفة قدرة ولكــن القدرة على اختيار الكلمات التي تؤدي بها هذه المعرفــة أقوى وأعظم سواء أكانت هذه الكلمات أريد بها الامتــاع أم الاخبار أم الاثارة » •

ولقد حرص البحث العلمي الحديث على أن يتعرف على المسالـــك العامة التي سارت فيها حياة اللغة مذ كانت وظيفة اجتماعية يمارسها الانسان ليؤكد بها ذاته ، وليستشعر عن طريقها وجوده ، متفاعلا مع غيره ممن يشاركه هذه الوظيفة ، ولقد كان مــن أثر هذا الاتجاه في درس اللغة أن وجدت تلك البحوث الكثيرة التي تعالج نشأة اللغة وتدرج حياتهــا ثم انقسامها الى فصائل لكل فصيلة خصائصها التي تميزها عن غيرهــا والتي تشاركها الأصل الذي صدرت عنه • ولسنا هنا بصدد الحديث عن النظريــات المختلفــة التي ظهرت وشاعت بين علماء اللغة والتـــي استقرأوا جزئياتها مــن واقع الأحداث التاريخيــة التي مرت بها حياة تلك الشعوب التي تتكلم هذه اللغات وتكتبها وتتخذ منها وسيــلة لنقل الفكر واذاعته في الناس ، فان لذلك كله مكانا آخر •

---

(١) Potter : Our Own Language. p. 2 - 3

وتقدير اللغويين لهذه الوظيفة الاجتماعية لا يتعارض وما ذهب اليه المناطقة القدماء منهم والمحدثون من أن اللغة في مجالها الاجتماعي تخدم ثلاثة أغراض ، فهي وسيلة للتوصيل ومساعد آلي للتفكير ثم هي وسيلة لتسجيل هذا الفكر كي يعود اليه الانسان لحظة بعد أخرى ابتغاء دراسته والاستفادة منه تجربة ماضية ، وتاريخا سالفا ، وهنا يفرق جفونز (١) بين اللغة المتكلمة واللغة المكتوبة ، ويشارك جفونز هذا الرأي الفيلسوف المعاصر برتراند رسل اذ يقول ان للغة وظيفتين جوهريتين هما التعبير والتوصيل ، واذا كان يسبرسن (٢) يدفع هذا الرأي ويناهضه ويظل مؤمنا بأن للغة وظيفة اجتماعية فان هؤلاء لا ينكرون الجانب الاجتماعي والسلوكي في حياة اللغة سواء أكانت لغة طفل يعبر بها عن رغباته وحاجاته أم لغة عالم أم فيلسوف ارتقت معه لغته فأصبحت تؤدي دورا آخر بالاضافة الى دورها الاجتماعي •

واللغة التي أريد الحديث عنها هي تلك اللغة الراقية التي تمثل أعلى مراحل التطور الفكري عند الانسان السوي، لا هذه اللغة في بدائيتها عند الطفل كما يرى هؤلاء العلماء •

والعربية التي هي موضوع الحديث ، فرع من الدوحة السامية ، ولا يهمنا الآن ذلك الجانب التاريخي من حياة اللغة الا اذا كنا نريد الحديث عنها من الناحية الفيلولوجية ثم من ناحية التطور

(١) Jespersen. Otto. Mankiad, Nation and Individual. p. 6

(٢) Jespersen. Otto Language : Its Nature, development and Origin p. 5

الدلالي الذي أصاب بعض ألفاظها نتيجة تكون هذا الفرع واستقلاله على مر العصور التاريخية وتتابعها ، وهذا الجانب أيضا يقوم به العلماء المتخصصون في هذه الدراسة على ما فيها من عنت ومشقة •

كل الذي أهدف اليه أن أتناول بالدرس مرحلة من مراحل تطور العربية مذ كانت لغة أدب ارتفع عن مستوى الحاجة الاجتماعية الأولى وأصبحت لغة توصيل ونقل على النحو الذي أشار اليه جفونز ومن تبعه من الدارسين • ونحن نعلم أن العربية أمست لغة أدب سجل بها أدباؤها أفكارهم ، وصوروا بكلماتها عواطفهم وكشفوا عن أحاسيسهم ، وهي لذلك اتخذت لها اتجاها خاصا يساير هذا النقل ، ويحققه على نحو ما يهدف اليه منشىء الأدب وصانعه ، وهنالك حقيقة ينبغي أن لا يغفل عنها اللغوي أو يسهو عن تقديرها فيما يتصدى له من دراسة ، وهي أن اللغة تتبع التطور الاجتماعي الذي تصيبه الأمة ، ذلك التطور الذي يحدث نتيجة لعوامل كثيرة أهمها :

التغير الاجتماعي الذي تتعرض له حياة الأمة والذي من أدق سماته وأبرز خصائصه احساس الفرد بذاته ، وشعوره بكيانه ، وعند ذلك تتبدل نظرته الى المجتمع الذي يعيش فيه ، والى القيم التي يخضع لها هذا المجتمع ، والواقع أن تلك القيم هي الأخرى تختلف في كل قطاع من قطاعات الحياة التي يمارسها هذا المجتمع ، ويصدر عنها سلوكه ، وتقديره للأشياء ، وحكمه عليها • فالقيم الفنية الجمالية تعيش في

قطاع الأدباء ورجال الفن بعامة ويقيمها الفرد المتذوق للأعمال الفنية في الحدود التي وضعها هؤلاء الأدباء واصطلحوا عليها ، والقيم العلمية تعيش في قطاع العلماء وأصحاب التجربة العلمية ، ولكل من التجربتين مكانها ، فالتجربة الفنية مكانها الاحساس والشعور ، فهي تعيش في ذات الفنان وتنبع من كيانه ، وتتغذى بما يصيب من قراءاته وثقافاته الفنية ، وتظهر فيها آثار الانطباعات الكثيرة التي يحسها ويعيش فيها . والتجربة العلمية تعيش في عقل العالم وتنمو في وعيه ، ثم تتحول آخر الامر الى قانون عام تفسر به ظواهر الوجود المادي تفسيرا تنكشف به الحقيقة .

والحق ان هذه القيم الفنية لا تحيا هملا دون ضوابط أو حدود وانما تقدر كذلك سير حياة المجتمع من حولها وتستهدي حكمه عليها وتقديره لها وتفسيره اياها ، ومن هنا نشأ علم الجمال .

ونحن لا يهمنا من هذا العلم في حديثنا أو بعبارة أدق ـ فيما يتصل بالجانب اللغوي الذي نقول فيه ـ سوى علم الجمال اللغوي اذا صح أن نسميه بهذه التسمية ، ويظهر أن القدماء من علمائنا أحسوا أو شعروا بضرورة أن يكون لهذا الجانب من دراسة علم الجمال تسمية خاصة به وان كانوا قد أسرفوا في هذه التسمية ، فسموا ما يتصل بالعمل الجمالي الخاص بالتركيب ـ بملاحظة حال المخاطب ـ علم المعاني ، وسموا التصرف في فنون القول وضروبه للتعبير عن الفكرة التي يراد أداؤها بعلم البيان ، كما سموا أنواع

الزخرف التي يصطنعها الأدباء بعلم البديع • وهذه التسميات جميعها تشكل تحديدا اصطلاحيا لعلم الجمال اللغوي ، ونحن اذا حاولنا أن نتتبع الأسباب والعوامل التي أدت الى ظهور هذه العلوم الثلاثة أو كما نسميها علم الجمال اللغوي ـ انتهى بنا هذا التتبع الى أن الباعث الأول على النظر فيها ليس الا الوصول الى ضروب الجمال المعجز التي نزل النص القرآني عارضا لها ولافتا اليها ، وهي بذلك لا تدخل في باب الاعتقاد الا بشيء من التسمح وانما الأصل فيها هو اللفت القوي الى وجوه التفنن الجمالي المتفرد الذي جاء به القرآن •

ومن هنا فرق أسلافنا بين ما هو حقيقة يقصد بها أداء الفكرة أداء يسيرا يصل الى الذهن عن أقرب طريق وأقصر سبيل وبين المجاز ، وحتى ذلك المجاز متى استقر في البيئة مدلوله وتحدد معناه عاد الى ما كان عليه أولا من تسميته بالحقيقة ، مقيدة بعرف هذه البيئة وتواضعها •

والواقع أن فكرة تقسيم المدلول الى حقيقة ومجاز تعتمد أساسا على التطور الزمني للغة ، وقد يدخل في هذا التقسيم عامل ديني يتصل أساسا بفكرة الخلق ، وهل يصح أن يضاف الخلق الى غير الله أو لا يصح ، ولعلنا نذكر حديث البلاغيين العرب ومناقشاتهم الطويلة حول « أنبت الربيع البقل » فتقسيم اللغة اذن الى حقيقة ومجاز أمر اقتضاه الاستعمال اللغوي المتدرج بما يصيبه المجتمع من ثقافة وما يقتضيه اتساع معرفته من تخصص بعيد الغور دقيق الادراك ، والمجتمع

نفسه هو القاضي على هذا الاستعمـال والمحدد لمكانه مـن سير الحياة اللغويـة •

والمجتمع العربي الاسلامي قد عاش أول أمره في جزيرة العرب ، ومنها تعددت هجراته الى ما حوله مـن البيئات الأخرى سواء أكانت هجرات تدفـع اليـها الحاجة ويقضي بها تحصيل المنفعة المؤدية الى حفظ الحياة ورعايتها أم هجرات قضى بها الايمـان بالديـن الذي اهتزت له وبـه نفسيـة العربي وكيانه فاسترخص في سبيـل نشره واذاعته في الناس وابلاغه اليهم نفسه ، فكانت الحروب الاسلاميـة التي كانت أول وسيلة مـن وسائل الاحتكاك بيـن العرب وبيـن غيرهم مـن شعوب الأرض، ولقد كان مـن أهم ما يدفع عـن هذه الحروب وصفها أو تعليلها بأسباب اقتصادية أو مادية ـ أن القائمين بها حولوا كثيرا مـن البلاد المفتوحـة الى معاقـل للفكـر ومصادر للمعرفة • ولكنها كانت معرفة مـن نوع خاص تتصل بهذا الديـن تفسر كتابه وتستنبط الأحكام منه وتهـدي الناس الى ما فيه مـن تشريعات تنظم حياتهم وتدبـر شئونهم وتحميهم من شره النفس وافـن العقل ونزوة الضمير •

فكانت هذه المدائـن وتلك الحصون معاقل لهذا الديـن بمعنـاه الواسع سواء أكان أصولا تحدد مسلك العقيدة ، وتنفي عنها ما أصابها مـن اضطراب أم فروعا لها آثارها القوية في تربية النفس وتهذيب الخلق ومنهـا هذه العبادات التي تقوم أساسا على مبدأ الطاعة لاله واحد •

وتقرأ في تاريخ هذه الفتوح فتملك نفسه الدهشة ، اذ كانت هذه

البيئات قبل الفتح الاسلامي تدرس ثقافات ومعارف يغلب عليها الطابع العقلي أو تعتمد على التجربة المادية ، ثم قامت المدن التي بناها العرب الفاتحون في هذه البقاع تجمع في دراستها بين الدراسة التشريعية واللغوية مجتمعة هذه الدراسات كلها حول النص القرآني فيما يقدره دارسه من التأمل والاستشراف ثم التطبيق العملي لما يصل اليه من أحكام وقواعد • فقد كان العرب اذن يدرسون كتابا دينيا يجمع بآياته أوصال الانسانية التي حطمها التعصب المذهبي الديني • وكان الجانب الروحي الذي نزل الكتاب عارضا لمقاصده وأهدافه من أهم الدوافع التي حدت بالمسلمين أن يصلوا بين النص وبين الأديان السابقة حتى يمكن فهم الجديد الذي نزل به القرآن باعتباره التجربة الدينية الخالدة على الأيام ، ولا يستطيع دارس أن يصل الى ما يطمع فيه بعد درس النص دراسة واعية أصيلة الا اذا عرف تاريخ اللغة التي نزل بها النص وأسرارها في التعبير ، ومقاصدها في البيان •

وأولئك جميعا كانوا يقدرون أن العربية تمتاز عن غيرها من اللغات التي عرفها العالم المتحضر آنذاك ، والتي اتخذها وسيلته في التعبير عن ذاته ثم التعبير عن امكانياته الحضارية المتعددة • تمتاز العربية عن هذه اللغات بأنها عاشت في جزيرة العرب حتى أدركها الاسلام ، وهذه الجزيرة لها طابعها الخاص وخصائصها المتفردة بها ، واذا كانت الحضارات الانسانية قد اتخذت شواطىء الأنهار وبقاع الخصوبة والازدهار أماكن لها ومنها كانت نقطة البدء في رحلاتها الى كثير من الآفاق ، فان العربية التي وصلت الينا قد عاشت في أعماق الصحراء فاكتسبت

خصائص هذه البيئة ، وكان مما تمتاز به هذه اللغة الايجاز في أبين صوره وأوضح مظاهره وأجلى قسماته ، ولكنه ايجاز ينمي في قارىء النص ملكة التأمل ــ في المعنى واستقصاء جزئياته والاستشراف الى ما وراء هـــذه الجزئيات مــن معان ــ ويبدو أن القرآن وهو كتاب العربية الأول حين نزل على الرسول ــ في هذه الصحراء ــ كان يقدر احساس العرب بلغته فكان يكتفي باللمحة ويجتزىء بالاشارة كي يثير فيه ملكة التطلع الى ما وراء هذه الاشارات واستشفاف ما كانت هذه الألفــاظ دليلا عليه .

ولقد أحس العرب ما كان بين القرآن وبين هـــذه اللغة ــ في اطار هذه الخصائص ــ مــن صلة فتداعى الناس الى الشعر العربـــي يدرسونه ويكشفون عــن خصائصه رجاء أن يعينهم ذلك كله على فهــم النص فهمــا تتكشف لهم به معانيه وتتضح لهم به مقاصده .

غيــر أنه ينبغي أن نلفت الى شيء طال القول فيه وهو رد بعـــض الشعــر الجاهلي (١) لأنه تناول بعض المعاني الفلسفيــة التى لم يكــن للعرب بها سابق تجربة ، ومنها أبيات طرفة عــن الموت وفلسفــة الحياة. وقد شايع هؤلاء الشكاك أستاذنا الدكتور طه حسيــن عصر شبابه ، غير أنا لو حللنا هذه الأبيات لم نجدها تخرج عن نوع ما من التأمل في مظاهر الحياة التي يمارسها الفرد ، وأقرب هذه المظاهر وأشدها فعلا في النفس ما يمس الانسان بما هو كائن يعرض له ما يعرض لأحياء الدنيــا فليس فيه فلسفــة ولا شبهها .

(١) طه حسين في الادب الجاهلي.

واذا أردنا أن نتحدث عــن خصائص هذه اللغــة كفانا عن الدخول في مشكلــة الانتحال ــ القرآن الكريم ، وان كان هو في واقع الأمر يمثل مرحلة مــن مراحل التدرج في حيــاة هذه اللغة فارتقى بها الى أن تكون تعبيرا عــن واقع مضطرب بما يحمل بين أطوائــه من عوامــل الفساد وأسباب التهافت ، هادفا مــن ذلك الى رسم المعالم الجديـــدة للمجتمــع الاسلامي بمــا يزيل مــن طريقة هذه العوامل وبما يدفع عنه آثــارهــا •

فالقرآن الكريم اذن يمثل ناحيتين ، همــا الناحية الواقعية التــي يحياها المجتمــع العربي في صحرائه ثم هذه الناحية المثالية التي ينبغي أن تكون هدفا ومقصدا • أما الشعر الجاهلي فلم يكــن له الا تصويــر هذا الواقع والتحدث عنه ، ومن هنا شاع في هذا الشعر الوصف المادي للسفر والاغتراب والحرب وأهوالها والكرم في آثاره البادية ومعالمه الشاخصة ، والجمال في قوام العذارى وخدود الحسان وتمنع المترفات الناعمات ، وما اليها مما لا يعدو الحس أو يتجاوزه الا يسيرا •

وفي حدود هذه المادية الحسية يقدم لنا المروي مــن الشعر الجاهلي صورة دقيقة لحياة هذا المجتمع ــ يرى فيها الدارس وظيفة اللغة في هذه الفترة ، وفي حدود هذه الوظيفة يستطيع أن يدرك خصائصها المميزة لها وأن يتتبع هذه الخصائص وما أصابها مــن تغيير أو تعديــــل فــي مراحل حياتها المتتابعة ، ونحن لا يعنينا هذا الجانب كله وانما نكتفي بأن نلفت الى جزئية منه ، وهي أن اللغة كانت تؤثر استعمــال الألفــاظ في

مدلولها الأول أو في قريب منه ، وأن التفنن الأدبي لم يكن رحب المجال الا قليلا ، وفي بعض أبيات أو مقطوعات ، ومن هنا يكثر في ذلك الشعر التشبيه في صوره الأولى ويستعمل من أنواع الاستعارات ما كان قريب الدلالة يسير التناول ، وحسبك أن تقرأ كثيرا من أشعار الجاهليين لتدرك صحة ما نقرره وتحدد أبعاده ، غير أن هنالك ملحظا ينبغي التنبيه اليه وهو قدرة الجاهليين على تساوق النظم وقوته وتماسك بنائه وتصرفهم في اختيار الكلمات وأكثرها اثارة مما أكسب لغتهم القدرة على التعبير وزاد من طاقتها المصورة •

فقد رأينا اذن أن المعاني التي كانت تعيش عليها العربية في صحرائها مشتقة من الواقع المادي الذي يعيشون فيه وأنها لذلك لم تسم ببيئتها الى أبعد من هذا المستوى ـ الا في عقل الشعراء وأذواقهم حيث يفسرون هذا الواقع ـ كما في أبيات طرفة عن الحياة والموت ، أو يتخذون منه مادة لشعرهم بعد أن يضيفوا اليه من أحاسيسهم ما يرتفع به عن مستوى المادية الضئيلة أو المهزوزة ، ولم يكن لدى العرب يومئذ من منابع ثقافية تزود اللغة بزاد أعمق وأخصب ، ومن هنا كانت دهشتهم عندما سمعوا القرآن ووجدوا فيه قيما فنية من نوع آخر لم يتح لهم أن يتصلوا بها ، ومن هذه القيم ما يمس الصورة أو الاطار الفني الأدبي ، ومنها ما يمس الفكرة ، ومنها ما يتصل بالتصرف في اللغة نفسها من ناحية الاشتقاق وتعدد الصيغ ، ثم من ناحية التركيب واختيار الكلمات على نحو يجمع بين اثارة الوجدان والعقل جميعا ، سواء في ذلك كله الوحي المكي أم المدني ، ومن هنا كانت الوحدة

الفنيـــة ــ في أدق معانيها ــ هي السمة البارزة لهذا النظم الالهي ، بالرغم مـــن أن الوحي المدني يعرض ضروبا من الفكر وألفافا مـــن المعانى مخالفة نوعا ما لما يعرضه الوحي المكي ، ولكنه السمو باللغة الى مستوى يجعلها متكافئة مهمـــا اختلف الموضوع وتشعبت طرائق المعاني ، وبهذا كـــــان القرآن يمثل مرحلة أخرى مـــن حياة هذه اللغة ، ولنا عودة الى الحديث عـــن مادية اللغة الأولى لأنها في الواقع المرحلة الاولى مـــن مراحل حياة اللغة ، وعلى هدى منها تقال الكلمة في التجوز في اللفظة المفردة ، وفي حدود هذه المادية يبحث عـــن كم المعنى نفسه ، ثم تحول هذه المادية الى آخـــر ما يذكـــرونه مـــن أنواع التجوز في هذه اللفظة .

وهكذا عاش القرآن يؤدي وظيفته في هداية الناس وتقويم سلوكهم وتصحيـــح عقائدهم والتشريع لحياتهم بما يعين هذه الحيـــاة على اطـــراد السيـــر وسلامة القصد ، وعاش الشعر في أعماق الصحراء مشدودا الـــى هذه المعاني ، أما أولئك الشعراء الذيـــن أسلموا فقد أنشأ القـــرآن يحدث أثره في لغتهم وان لم يظهر الا في حدود ضيقة ، ذلك لأنهم وجهوا شعرهم الى الدفاع عـــن صاحب الدعوة الاسلاميـــة بهذا السلاح الذي كان يستخدمه الجاهليون تاركين الدعوة لكتابها المعجز تغـــزو القلـــوب وتأسر الأفئدة وتستثير الفطرة بما تدعو اليـــه مـــن الأخوة النبيلـــة والتراحم الموصول على أساس مـــن الحق وركيزة مـــن العدالة .

وعني مـــن ليس شاعـــرا بالقرآن يحفظه ويقرئه الناس ويجالس الرسول فيستمع اليـــه وهو يفسر آياته ويبيـــن أحكامه ويهدي الى وجه

الحق من تأويله ، ويراه يؤدي الشعائر عملا فيأخذ عنه طريق الأداء حتى يكون فهمه للأمر به في كتاب الله موصولا بالعمل والتطبيق، ولم تعد لأولئك حاجة في أن يستمعوا الى الشعر ويتماروا فيه الا ما كان منه ملابسا للدعوة ومنافحا عنها • وكان الأمر كما قال ابن فارس : « وشغل القوم بتلاوة الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وبالتفقه في دين الله عز وجل وحفظ سنن رسول الله مع جهادهم أعداء الاسلام فصار الذي نشأوا عليه ونشأ عليه آباؤهم كأن لم يكن وحتى تكلموا في دقائق الفقه وغوامض المواريث وغيرها من علم الشريعة وتأويل الغرض مما دون وحفظ حتى الآن » (1) •

وقد أدى نزول القآن على هذا النحو الى أن تغيرت مفاهيم كثيرة من الألفاظ التي عبرت عن مقررات من هذا الدين عقيدة أو عملا وكان ذلك أول باب من أبواب التجوز في حياة اللغة بعد الاسلام فمن ذلك المؤمن والكافر والمسلم والمنافق والصلاة والزكاة والحج والعمرة والجهاد ، وما اليها من الألفاظ التي صارت فيما بعد حقائق يدل بها على أبواب العبادة وطرائق التشريع •

ولم يقف أثر القرآن عند هذا التجوز في بعض الألفاظ وانما أبطل كثيرا من الألفاظ التي كان يستعملها الجاهليون وبخاصة في بيئة المتدينين بالاسلام ومنها المرباع والنشيطة والفضول والاتاوة والمكس ،

---

(1) ابن فارس الصاجي

كذلك أبطل الاسلام كثيرا مـن الألفاظ التي كانت تستعمـل في مخاطبة الملوك وذوي السلطان ، والرسول نفسه قد نهى عـن استعمـال بعض تعبيرات كقولهم « خبثت نفسه » وما اليها مـن العبارات المؤدية الى التشاؤم ، كذلك هون القرآن من استعمـال ألفاظ لها دلالتها الدينية عند الجاهليين ـ على نحو ما كانوا يعتقدون يومئذ الا في معرض الحديث عن فساد هذه الأديـان •

وبذلك كان القرآن حدثا ضخما في تحويل حياة اللغة وتوجيههـا الى أن تكون لغة فكر يخطط لمستقبل هذه الحيـاة ويصلح واقعها ويدل على مواطـن العبرة في مظاهرها الكونية ، كما أنه بدأ الخطوة الأولى لوضع الأسس الكفيـلة ببنـاء تشريع منظم يفي بحاجات هذه الحياة ، وبهذا التشريع اتجهت اللغة في عقـول المسلمـين وتفكير فقهائهـم ومشرعيهم الى أن تكون لغة علميـة تتحدد بها الفكرة تحددا واضحـا وذلك لارتباطها بالحكم الذي يراد فهمه وتطبيقه ، والحكم في عامـة أمـره لا يخاطب الوجدان ، وانما يخاطب العقل الذي هو مناط التفكير ، ودعامة الاقناع ، ووسيلة الفهم ، وفي سبيل استنباط الحكم ، وتحديد طريقة تطبيقه أنشأت اللغة تتجه الى الاصطلاح ولكنه اصطلاح يـدور في مجال الحكم ، وفي سبيل التطبيق •

وفكرة الاصطلاح هذه كانت مـن بيـن العوامل التي أدت الـى وضع علم الأصول ، ومـن هنا نجد المقدمة اللغوية لهذا العلم تحتل مكانا ملحوظا ، وهي لذلك تحتاج الى دراسة خاصة تكشف عـن تصـور

الأصوليين للغة وآرائهم في نشأتها ودلالة الألفاظ وتطور هذه الدلالة ونرجيء القول في هذا كله الى مكانه من سلسلة التطور الذي نقول فيه •

واذا كان التطور اللغوي لا يقف عند الألفاظ وحدها بل يشمل جوانب اللغة وأصولها من اللفظة المفردة الى التركيب وما بينهما من قواعد النحو والصرف فانه لا معدي من القول في هذه القواعد ، ومكان القرآن الكريم في حياتها ، وما اقتضاه نظمه المعجز من تعديل لها أو تغيير فيها ، غير أنه ينبغي أن يسبق القول في هذا كله عرض للكلمة المفردة ــ في لغتنا ــ وهنا تعوزنا المصادر التي تدلنا على حياة الكلمة ، فلم نعثر حتى الآن على حفائر تدلنا على التدرج الذي سارت فيه حياتها غير أنه ينبغي أن نذكر أن الكلمة التي هي أساس اللغة والحجر الأول في بنائها قد نزل بها القرآن ، وأن الله تعالى أذن لنبيه (١) أن يقرأه بصوره المختلفة ، وأن دراسة هذه القراءات تلقي ضوءا على حياتها • والذين كتبوا في القراءات متواترها وشاذها حاولوا أن يردوا بعض الألفاظ الى القبائل التي كامت تستعملها ، كما استطاعوا أيضا أن يردوا بعض صور النطق بها الى هذه القبائل ، ولعل هذا يقودنا الى أن نقول كلمة عن اللغة التي نزل بها القرآن ــ أهي لغة قريش أم اللغة العربية بمعناها الواسع ؟

كذلك لم يصل الينا ما نستطيع به الاجابة عن هذا السؤال ، وهو

(١) انظر مقدمة تفسير الطبري في كلامه عن اللغة التي نزل بها القرآن ، وتفسيره للحديث المشهور أنزل القرآن على سبعة احرف وكذلك مقدمة تفسير النيسابوري والقرطبي.

ما يمكن أن نميز به بين لغة قريش وبين غيرها من لغات العرب ، غير أن دراسة حياة هذه القبيلة قد تكشف عن طبيعة اللغة التي تعزى اليها ، وتنتسب اليها ، فاذا كانت قريش تسكن مكة وكانت ترحل الى الشمال والجنوب في رحلاتها المتتابعة صيفا وشتاء ، وكانت القبائل تفد الى مكة ابتغاء التجارة والحج جميعا ، وكانت قريش تتصل بهذه القبائل وتعلمها مناسك الحج وتحكم بينهم فيما يعرضون عليها من خصومات تنشب بينهم ، كان طبيعيا ــ وذلك مكانها من العرب ومن بيت الله الذي يحجون اليه جميعا ، يلتمسون في رحابه الطمأنينة والأمن ، ويجدون في جواره برد السلامة والعافية ــ أن يقوى اتصال هذه القبيلة بغيرها من القبائل على اختلاف درجاتها ، وتباين أماكنها وأصقاعها ، وأن تأخذ من لغاتهم أصفاها لفظا ، وأرقها حسا وأبينها مقصدا • فاجتمع اليها على مر الزمان ، واختلاف الأعصار ، لغة امتازت عن سواها من لغات العرب بوفرة الألفاظ المختارة ، وصارت بذلك صالحة لأن تكون لغة كتاب الله الذي أنزله على رسوله ، ويرجح ابن فارس أن ذلك كان شأن هذه اللغة وتلك منزلتها بين لهجات العرب بأنه لم يؤثر فيما يروى لنا من آثارها عنعنة تميم ، ولا عجرفية قيس ، ولا كشكشة أسد ، ولا كسكسة ربيعة ، ولا الكسر الذي شاع في أسد وقيس في أول الفعل المضارع في مثل قوله يعلمون ويعلم ، ولا في أول بعض الألفاظ مثل شعير وبعير [1] •

---

(١) ابن فارس الصاحبي ص ٢٣

ويظهر مما أشار اليه ابن فارس أن العربية التي كان يتكلم بها العرب قبل الاسلام كانت قد أنشأت تأخذ صورة تكاد تكون واحدة لا فرق في ذلك بين شمالي الجزيرة وجنوبيها ، ومرد ذلك الى طبيعة الاحتكاك بين القبائل ، واجتماعها في الحج ، وتنافرها في الأسواق ، والتقائها فيها ، وان كانت كل قبيلة كانت لها لهجتها الخاصة التي يتم بها التفاهم بين أفرادها فيما يعن لهم من شئون الحياة رجاء انتظام أمرها ، وتدبير العيش فيها ، ومعنى هذا أنه كانت هناك لغتان ، لغة للحياة التي يعيشها الناس جميعا لا فرق بين السادة والمسودين، وانما هي لغة مشتركة بينهم جميعا ، وهنالك لغة عالية وصل الينا فيها هذا الشعر وتلك الخطب التي وردت الينا صحيحة السند ، وليس في هذا ازدواج يخشى منه أو تضطرب له الحياة ، على أن هؤلاء الذين كانوا يمارسون الجانب العملي للحياة فيقومون عليه ، وينشطون له ، ويجدون في النهوض به لم يكونوا عاجزين عن فهم هذه اللغة العالية فهما يستطيعون معه ادراك المعنى العام أو الفكرة التي يصدر عنها الشاعر أو الخطيب .

بهذا الازدواج الذي تقضي به طبيعة الحياة اللغوية في أية أمة من الأمم عاشت اللغة العربية في فجر حياتها الأول ، غير أن التاريخ اللغوي لم يحفل بتسجيل خصائص اللغة العامة الا حين تقضي الضرورة لبيان الفرق بين الاستعمال في اللغة العالية وبينه في اللغة العامة التي تعيش على الأرض ، وليست هذه الكسكسة أو العنعنة الا صورة من هذه اللغة ، على أن هذه اللغة العامة كانت تختلف من بيئة الى أخرى ، اختلاف المقومات البيئية والاجتماعية التي تستند اليها حياة القبيلة ،

وربمـا كشف البحث العلمي يوما أن هذه اللغة كانت تنقسم الى قطاعات تخضع لسكنى القبائل وتجاورها وانحدارها مـن أصولها الأولى ، وقد تلحظ الاشارة الى هذه القطاعات فيما بين أيدينا مـن كتب اللغة فتارة يقولون : لغة أهل العالية ، وتارة يقولون : لغة تميم ، وتارة يقولون : لغة قضاعة ، وما تلك القبائل الا مجموعات مـن القبائل تشترك في الأرض والعادات والتقاليـد ، ونظام الحياة ، ووسائل طلبها ، ولغتها ليست الا تسجيـلا لواقع هذه الحياة بمقرراته ، ومسالكه وتطبيقه لقواعدالسلوك اللغـوي .

ان النحاة مثلا حين يتحدثون عن الأدوات التي تعمل عمل ليس في أنها ترفع المبتدأ وتنصب الخبر يقولون انها أربع وهي : ما ولا ولات وان، ثم يفصلون القول فيها فيقولون ان أهل الحجاز كانوا يعملونها عمـل ليس ، وبها ورد التنزيل في قوله تعالى « ما هذا بشرا » وفي قوله تعالى : « ما هن أمهاتهـم ان أمهاتهم الا اللائي ولدنهم » ، أما بنو تميم فـلا يعملونها ، وهي في كلا القطاعين تنفى بها النسبة القائمة بين طرفي الجملة ، فاذا كان أهل الحجاز يعملونها ، وبنو تميـم لا يعملونها ، فما هو موقف بقيـة هذه القبائل الا أن يقال ان غربي الجزيرة ووسطها يعملانها أمـا شرقيـها فلا يعملها .

واستمـع أيضا الى حديثهم عـن «ان»[1] وأنها في لغة أهل العالية تعمـل عمـل كان ، ولم يرد في كتب اللغة شاهـد سوى ما سمع مـن

---

(١) ابن هشام : مغني اللبيب في كلامه عن ان .

بعضهم يقول : « ان أحد خيرا مـن أحد الا بالعافية » ، أما ورودها في القرآن غير مستوفيـة شروط الاعمـال فانها لا تخرج عن افادتها النفي وحده كمـا في قوله تعالى « ان أنا الا نذير لكم بيـن يدي عـذاب شديد » ، ونسمع قريبا مـن ذلك في كلامهم عن « أمس » وخلاف الحجازيين في اعرابها والتميميين ، وكذلك الأمر في حزام وقطام ، وكل علم لمؤنث على هذا الوزن ، وهكذا نرى في كلامهم ما يدل علـى أن اللهجات العربيـة لم تكـن سوى قطاعات لغوية تحتاج الى دراسة واسعة لا بد فيـها مـن درس حياة هذه القبائل وأماكنها ، واستقراء الشعراء الذيـن ظهروا في كل قبيلة ، والبحث عـن آثارهم الفنية حتى يمكـن تصويـر السلوك اللغوي عنـد هذه القبائل وتحديد الفروق بين أنواع هذا السلـوك .

وهنا ملحظ تنبغي الاشارة اليه ، فكثير مـن الدارسين لا يعنون بالتفرقـة بيـن السلوك اللغوي لقبيـلة ما ، وبيـن المذهب النحوي ، فليسـت اللهجة سوى سلوك لغوي له دلالته الدقيقة العميقة على نوع الحياة التي كانت تمارسها القبيلة أو القطاع من القبائل موصولة الأسباب بغيرها مـن القبائل أو منعزلة عنها ، أما المذهب النحوي فليس الا تخريجا لهذه اللهجة ، وتعليلا لمظاهر السلوك اللغوي ممثلا فيها ، ومـن هنـا يختلـف النحاة في هذا التخريج الى مذاهب منها البصري والكوفـي والبغدادي والأندلسي ، وربمـا دخل بينها المذهب المصري في دراسـة النحـو واللغـة جميعا ، وقد رتبوا على ذلك قولهم في السماع والقياس

في اللغة ، وهم بهذا التقسيم انمـا يشايعون الأصوليين ويجـرون في حلبتـهم ٠

وكان أول مـن بالغ في نقل تقسيمـات الأصوليين ومصطلحاتهم مطبقا اياها على الدرس اللغوي ابـن جني في الخصائص غير أنه ينبغي أن نشير الى أن هذه المصطلحات ربما أدى استعمالها عند أهل اللغـة الى شيء مـن الاضطراب أو ما هو منـه بسبب ٠٠

ولا تتكشف آثار هذا الاضطراب الا حين نقارن بيـن مفهـوم اللفظتين عنـد الفقهاء وأهل اللغة ، فالفقهاء أو الأصوليون يريـدون بالسمـاع النص الذي يدور القياس في مجاله وهو أصل اطراد الحكـم وما كان منـه لا يتفق وهذا الاطراد ليس الا استثناء مـن عمـوم الحكم أما القيـاس عنـد أهل اللغة فهو هذا الاطراد والسـماع ليـس الا الاستثنـاء الذي يجوز استعماله ولا يقاس عليه غيره ٠

فقد رأينا أذن أن القياس في دراسـة الظواهـر اللغوية ليس الا القاعـدة العامة التي أدى اليها استقراء النصوص ، وجمع الجزئيات ، وأن هذا القياس يمثل القدر المشترك بين هذه اللهجات وأن السمـاع لا يمثل الا بعضا من صور الانفراد الذي تمتاز به بعض القبائل عن بعض٠

وتشمل ظاهـرة القياس فيما تشمل بعض وجوه القلب أو الاعلال أو ابدال بعض الحروف مـن بعض ـ على هذا النحو الذي وردت به بعض الآيات القرآنية ، كما في قوله تعالى « واذكر بعد أمة » ، وكمـا

في قوله تعالـى اثاقلتم ألى الأرض أرضيتم بالحيـاة الدنيـا مـن الآخرة » وكما في قوله تعالى « فاذا هم يخصمون » ٠

واذن فاستقراء جزئيات النحـو وتفسير الظواهـر التي تدل عليها هذه الجزئيات يدل على أن اللغة في عصرها الجاهلي كانت تمثل قطاعات لغويـة متميزة وأنه كان هنالك قدر كبير مشترك بيـن هذه القطاعات كان يتم به التفاهم في المحافل والتنافر فيها ، والاستماع الـى الشعر والاجازة عليه ، وتقدير ذويه ، وإن فكرة تقسيم العربية الى عربية شمالية وأخرى جنوبية ، وأن وصف الجنوبية منها بأنها كانت بعيـدة عن العربية الشماليـة ــ تقسيم لا أساس له ، ولا تنهض به ــ كما يقولون ــ حجة، ولا يستقيم معه فهم الحياة اللغوية في عصرها الجاهلي ، فاما هذه الحفائر التي عثر عليها في هذه المناطق والتي اتخذت دليلا على صحة هذا التقسيم فانا لا نكاد نطمئـن اليها الا اذا قامت حفائر مثلها في الشمال وقورنت هذه الحفائر بعضها ببعض حتى يمكـن أن نقول كلمتنا في هذا التقسيم وقد استكمـلت أسباب الاطمـئنان اليـه ، ووسائل الثقة فيه ٠

أما أن هذه الحفائر لها دلالتها على نوع مـن التدرج في حيـاة اللغة فكذلك ما لا نستطيع الاطمئنان اليه الا اذا حاولنا أن نتبيـن مـن خلالها مدى ما تركته الغزوات التاريخيـة في حياة هذه البيئة ولهجاتها من أثر سواء أكانت غزوات حبشيـة أم غير حبشية مما تشير اليه المصـادر التي بين أيدينـا ، ومع تقديرنا لهذه الآثار فانا لا نستطيع أن نقول فيها الكلمـة الآمنة مـن الاعتراض الا اذا وصلت الينا حفائر قال فيهـا

التاريخ كلمته الأخيرة في أنها تمثل اللغة العربية الجنوبية ـ كما يرون ـ بعيدة عن هذا التأثر قبل أن تتعاقب عليها هذه الغزوات التاريخية .

كل الذي نستطيع أن نقوله أن جنوب الجزيرة العربية كان يمثل قطاعا لغويا وصلت الينا بعض النصوص الدالة على بعض خصائصه ومشخصاته كتعريف الكلمة بأم بدل أل وبهذا روي هذا الأثر : ليس من امبر امصيام في امسفر ، وقولهم : من دخل ظفار حمر أي استعمل لهجة حمير . وهذه النصوص ليست من الكثرة بحيث تبيح لنا أن نتحدث بشيء من الافاضة عن هذه اللهجة .

وقد دللنا قبل على بعض الخصائص التعبيرية لهذه اللغة في هذا العصر وأنها كانت تجنح الى أيسر صور التعبير وأشدها ايجازا ، وعللنا ذلك بأن طبيعة الحياة عند البدوي لم تكن تأذن له بهذه السعة التي تأذن بها الحياة المتحضرة ... فكما كان يكتفي من ماديات الحياة بأهونها وأقلها كذلك كان أمره في استعمال لغته . ويبدو أن هذا الشظف الذي كان يعانيه كان له آثاره أيضا في أنواع الصورة الفنية التي كان يؤثرها لتكون مصورة للمعنى الذي يريد أداءه أو الاحساس الذي يود بيانه وجلاءه .

ثم نسأل : أكان ذلك هو الاطار العام لطبيعة التعبير الشعري في هذا العصر بحيث يشمل شرقي الجزيرة وغربيها ووسطها وشمالها وجنوبها ـ أم أن الأمر كان يختلف من بيئة الى أخرى ؟

---

(١) هذه القبائل يذكرها ابن تادرس وكما عدها الطبري منها سعد بن بكر وجشم بن بكر وحضر بن معاوية وثقيف.

هنالك بعض الروايات التاريخيــة تدل على أن هذه القبائل كانت تتفاضل فيما بينها ، مــن ناحية الفصاحة ، والبعد عــن التأثر بآثــار أجنبية ، فنقرأ في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيلقاك هــــذا الخبر : أنا أفصح العرب بيد أني مــن قريش وأني نشأت في بني سعد بن بكر ــ وكان مسترضعا فيهم وهم الذيــن قال فيهم أبو عمرو بن العــلاء أفصح العرب عليا هوازن وسفلي تميم ، واذا ما حاولنا أن نتتبع حيــــاة هذه القبائل التي أشار اليها أبو عمرو بــن العلاء اتتهينا الى أنها كانت بعيــدة عــن التأثير الأجنبي الطارىء على أطراف الجزيرة سواء أكــان تأثيرا فارسيا أم روميا أم حبشيــا • والطبري نفســه عنــــد تفسيره لهذا الأثر : أنزل القرآن على سبعة أحرف • وقد اطمأن الى أن معناه سبع لهجات مــن لهجات العرب التي سلمت من التأثر بآثار أجنبية ، يعد سبعا مــن هذه القبائل التي امتازت بالفصاحة ، وبرئت مــن الاختلاط بسواها ممــن فيــه شائبة عجمة فارسية كانت أو روميــة بعيدة عن الجــــواء الحضرية ، ثم يناقض الطبري نفسه عندما يتعرض لعربية القرآن ويشايع فيها الشافعي في رسالة ، وأبا عبيدة معمر بن المثنى وســـواهمـــــا اذ يقرر أن القرآن ليس فيــه لفظ أعجمي ، وما قــــد ورد فيه مــن بعض الألفاظ التي تشتــرك وبعض الألفاظ الاعجميــة فليس الا مــن آثار الاتفاق في الوضع • ثم يضطرب الامر عنده في الاستشهاد على عربية هذه الألفاظ فيستشهد بشعر النابغة والأعشى وكلاهما قد تأثر بهذه التيارات اللغوية التي تعرض لها ــ في شرقي الجزيرة وغربيها ، ولم يتجه الطبري الى شعــر هذه القبائل التي فسر بها هذا الأثر •

كل أولئك يدل على أن الفصاحة والخلوص من التأثر بمؤثرات أجنبية كان مـن بيـن الموازيـن التي توزن بها القطاعات اللغوية أو اللهجات العربيـة •

كمـا يدل على أن الاحتكاك بين العربية وغيرها مـن اللغات كان قائمـا بل كل يحدث آثاره في حياة هذه القطاعات الا ما عاش منها في أعمـاق البادية فلم يكن التأثر فيه واضحا وضوحه في القطاعـات الأخـرى •

بهذه اللغة نزل القرآن •• وبهذه السمات الدقيقة المميزة لهـا حليت بها آياته •• فأكسبها بمعانيه تطورا جديدا كما أكسبها باعجازه قدرة على التصرف في التعبير واختيار الكلمات ودقة النظم ، مما أدى آخـر الأمر الى هذه الثروة النقدية مهما قيل في التنقص منها أو التهوين مـن شأنها ، أو الدعوة الى اعادة النظر فيها بما يسايـر التطور الأدبي الذي انتهى اليه الانتاج الفني في هذا العصر ، ولكنها على أية حال ثروة تدل دلالة قوية على أثر القرآن نفسه في نشأتها ، وتدرج حياتها ، وهـي في عامة أمرها مـن العمل اللغوي بسبب وثيق اذ أنها تمهد السبيل الى التحليـل الأصيل للنص بما يبين عن قدرات اللغة وامكانياتها الواعيـة ومدى كفايتها للتعبير عـن الفكر مهما اختلفت ألوانـه ، وتعـددت اتجاهاتـه وعمقت مداخله •

فمـا هو ـ بعد ذلك كله ـ هذا القطاع اللغوي الذي نزل بلغته القرآن ؟ قد أشرنا من قبل الى الرأي السائد أن القرآن نزل بلغة قريش ،

والقصد مـن هذه التسميـة أن القرآن نزل باللغة التي تطورت اليهـا حيـاة هذه اللغـة قبيـل الاسلام والتي مهدت لها هـذه الالتقاءات المتعددة في الحج ، وأسواق العرب والرحلات المتعددة المؤدية الـى الاحتكاك اللغوي بين هذه القبائل جميعا • ويظهر أن هذه اللغة سميت باسم قريش لأنها بوضعها ــ الذي تمتاز به بين القبائل العربية ــ كان لها تقديـر خاص سمت به على كل قبيلة حتى نسبت اليها اللغة العربية في المرحلة الأخيرة من حياتها الجاهليـة • ولنرجع الى القول في أثر القرآن في حيـاة هذه اللغـة •

أول هذه الآثار أن القرآن صفى هذه اللغة فأشاع ــ في الاستعمال ــ أصفى ألفاظها جرسا وأدقها تعبيرا ، وأحلاها نغما ، كما كان عاملا قويا في التقريب بين القبائل عن طريق هذه اللغة فلم يختر ألفاظه مـن قبيلة دون أخرى ، وكان استعماله لكثير مـن ألفاظ اللغات الأخرى التي دخلت بعض ألفاظها الى العربية دليـلا على أنه ديـن الانسانيـة جميعا ، وعلى أن الألفاظ التى تمثل أثر هذه اللغات في العربية تعبر عن مستوى حضاري ــ في استعمالها الأول ــ عند أصحابها وقد اختارتها العرب لما أحست أن فيها دفعا لحياتها الى أن تتركز دعائمها على أسس متينة من الحق والعدالة، ومنها كلمة القسطاس في قوله تعالى : « وزنـوا بالقسطاس المستقيم ، وكلمة الصراط و •• و ••

ومما يثير الدهشة أن رجلا مثل Smeatman في كتابه Internelatin between Islam and Christiaity

يتخذ مـن هذه الألفاظ دليـلا على أن القرآن قد استفاد مـن الحضارات المتعددة التي اتصلت بها الأمة العربية عن طريق رحلاتها شمالا وجنوبا وشرقا وغربا أو عن طريق المدارس المنبثة في تلك البيئات التي كان يرتحل اليـها هؤلاء العرب والتي كانت تدرس فيها آخر ما تطورت اليه المعـرفـة في الميادين المختلفة سواء ما كان منها يتصل بالفكر وتقويمه ، أم بالديـن ـ في نصوصه ـ وتفسيرها ، وبيان ما فيهـا مـن القيـم الخلقيـة والاجتماعيـة والدينيـة ومـا قـد تشير اليـه مـن الأحداث التاريخـية التي مر بها تاريخ الانسانيـة مرتبطـا بالتديـن وموصولا بـه •

ثم ان القرآن له فوق ذلك أثره في أن ارتقى بحياة كثير من الألفاظ وأتى على بعضها مما لم يعـد له مكان في الحيـاة المستقرة التي أقـام دعائمها الاسلام على أسس من العدالة والحق ، ورعاية المصلحة العامة ، وقد أشرت مـن قبل الى بعض هذه الألفاظ •

ولقد أثارت دراسة النص القرآني فيـما بعد كثيرا من المشكلات التي تصدى لدرسها اللغويون والنقاد جميعا ومنها مشكلة اللحـن ـ وهل كان اللحـن ظاهرة لغوية طبيعـة ـ تعيش في الجزيرة ، ويتعرض لها كبار الشعراء الذيـن نهجوا سبيل الشعـر ومهدوا طرائقه •• وذلك عندما لحظوا أن القرآن جاء بطرائق في التعبيـر تخالف بعض القواعـد التي استقرأها النحاة واللغويـون مما كان يروى يومئذ مـن الشعـر ومنها هذه الآية « ان هذان لساحران » وآية « ان الذين آمنوا والذيـن

هادوا والصابئون والنصارى » •

والحق أن القرآن لا ينبغي أن يقاس — بهذه القواعد — ولا أن يقضى بها عليه ، لأنه كما قلت يمثل مرحلة جديدة في مراحل هذه اللغة • غير أن هذا التحول في بعض هذه المواقف اللغوية لم يكن يراد منه سوى اللفت الى خطر القضية المعروضة بهذا الأسلوب بغية التأمل فيها والنظر في أعماقها ، والتحول التعبيري بطبيعته يلفت الأذن ، ويدعو الى التنبه ويثير في النفس أسباب التيقظ ، نلحظ ذلك حتى في استعمال الأساليب العالية في دنيا الناس التي يقصد بها هذه الأنواع المختلفة من الاثارة •

أما مشكلة اللحن هذه فقد تصدى لدرسها الأدباء والنقاد لأنهم كانوا في الواقع يمثلون الاذن الرهيفة ، والذوق المدرك لفنية التعبير ، وطاقاته الرفيعة • ولن أتزيد بعرض الآراء ومناقشتها وانما أجتزىء بما عرض له الجرجاني في الوساطة بين المتنبي وخصومه ، وقد ركز اهتمامه في علاجه لهذه القضية على الشعراء الرواد في هذه الفترة الجاهلية ، يقول الآمدي : ولولا أن أهل الجاهلية جدوا بالتقدم واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة والأعلام الحجة لوجدت من أشعارهم أشعارا معيبة مسترذلة ، ومردودة منفية ، ولكن هذا الظن الجميل والاعتقاد الحسن ستر عليهم ، ونفى الظنة عنهم فذهبت الخواطر في الذب عنهم كل مذهب ، وقامت في الاحتجاج لهم كل مقام — ثم يعقب على ذلك بذكر الشواهد التي غلط فيها هؤلاء الشعراء مبتدئا بامرىء القيس ولبيد وطرفة ومثنيا بالفرزدق وبعض الرجاز •

والفرق بين هذا الصنيع من جانب الشعراء وبين ما ورد في القرآن ، أن القرآن اختار هذه الأساليب لقصد يتحراه وغاية يستهدفها ، أما أولئك الشعراء فقد أخطأوا أو لحنوا . ويؤكد ذلك ما يذكره ابن قتيبة في مقدمة كتابة الشعر والشعراء (١) .

كذلك أثارت دراسة هذا النص مشكلة المعنى ، وعلاقتها بالألفاظ الدالة عليها . والواقع أن هذه المشكلة شغلت الدارسين قديما وحديثا وهم في تناولهم اياها يختلفون في تصورهم للمعنى نفسه ، ثم تصور العلاقة بين اللفظة والمعنى ، وبين عملية التفكير الانساني ، وما دام هذا الاختلاف في التناول كان أمرا واقعا فانه لا معدى من دراسته هنا ، وعرض الآراء المختلفة فيه ، ولا ضرورة هنا أن نعرض لمنهج العقليين والسلوكيين واللغويين ، ومدى ما بين مناهجهم من اختلاف ، وانما نكتفي هنا بأن نعرض في ايجاز لبعض هذه الآراء .. وقد استطاع أولمان أن يناقش تلك الآراء كلها ، وأن يخلص الى تحديد العلاقة بين اللفظ والمعنى فقال :

ـ ان المعنى هو العلاقة بين اللفظ والمدلول ، وهي علاقة تمكن كل واحد منهما من استدعاء الآخر وقد رتب على ذلك أن الكلمات : لفظ ومدلول ومعنى ، وأن المعنى هو هذه العلاقة ، وقد اعتمد أولمان في تقرير هذا كله على تلك المحاولة التي قام بها الأستاذان ريتشاردز وأوجدن في كتابهما معنى المعنى وقد مثلا لهذه العلاقة بمثلهما الأساس

---

(١) ابن قتيبة الشعر والشعراء ـ المقدمة تحقيق الاستاذ احمد محمد شاكر.

والذي يقـوم على ثلاثة أضلاع وعلى الرمز ــ وهو Basic triangle في اللغة عبارة عـن الكلمة المنطوقة ــ والمحتوى العقلي الذي يحضر في ذهـن السامع وهو ما سميـاه بالفكرة ــ ثم العلاقة المفترضة . ويبدو أن ما ذهب اليه هذان العالمان كان هو الأساس الذي قامت عليـه دراسة الأصوليين لهذه المشكلة وتحليلهم اياها وهو ما عبر عنه أولمان بقوله : لقد كانت هذه الصورة معروفة بالفعل لدى فلاسفة العصور الوسطى ثم يقول ولقد صاغها روبرت براوننج Robert Braoning صياغة شعرية في قوله : يستطيع الفـن أن ينبىء عن الحقيقة .

فلا شك أن الأفكار تتولد عن الأشيـاء بطريقة غير مباشرة ، كما أنه ليس محالا وجود الفكرة دون الاعتماد على الكلمة ، غير أن أولمان يشير الى فلاسفـة العصور الوسطى الأوروبيين دون أن يفطن الى صنيـع العرب في هذه الناحية وبخاصة من كان منهم فيلسوفا أصوليا كالغزالي(١)

وربما كان الأصوليون المسلمون ، في هـذه الفترة الباكـرة مـن دراسة اللغة ، أكثر تنبها ، وأنفذ ادراكا لمشكلة المعنى وأثرها في فهـم المضمـون وتحديد المستوى الفكري الذي يدل عليه .

وقد كان ادراك الأصوليين لهذه المشكلة يظلله نوع مـن التحرج وذلك لارتباط المعنى بأمر عقدي أو تشريعي ، ومن هـنا حاولوا أن

---

(١) Ullmamn : The principles of Semantics.

وانظر ايضاً : Ogden And Richards : The Meaning of Meaning.

يطرحوا المشكلة وأن يدرسوها بعيدة عن مجال هذا التحرج ومرتبطة بالذهن المدرك للمعنى ٠

ولا ضير علينا أن نعرض لآراء واحد منهم وهو الغزالي وقد حاول جهده أن يربط هذه المشكلة بالقوى الانسانية المدركة والمتخيلة ، وان كان اللغويون المحدثون لا يرضون عن هذا الربط ويدعون جاهدين الى بحثها على هدى من طرائق اللغويين المتخصصين ، غير أن ذلك كان الواقع الذي عاشت فيه هذه المشكلة في الفترة التي نقول فيها وان كان قد تغير الرأي فيما بعد ، تبعا لتطور المعرفة اللغوية واتساع ابعادها ، وتنوع طرائقها ٠

وقد بدأ الغزالي القول في دلالة الألفاظ على المعاني واتجه اتجاها واقعيا في تحديد هذه الدلالة ، واستعان في ذلك بما وصلت اليه يده من البحوث المنطقية التي كانت تلون الفكر الاسلامي يومئذ فقال : ان دلالة الألفاظ على المعاني لا تتضح الا بتقسيمات ، وقد حصرها في ثلاثة :

١ ــ دلالة الألفاظ على المعنى ٠

٢ ــ الألفاظ بالاضافة الى خصوص المعنى أو شموله ٠

٣ ــ الألفاظ المتعددة بالاضافة الى المسميات المتعددة ٠

ثم يعقد فصلا للكلام في المعاني المفردة ويقسم القول فيها الى ثلاثة أقسام :

١ ـ المعنى اذا وصف بالمعنى ونسب اليه •
٢ ـ الحديث عـن المعنى المنسوب •
٣ ـ المعاني باعتبار أسبابها المدركة لها ثلاثة •

ثم ينتقل الى الكلام عـن المعاني المؤلفة : وهي التي يتألف منهـا البرهـان • وهنا يدخل الغزالي في بحوث منطقيـة فلسفيـة خالصـة بعيـدة عن المجال اللغوي الخالص •• كل الذي يهمنا مـن دراستـه لمشكلة المعنى وعلاقتها بالألفاظ هذه التقسيمات الستة التي أشرت اليها •

وفي القسم الأول الخاص بدلالة الالفاظ على المعاني يعرض لأنواع هذه الدلالة ويحصرها في ثلاثة : وهي المطابقة والتضمـن والالتزام • فأما الأولى : فهي دلالتها على كل المعنى وعلى جزئه ، وعلى شيء خارج لازم لمعناه ذهنا • وفي القسم الثاني يتناول دلالة الألفاظ بالنسبة الـى خصوص المعنى وشموله ، ويقسم الألفاظ الى ما يدل منها على عين واحدة ويسمونه المعين سواء أكان هذا اللفظ يدل عليه بمجرد اطلاقه أو بعامل مساعد آخر وهو اسم الاشارة كهذه الشجرة ، وهذا الرجل ، وقد اعتبر هذا العامل جزءا من اللفظ ، ويبدو أنه يلاحظ فيما يتعلق باللفظة المفردة أن تكون اللفظة جزءا مـن الاسناد الذي يتم به المعنى المركب ، ثم الى ما يدل على أشيـاء كثيرة تشترك في معنى واحد ويسمونه المطلق • ويعقب على هذه الأمثلة التي ذكرها بنوع مـن التعريف يحدد الفروق الدقيقة بين هذيـن القسميـن فيعرف القسم الأول بأنه اللفظ الذي لا يمكن أن يكون مفهومه الا ذلك الواحد بعينه فهو يمنع مـن وقوع الشركة فيه مثل السواد والحركة والفرس والانسان •

ويكمل القول فيما دخلت عليه آل مجردة عن الاشارة الى مفهومه اذ يقول : وبالجملة الاسم المفرد في لغة العرب اذا دخلت عليه أل كان مطلقا أي أنه صالح لأن يتناول بمفهومه أشياء كثيرة سواء أكانت هذه الأشياء المدلول عليها باللفظ موجودة في الواقع أم صالحة لأن توجد .

أما القسم الثالث من التقسيم الاول فانه يتحدث فيه عن تعدد الالفاظ بالاضافة الى المسميات المتعددة ويخترع لها كما يقول أربعة أسماء وهي المترادفة والمتباينة والمتواطئة والمشتركة ، أما المترادفة فيقصد بها الألفاظ المختلفة ، والصيغ المتواردة على مسمى واحد كالخمر والعقار ، والليث والأسد ، والمتباينة هي المختلفة لاختلاف مسماها ، والمتواطئة هي التي تطلق على أشياء متغايرة العدد ولكنها متفقة بالمعنى الذي وضع الاسم له كرجل ويشمل كل اسم مطلق ليس بمعين ، والمشتركة هي الأسماء التي تطلق على مسميات مختلفة لا تشترك في المحدد الحقيقة كالعين للجاسوس ونبع الماء ، وكبير القوم .

وهذه التقسيمات التي ذكرها الغزالي خاصة بعلاقة الألفاظ بمعانيها قدر فيها علاقة اللغة بالفكر الانساني باعتبار أن اللغة تعبير عن الفكر وترجمة لما يجري فيه ، وأن المعاني القائمة بالنفس ، والتي تعبر عنها اللغة ألفاظا وتراكيب ، ينبغي أن تقيم على أساس تأثرها لمناهج التفكير المستقيم ، ولا نستطيع الحكم على صحة هذا التفكير وسلامته الا من خلال هذه الألفاظ ، فالألفاظ اذن في تصور الاصوليين هي دلائل الحكم على صحة الفكر أو خطئه ، ومن هنا حرص الاصوليون على استقراء

وجوه الدلالة وعلاقة دلالة الألفاظ بعضها ببعض مضافا الى ذلك ارادة المتكلم وقصده ، والألفاظ بصورها ونسقهـا دليل على هذا القصد . ولنا بعد عودة الى الكلام عـن هذا القصد وعلاقته باللغة المعبرة عنه .

فاللغـة اذن عند الأصوليين ، تبدأ مـن نقطة الدلالة الأولـى ، مقدرة ذلك التدرج الدلالي في الحدود التي رسموها .

أما تصور أصحاب الاعتقاد والنظار للغـة فانه يختلف عن هــذا التصور في بعض وجوهه .. ولكي ندرك حقيقة التصور الذي صـدر عنـه فهمهم للنص القرآني وتوجيه اشاراته يحسـن بنا أن نقرر :

(أولا) أن اللغة انمـا تحاول تقريب المعاني المجردة في صورة أدنى الى التصور البشري حتى يمكـن فهم المراد مـن الألفاظ الدالة عليها .

(ثانيا) ان المفسريـن للنصوص انما يبسطون شخصيتهم عليهـا بمـا حصلوه مـن المعارف ، وما استقر في وعيهم من ثقافات .. ثم ان هؤلاء المتكلميـن أو النظار يضعون في اعتبارهم دائما التطور العقدي الذي عرضته الكتب السماوية بما هي تسجيل دقيق لطبيعة التطور الذي مر بدرجاته العقل البشري والكلمة المعبرة عندهم ليست الا رمزا للمعنى ، والمعنى الذي يمكـن الوصول اليه ينبغي أن يساير هذا التطور الذي انتهت اليـه الحيـاة العقديـة التي نزل القرآن مصورا لها ، وكاشفا عن مدارج حياتها .

وهنا تظهر هذه المشكلة في حياة دارسي اللغة سواء أكانوا أدبـاء

أخلصوا أنفسهم للمعاني الاجتماعية الأدبية أم فقهاء عكفوا على استنباط الحكم الذي يراد التشرع به ، أم نظارا متكلمين تصدوا لبيان أصول الاعتقاد وأدلته •

ومما هو بسبيل ما نحن فيه : أن نفرق بين أولئك الثلاثة الذين يرتبط عملهم بالنص ، ويدور في مجاله •• وهم : الفقهاء والمتكلمون ، ثم الأدباء •

والحق أن الفقهاء والمتكلمين انما يتجهون الى النص وفي عقولهم أصول يريدون أن يلتزموها وقواعد يتجافون عن الادبار عنها •

فالفقهاء ، يقتصر عملهم على استنباط الحكم لتطبيقه على ظاهر السلوك الانساني سواء أكان هذا السلوك يعتمد على اللسان أم الجوارح ، أما القلب وحركاته وما يجري فيه من أنواع النية ، وما يعزم عليه من ضروب الفعل ، فلا عمل للفقيه فيه ولا حكم له عليه الا حيث يدل بعض السلوك على نوعية النية ومقصد صاحبها ، ولهذا كان من عملهم التوفيق بين النص ، وما تعارفت عليه البيئات مما لا يصادم أصلا من أصول الشريعة ، ولا يعطل مقصدا من مقاصدها ، ومن هنا ارتبط عملهم باللفظ ، لأنه الوسيلة الدقيقة فيما يقدرون للتعبير عن هذه النية وان أدى هذا الى المفارقة الكبيرة بينه وبينها ، وهم يتركون للانسان المتدين بهذا الدين ان يقدر نوع المسئولية والآثار المترتبة عليها لما بينه وبين ربه ،ويقدرون أيضا أن سلوك المتدين هو

ركيزة المسئولية المنظورة ، فيما يصحح العلاقات والروابط بينه وبين من يشترك معه في الحياة على الأرض .

أما المتكلمون فأساس عملهم هو النية المصححة للاعتقاد ، والكافلة له الحيوية التي تحكم هذا السلوك ، وتدبر من أمره ، وتحميه من التهافت والتردي ، وتضمن له البقاء المؤدي الى سلامة العاقبة ، وصحة الغاية .

ومن هنا كان اللفظ عندهم أساس المسئولية الظاهرة بالاضافة الى تقدير النية في الحكم على سلامة الغاية . وكلا الفريقين يضع في اعتباره علاقة اللغة بالارادة الالهية وبما تدعو اليه هذه الارادة من الحق والعدل ، وما اليهما من الأصول التي هي ، في الواقع ، مشتقة مما وصف الله تعالى به نفسه .

فاللغة عندهم ترتبط بأمرين : أحدهما : غيبي يرتفع بغيبيته الى ما بعد الطبيعة ، ويتجاوز بما يستشرف اليه حدود الحس ، وثانيهما : ذلك الرسول الذي تلقى هذا النص عن ربه وبلغه اليهم ، وناط به بيانه الى الناس ، ولا شك أن هذا النص حين نزل كان يشير في كثير من الأحيان الى الحال النفسية التي كان يتعرض لها الرسول حين تشتد به الأزمة ، أو تجتمع عليه الصعاب ، أو يبلغ من نفسه الاسى مبلغ الحسرة على عناد قومه ، وتأبيهم على قبول دعوته ، كما في قوله تعالى : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » .

وقد يدعوه الى الرفق بمن آمن بدعوته ، وأن يتجه اليهم ، ويبذل

لهم مـن نفسه لقاء ايمانهم به كمـا في قوله تعالى : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحيـاة الدنيـا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبـع هواه وكان أمره فرطا » •

مـن هنا كان النص القرآني ـ في بعضه ـ حديثا عن السماء ، وعن الآخرة ، ثم في بعضه الآخر عن الرسول ودعوته ، وجهاده في سبيل هذه الدعوة ، وتصويرا دقيقا كاشفا لحاله النفسية حيال الصعاب التـي عرضت له ، أو المضايق التي أطبقت عليه ، ثم هو في بعضه الآخر حديث عـن الأرض بجملة ما فيها مـن النظم والعقائد والأديان والشرائع •

ويبدو أن المتكلميـن وقفوا جهدهم على الآيات التي تعرض لهـذا الغيب وتحاول تقريبه الى الناس في لغة أقرب الى حياتهم المادية التـي يعيشون فيها ، ثم الى تصوراتهم عـن هذه الحياة •

أما الفقهاء فان عمـلهم يكاد يتحدد في الآيات التي تعرض هـذه الشرائع والنظم متخـذة مـن ذلك العرض سبيلا الى تقرير ما تـراه مما يلائم حيـاة المجتمع البشري • وقد بلغت مـن التدرج حدا يأذن بذاك التشريـع والتخطيط ـ في صورة لا يعتريها اضطراب أو اهتزاز ـ مهمـا يكـن من أمر هذه الحياة في مستقبلها القريب أو البعيد •

وقد رأينا أن ـ هؤلاء وأولئك ـ بتقديرهم لطبيعة الكتاب الديني ووظيفته ، لهم تصورهم الخاص ، وادراكهم المحدد لطبيعة اللغة ، فـي الابانة عـن تلك المعاني كلها •

وبين المتكلمين ظهرت مشكلة اللفظ والمعنى ـ على نحو يختلف عما أثير في بيئة الأدباء ـ كما أن هذه المشكلة نبتت أيضا في بيئة الفقهاء على نحو آخر غير الذي اشتهر في بيئة المتكلمين والنظار وان كان الأساس الذي ترتكز عليه المشكلة يكاد يكون واحدا ، اذ أن التأويل الذي يعتمد عليه متفهمو النصوص هو السبيل الذي به تدرك ويوصل الى المقصود منها •

وما دام الأمر كذلك ، فانا في صدد عرض هذه المشكلة نبدأ أولا ببيئة الفقهاء •• واذا كان تناول تلك المشكلة يقتضي أن نبدأ بالحركة الفقهية مذ كانت الى أن استقرت المذاهب وتحددت أصولها ، وتشخصت معالمها •

ولقد انتهى بنا التتبع لهذهالحركة انها انقسمت الى اتجاهينأساسيين الاتجاه الأول وهو أسبق هذه الاتجاهات وأعمقها أثرا في الفكر الاسلامي بعامة ، وهو الاتجاه الذي يعتمد على أصلين ، أولهما : النص بما هو ألفاظ تروى ، وثانيهما : الادراك لمضمونه ، مقدار تدرج الحياة الانسانية وما تتعرض له من تقلبات وأحداث ، فاللفظ عندهم دليل هذا المضمون ، ثم ان هذا المضمون ـ لا يتحدد ـ بالمعاني الأولى للألفاظ وانما يضيف اليها ما يجد في الحياة من شئون لا بد من أن يقال فيها حكم الله ـ فالمضمون اذن يتطور مع الحياة ، ويسير معها ـ ولكنهم خصوا هذا التطور ـ بالألفاظ ـ التي لها ارتباط بالمقدرات أو العادة المتحكمة في سنن الاجتماع الانساني • أما الألفاظ التي تحدد

عملا شرعيا بينه الرسول ، كالصوم والزكاة والحج وما اليها من أصول الاسلام دينا مستقلا يشرع للانسانية جمعاء ــ فيما يتصل بالعبادات ــ فلا مجال للقول بالتطور ــ في ألفاظها ــ وما دعا اليه الأستاذ أمين الخولي ــ في كتابه المجددون في الاسلام في المجال العبادي على حد تعبيره ينبغي أن يتلقى بكثير من الاحتياط والحذر فلا يؤخذ على عمومه بهذا التوسع الذي يشير اليه كلامه .

ولم يقل المشرعون الاسلاميون عامة بهذا التطور في المضمون وانما قال به طائفة كبيرة منهم ، وهنا نلتقي باتجاهين متدابرين : الاتجاه الأول يمثله الحرفيون ، وهم ظاهرية الفقهاء ، وأولئك يستمسكون بالمعنى اللغوي الأول للألفاظ ــ بما هو حقيقة يمكن أن تنطبق على كثير من أفراد المعاني وجزئياته وقصدهم من ذلك أن يردوا فكرة القياس ــ في استنباط حكم جديد ــ ومن أمثلة ذلك قولهم في الخمر وتحريم كل مسكر لأن لفظ الخمر يمكن أن يشمله باعتبار أن الخمر هو كل ما خمر العقل وصده عن مباشرة عمله . ومن ثم فلا ضرورة للقول بالقياس واتخاذه مصدرا تشريعيا حين لا يوجد نص يقضي به في القضية المعروضة أو المشكلة الطارئة . أما غير الحرفيين ويمثلون عامة الفقهاء ، فانهم يقولون بالتطور ولكنه تطور يعتمد في تقريره على ثلاثة أصول :

١ ــ المعنى الأول للألفاظ .

٢ ــ العرف .

٣ ــ الشرع .

فاذا لم يكـن في اللغة تحديد لمدلول الألفاظ لجأ الفقيه الى الشرع فان حدده أخذ بتحديده ووقف عنده ، وان لم يكن اتجه الى العرف ــ وهنا تظهـر فكـرة التطور في دلالات الألفاظ بأوسع معانيها ، وأرحب آفاقهـا .

وبهذا التحديد ، ووسائله لدلالات الألفاظ ، يضطرب الأمر بين هذين الاتجاهين ــ فالقائلون بعموم لفظ الخمر انما اعتمدوا علـى المدلـول اللغوي للفظ ــ بعد أن استقر في المعاجم وتداولته استعمالات كثيرة يجمع بينها هذا المعنى ــ وهو لا شك مرحلة من مراحل التطور الدلالي تركزت أصولها بعد استقراء الاستعمالات المختلفة للفظة في بيئات متعددة بعضها يقصرها فيه على ما كان مـن عصير العنب وبعضها يتوسع فيه فيشمل من أنواع المسكرات ما انتهت اليه صناعة المسكرات سواء أكانت وليدة البيئة التي عاش فيهـا الفقيه أم مجتلبة مـن موضع آخر .. ونستطيع أن نقيس على هذا اللفظ ما أشبه مما ورد في آيات تشريعية كالربا مثـلا ، وهنـا نلحظ اختلافات واسعة حول مفهومه وتطور هذا المفهوم .. وهل نقف في تحديد معناه عنـد المتعارف عليه أيام نزول القرآن مما جرى بـه التعامل في البيئة العربية أو تتوسع فيه فيشمل كل ما كان فيه زيادة عـن الأصل .. وهل يقتصر فيه على العقود القائمة بين طرفين أو بين طرف محدد بشخصية وبين جمـاعة لهم شخصيتهم المعنوية .

ولكـن هذيـن الاتجاهيـن يبدوان دائما ــ في تفسيرهم لهذه الالفاظ وتحديد مدلولاتها منذ حياتها الاولى ــ وهم يقدرون الى ذلك تغير

الاستعمال واختلافه وما قد يطرأ عليه من زيادة في المعنى أو نقص فيه ، وان اختلفت بذلك أقضيتهم وأحكامهم •

وقد أشرت من قبل ــ في بحث مضى ــ الى هذه اللفتة القوية التي لفت اليها ابن القيم في اعلام الموقعين وفيها يطلب الى متفهم النص التشريعي أن يكون دقيقا في تحديد مدلولات الألفاظ وأن لا يغفل النظرة الواعية الى طبيعة التطور الدلالي ، مقدرا الى ذلك خطوات هذا التدرج ، وعوامله ، وملابساته •

والحق ــ أن التطور الدلالي ــ يحمل معه تغيرات حضارية أو عمرانية واسعة ــ ولهذا التغير أسبابه ودوافعه التي يكشف عنها المؤرخ الدقيق ، ولا ضير في أن نشير اجمالا الى جملة هذه العوامل لما لها من وثيق صلة بما نحن فيه ، فاذا كانت اللغة في أخص وظائفها وعاء الفكر الانساني وهذا الفكر بما هو نتاج يرتكز على دعائم من التدرج العقلي للأمة ، فان هذه اللغة لا بد أن تساير هذا التدرج حتى تكون متكافئة واياه ، ثم ان الآثار المادية للبيئة التي تعيش فيها من خصوبة أو ترف ، أو رقة وخشونة أو ملاحة وجمال أو قبح وسوء ــ كل أولئك يحدث أثره في حياة اللغة ، بل ويطور من دلالة ألفاظها ، كما يحدث أثره في النظم نفسه ، يقول الجرجاني : « فلما ضرب الاسلام بجرانه واتسعت ممالك العرب وكثرت الحواضر ونزعت البوادي الى القرى وفشا التأدب والتظرف اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله وعمدوا الى كل شيء ذي أسماء كثيرة ، فاختاروا أحسنها سمعا وألطفها

من القلب موقعا ، والى ما للعرب فيه من لغات فاقتصروا علـى أسلسها وأشرفها كما رأيتهم يختصرون ألفاظ الطويل فانهم وجدوا للعرب فيه نحوا من ستين لفظة أكثرها بشع شنع •

وما يذهب اليه الجرجاني في هذه القولة تؤيده الدراسات اللغوية الحديثة الكاشفة عن أسباب اجتماع فريق أو طائفة على لغة تلائم طبيعة تدرج حياتها حتى تكون على شيء كثير من اليسر والسهولة •

وما يذكره الجرجاني ايضا معللا به ذلك التطور الذى الم بحياة العربية له دلالته على الخطوة الجديدة التي خطتها حياة هذه اللغة على ألسنـة أصحابها ــ وفي استعمالهم ــ بعد أن وحدها القرآن ، وجمع بين ما يبدو من أطرافها ــ من تباعد ــ مرده الى الحياة القبلية التي كان يعيشها العرب في جزيرتهم ، وهنا ينبغي أن نلفت الى ظاهرة أخرى ، وهي أن العربيـة لغة متكلمة ومكتوبة أضحت تختلف في كثير من ظواهرها عن اللغة التي تجمع وتدرس ــ فاللغة المتكلمة تحرص على ائتلاف الجرس ، ويسر التعبير ، وصفاء الرونق ، وخفة الاداء ، فهجرت كل خشن ، وتجافت عن كل ما يؤذي حركات الصوت وتردد النفس ــ وهكذا كان هنالك جمـاع للغة بتلك السعة ــ ومستعملون لها ــ والأولون هم اللغويون والآخرون هم الأدباء ، وعامة المؤلفين ، واللغة المتطورة ليست الا الأولى ، ذلـك لان المجتمع الحي النشيط العامل ، هو الذي يعطي اللغة امكانيات البقاء والتطور ، ويمنحها الحياة الخصبة ويمدها بأسباب الاتساع الدلالى الذي

---

(١) الجرجاني في الوساطة ص ١٨

يمكن أن تساير به قافلة الحياة في شتى أوضاعها ومختلف ميادينها • وما من شك في ان مـن أدق مظاهر التطور الحضاري للأمة ، التشريع الذي يحكم سلوكها ، والسلوك لا يقف نشاطه عند حد متفق عليه ، وانمـا يتغير ويتطور ، وهو في تغيره وتطوره يستشرف دائمـا الى المزيـد من الاحكام ــ وهكذا تطورت العربية لأنها اللغة التي تعبر عن أصول هذه الأحكام ، ومنازع ذلك التدبير •

ولهذا التطور علاقته بالاشتقاق ، وهو الظاهرة التي أصل النظـر فيها لغويو العرب •

وليس الاشتقاق بدعا اخترعه الدارسون العرب كما اخترعوا الظواهر الاعرابية عند بعض الباحثين ، وانما هو الرباط الدقيق الذى يجمع المتفرق من شعاب اللغة حتى تكون أداة التعبير ووعاء الفكر ، ومعرض الاحاسيس والانفعالات ــ كل الذي صنعه اللغويون العرب أنهم اكتشفوا هذا الرباط وحددوا مسالك سيره ، ومكنوا له من أن يمارس عمله في التمكين للغة من مسايرة الحياة ، وملاحقة التطور ، ومتابعة الاختراع مهما تشعبت مسالكه ، وتدابرت طرائقه •

وهنا نلحظ نوعا من الخصومة العقلية والذهنية تحتاج في تفسير وجودها الى بحث واستقصاء ، ذلك لان هذا التفسير فيه نوع من الرد على أولئك الذين يتهمون العقلية العربية بأنها عقلية تجنح في تفكيرها الـى الجزئية التي لا تدرك القواعد الكلية التي يمكن عن طريقها تصنيف الفكر البشري تصنيفا يعينه على التطور والارتقاء ، ويحمله على ان يأخذ نفسه

بأسباب التقدم،فقد كان الاشتقاق اذن ظاهرة دراسية يجتمع في شعاب اللغة ألفاظا ودلالات • فأما تقسيم الاشتقاق الى هذه الاقسام من اشتقاق صغير وكبير وأكبر ، فله دلالته على فكرة الكلية التي يمتاز بها الـــدارسون العرب من اللغويين ، ولا شك في ان الاشتقاق الصغير ــ وهو اول مراحل التفكير الاشتقاقي ــ قد استطاع أن يمكن اللغويين من معرفة الأصول الدقيقة لنشوء المعاني وتطورها ، وقد تنبه الى شيء من ذلك الصرفيون فقالوا ان لهذا الاشتقاق دوره في معرفة ما أصاب المادة اللغوية مـــن القلب المكاني كما في أيس ويئس ، ونأى وناء ، وجاءه ووجه وريم وآرام ورأي وآراء ، وما الى ذلك مـــن الألفاظ التي يسوقونها أمثلة واضحة الدلالة على شيء من مراحل هذا التطور ودوافعه • ويمكن أن يفسر على هدى منهـــا بعض النصوص الدينيـــة ، أو التي ارتبطت بالفكر الديني الاسلامي ، وهنا يرد هذا السؤال : هل ظاهرة الاشتقاق أخصبت اللغة ــ بما هي لغة ــ خصوبة جديدة ؟

لا نستطيع أن نجيب عن هذا السؤال الا اذا حددنا نوع الخصوبة التي يكاد يجمع عليها لغويو العرب•

فنقول : هل الخصوبة في ابتداع الفاظ جديدة لا تعرفها اللغـــة او أساليب يتصرف فيها صاحب اللغة ، والمستعمل لها ، فتتجدد هذه الأساليب وتنمو على هدى مـــن هذا الاشتقاق ؟

فأما القسم الأول : فلا نكاد نظفر بجديد من الألفاظ يعتمد في وجوده على الاشتقاق ، لأن الصيغ الاشتقاقية التي تصاغ فيها الألفاظ لا تكـــاد

تختلف على مر الايام ، ولا ضرورة هنا لان نتكثر بالقول في المصطلح الأوروبي لكلمة Morophology .

وما اليه فصيغ اسم الفاعل واسم المفعول واسم الزمان والمكان والمصادر وما اليها لم تختلف منذ وصلت الينا نصوص اللغة ، وقد تركزت فيها هذه الأصول والقوالب الاشتقاقية ، بقي الشق الثاني من الخصوبة وهو تنوع الأساليب الجديدة وتلك متروكة لقدرة الاديب على التصرف في النظم اللغوي الذي يعطي العمل الأدبى امتيازا وتفوقا ، والذي يختلف به أديب عن آخر ، وتظهر فيه سمات دقيقة لبراعة هذا الاديب أو ذاك ، غير ان الاشتقاق بما هو تحديد لمراحل التطور الدلالي قد اختلف النظر اليه بين الدينيين والأدباء ، فالأديب كما نرى يحرص على أن يدرك مراحل هذا التطور حتى يعرف أين يبدأ نشاطه الادبي وفي أى المسالك يسير .

اما الديني ــ الذي حدد نشاطه باستنباط الحكم العقدي أو التشريعي ــ فان هذا التطور لا يعنيه الا اذا ارتبط الحكم بطبيعة الحياة الاجتماعية التي يعيشها المجتمع .

وانظر في ذلك حديثهم عن الربا ، والمضاربة في البيع ، والخيار في الشرط وعند العيب ، وسوف تحس أن الدلالات الاولى لهذه الالفاظ قد فقدت أهميتها وخطرها عنده وبقي ذلك المعنى الذي يمارسه القوم نشاطا تجاريا أو اقتصاديا .

أما الاديب ، فانه يستعمل هذه الالفاظ استعمال العربي لها ، حتى اذا جنح الى الاصطلاح الفقهي أحس أن الفكرة الادبية عنده انشأت تهتز

وتضطرب ، وقد أشار ابن خلدون في مقدمته الى شيء من ذلك حين عرض لاستعمال اللغة ، وان كـان قد أكد أصالة هـذا التطور ، وآثـاره القوية في اختلاف استعمالها من بيئة الى أخرى فقد ذكر في الفصل الذى عقده عن الادب واللغة ما قد يضفيه استعمال للفظ له صلة بدلالات شرعية أو دينية على العمل الادبي من احساس لعلمية الجافة التي بهـا يجف ماؤه ، ويذهب رواؤه •

وهنا نظفر باتجاهيـن عند الأدباء والدينيين : فالأديب يستعمل النظم أما الديني فيستعمل البرهان ••

فما هو النظم اذن ؟ وما هو البرهان ؟

وقبل أن نتولى بيان هذيـن اللفظين ، ومدارج تطورهما في البيئة الاسلامية وما كان لهمـا من أثر في حياة الدرس اللغوي ، نعرض لأمور كانت أشـد خطرا وأبلغ أثرا وهي الانسان ثم الفكـرة والعلاقـة بين الانسان والفكـرة •

الانسان بما هو كائن اجتماعي يمتاز بخصائص ينفرد بها عن سواه مـن المخلوقات التي تشاركه صنع الحيـاة على الأرض •

وأول هذه الخصائص الذهنية التي تساعده على التحليل والتركيب والابداع والابتكار والتفسير والتأويل • ثم ذلك الوجدان الذي يتأثـر وينفعل فيعطف ويقسو ، ويرحم ويظلم ، ويعز ويهون وما الى ذلك مـن الصفات المتقابلة التي يتأثر بها كل وجدان فيهفو اليها تارة ، ويعزف عنها أخـرى حسبمـا أتيـح له مـن قوة الارادة ، وحصافة الرأي ،والقدرة

على التفسير الناقد للظروف والملابسات التي تحتف بموقف من المواقف التي تعرض له ، ثم له فوق ذلك الروح ، وهو ذلك الخلق الغامض الذي لم تستطع الفلسفة الانسانية منذ أقدم عصورها أن تصل الى شيء من خصائصه الجوهرية • وقد اتجهت النصوص الى مخاطبة هاتين القوتين : الذهنية والروحية ، وكانت اللغة للتعبير عن وقع الحياة عليهما واحساس كل منهما بهذا الوقع الذي تعيشان تحت أثر منه •

فأما الفكر أو المعاني ، أفكانت يا ترى من اختراع هاتين القوتين ، أم هي كوائن مستقلة تتصيدها هاتان القوتان فتعيش في أرجائهما ، حتى تحين الفرصة لابرازها على نحو ما •• وهنا يكون للغة دور وظيفي في هذا الابراز وذاك الاعلان •

لا سبيل الى القول الفصل في الحكم على هذه الأشياء كلها ، غير أن الجاحظ ومن لف لفه من أدباء العربية يكادون يجمعون على أن الفكرة أو المعاني كائنات لها عالمها المستقل ، وهي كغيرها من الكائنات الأخرى التي سخرها الله للانسان فأباح له أن يتصيد منها ما تساعده عليه هاتان الملكتان أو القوتان •

اذ يقول : « وأعلم أن المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العربي والعجمي وانما يتفاضل الناس في التعبير عنها » •

ويبدو من هذه القولة أن الجاحظ يقدر أن المعاني كائنات مستقلة وأن الناس جميعا يكادون يعرفونها وأن الامتياز والمفاضلة بينهم تتم

عـن طريـق صياغة اللغـة صياغة محبوكة • متينة •• بحيث لا يفلت مـن زمامها أي جزء مـن أجزاء هذا المعنى •

ويظهـر أن نقاد العرب بعد أن أحسوا ما ذهب اليه الجاحظ ــ مما ترتد أصوله الى فلسفات بعيدة كانت مثار جدل أو خصومة بين المفكرين ــ أحسوا أن ما ذهب اليه الجاحظ لا ينتهي الى غاية واضحة يتبينون منها هذه الفروق الدقيقة بيـن الألفاظ بمـا هي معارض للمعاني ، وبيـن المعاني بوصفها فكرا مجردا يهوم في دنيـا الناس ويحوم حولهم ــ مهما اختلفت أجناسهم ، وتباينت مداركهم •

ومـن هنا اختلفوا حول قضيـة الاعجاز اختلافا بعيـد المدى ــ أهو اعجاز بالصرفة أم بسواها ؟ واذا كان بسواها فهل الاعجاز في اختيار الألفاظ ورصفها على نحو خاص لا تبلغ منـه الطاقة البشريـة شيئا أو في المعاني أو بهمـا جميعا ؟

ودار النقـد الأدبي العربي في هذا المجال ، وتعددت وجهـات النظـر فيـه وجاء عبد القاهـر الجرجاني فبحثه مـن جميـع وجوهه • وكان أهم ما وصل اليـه في ذلك تحديد الأصول العامة التي ينهض عليها النظـم وان كان قد فرق القول في أماكـن متعددة مـن كتبه ــ الا أن هـذا التفريق لا يمنع مـن تقييم عملـه فيـه تقييما تتحدد بـه وجوه الاصالة التـي امتاز بهـا عـن سواه مـن الدارسيـن الذيـن تعرضوا للنظم في صورة مجمـلة لا تبين فيها هذه اللمحات الذكيـة والنظـرات الرشيدة ، ولقد كان التحليل اللغوي الذي كشف به عـن طاقات العربيـة مـن أهم سمات منهجه ودقائقه فيه •

ونستطيع أن نلخص ــ في ايجاز ــ أصول هذا المنهج ، وأول ما يطالعنا في كتابه حديثه عن البيان : وهو يبين عن خصائصه ومزاياه ابانة يؤثر فيها حسن الرصف ، وتناسق الألفاظ ، وبراعة الأداء ، وحلاوة التأتي ، فيرى قارئه البيان صورة ماثلة وشاهدا قويا ، اذ يقول : لولاه لم تر لسانا يحوك الوشي ، ويصوغ الحلي ويلفظ الدر وينفث السحر والشهد ويريك بدائع الزهر ويجنيك الحلو اليانع من الثمر الى آخر ما يذكر ، ولكنه بيان لا يعنى فيه بالنظرة العلمية والعرض الدقيق والابانة الكاشفة عن مكانته في حياة اللغة ، أما الشافعي فيعرف البيان بأنه اسم جامع لمعان مجتمعة الأصول متشعبة الفروع فيتجه الى البيان بما هو معارض للمعاني ، وان كان يخص البيان الديني بالحديث اذ أنه يقسمه الى هذه الأقسام الأربعة المعروفة ــ كما أنه يحدد البيان بما يرجع بعضه الى النص الديني ، وبعضه الى اجتهاد المتفهم لهذا النص ــ وكأنه يقصد بهذه الأنواع الأربعة للبيان أنواع الدليل ، ويبدو أن ابن حزم وهو في هذه الفترة التي عاش فيها عبد القاهر قد حدد البيان بالدليل وفسره به وان كان قد فسر ابن حزم البيان تفسيرا أعم من الدليل في ثبته الخاص بهذه المصطلحات التي تدور على ألسنة الأصوليين وهم اصحاب ذلك الدليل والناهجون لسبيله ، والكاشفون عن طرائفه ، ويظهر أن عبد القاهر حين عرف البيان بهذه الصورة من التعريف لم يكن يقصد الا اثارة المخاطب لدرسه واكتساب خصائصه ، اذ أنه بعد قليل يتحدث عن جملة الأمر الذي تتحقق به الملكة البيانية فيعد منها العلم باللغة وطرائقها ، وأساليبها في التعبير ومقاصدها في البيان ،

وان التفاضل بين هذه الملكات ــ عند الأدباء ــ انما يتم عن طريق البصر بهذه اللغة ، وادراك أسرارها ، وهنا يتحدث عبد القاهر عن الشعر ووظيفته في تنمية هذه الملكة وتحقيق الرؤية الدقيقة لجوهر الأشياء عند الأديب. ذي الوعي الناقد ، والادراك البعيد ، ويقدر الرجل في دفاعه عن الشعر ، والتثقف به ، والاتصال بوجوهه من جد وهزل وسخف وسب وكذب وان رواية هذا الشعر ان كان القصد منها هذا الاتصال الناقد والادراك البصير فلا حرج في روايتها بله أن تكون عونا على التنفس والتنشيط ، واذكاء الهمة ، ولأن النحو آصل الأسس التي تنهض عليها نظرية النظم ، يدافع عنه ، ويمكن له ، ويبين عن خصائصه ، ويكشف عن آثاره في الصياغة ــ وهنا يربط الرجل بين النحو وبين الفكرة في حسن عرضها والوفاء بها ، فالنحو عند عبد القاهر غير ذاك النحو عند النحاة ، هو الفيصل بين المعاني ، والمعين على استخراجها والمعيار الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع اليه ثم ينتقل الى الحديث عن الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة وكل ما شاكل ذلك مما تعبر به عن أسباب الامتياز والتفوق .

ويبدأ الرجل في الكلام عن اللفظة المفردة التي هي اللبنة الأولى في العمل الفني الأدبي ويقرر أصلا من أصول نظريته ، وهو أن الالفاظ بأفرادها لا تسمو على أخرى ، ولا تفضلها ، وأن الواضع وان تعددت ألفاظه لمسمى واحد فليس بين تلك الألفاظ تفاضل ، أو فرق ، وانما يحدث ذلك التفوق حين ينظر اليها في نظم تكاملت أسبابه ، وتضامت أجزاؤه ، واجتمعت أطرافه ، فيقول : عرفت أن ليس الغرض

بنظـم الكـلام ان توالت ألفاظها في النطق ، بل أن تناسقت دلالتها ، وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل ، ويفسر عبد القـاهـــر فكرة ارتقاء العقل في أثناء حديثه عـن الأدلة التـي يسوقها واحدا في اثر الآخر تحقيقا لما ذهب اليه من أن النظم هو الذي يحدد مرتبة التفاصيل بين الألفاظ ... في مواضعها مـن عمليـة النظم بأن الغرض ترتيب المعانـي في النفس ثم النطق بالألفاظ على حذوها ، ويخلص من ذلك الى أن النظم صنعة يستعان عليها بالفكرة وتستخرج بالرؤية .. ثم ينتقل الى أن الفكر لا يلتبس بالفكـر وانمـا يلتبس باللفظ ــ وما دامت الألفاظ معارض للمعاني فانها تكون على قدودها ــ أو بعبارة أبين تكون الألفاظ تابعـة للمعاني ودائرة في مجالها ترتيبا واتساقا فيقول : « واعلم أن ما ترى أنـه لا بد منـه مـن ترتيب الألفاظ ، وتواليها على النظم الخاص ، ليس هو الذي جلبته بالفكر ، ولكنه شيء يقع بسبب مـن الأول ضرورة من حيث ان الالفاظ اذا كانت أوعية للمعاني فانها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فاذا وجب لمعنى أن يكون أولا وجب اللفظ الدال عليه أن يكون مثلـه أولا في الترتيب » .

وهكذا ان صورة النظم في عامة أمرها تجيء على هذا النسق ، وتقع بهذا الترتيب ، الفكرة أولا ، ثم الألفاظ ثم ترتب الألفاظ نطقا علـى أساس مـن ترتيـب الفكرة وهو الترتيـب الذي يهدي اليه العقل ، ويدعـو اليـه التأمل وتلزم به الوحدة الفكرية التي تربط بين أجزاء المضمـون الأدبي .

واذا كان عبد القاهر قد وصل بيـن اللغة في نظمهـا وبـين

المضمـــون في ترتيبه المنطقي فانه قد أشار في صنيعه ذلك الى أصل مـــن أهم أصول الوحدة المنطقية ، فقسم للعقل مكانا في العمـــل الفنـــي ، وجعله هاديـــا لوحدة النسق في ترتبه على صورة تتلاءم وقوى الانسان العاقلة والمتذوقة وهي الفكرة التي نادى بها بعض الفلاسفة حين تصدوا لتفسير النص الديني حين قرروا ان الانسان مزاج مـــن ثلاثة عناصر وان النص ينبغي أن يفي بحاجات هذه العناصر ، غير أن عبد القاهر حين نظر ـ في النظم ـ بهذا المنهج الذي أدار القول فيه بيانا وايضاحا عني بأمرين وهما : العقل والنفس ، ولا نزاع في أنه يفرق بين هذين اللفظين من ناحية الدلالة ـ فالعقل عنده يقوم بالارشاد المؤدي الى سلامـــة المضمـــون وقوته ، أما النفس فهي تلك الوعاء الذي تنقدح فيه هذه المعاني انقداحـــا يكفل لها قوة التأثير في نفس القارىء أو السامع متى برزت له في صورة منطوقة أو مكتوبة ، على هدى مـــن ارشاد العقل وتوجيهه .

فعبد القاهر كغيره مـــن فلاسفة النقد يصل بيـــن المضمـــون وبين القوى الانسانيـــة التي سما بها الانسان على غيره مـــن الكائنات ، وهو في ذلك يشايع مـــن سبقه مـــن فلاسفة اليونان الذيـــن كان لهم مكـــان مقسوم في تاريخ النقد ، وارساء أصوله ، غير أن عبد القاهر يركز في حديثه على المعنى ، ويراه أحفل بعناية الأدب وتقديره ، ذلك لأن اللفظ ليس الا وعاء له ، فالفصاحة عنده والبلاغة والبراعة ليست في الواقع الا أوصافا للمضمون ، واذا وصفت بها الألفاظ فلأنها معارض هذا المضمون ، وهي الأدوات التي تتم بها الذبذبة الموسيقيـــة التي تهـــز النفس وتملأها بالاعجاب والاثارة ، ويظل عبد القاهر يؤكد أن هذه الألفاظ التي يوصف

بها انتاج الأديب ترتد الى المعاني التي اخترعها ، وأن لا توصف الالفاظ مجردة ومفردة بشيء من معاني هذه الكلمات ، وان ما ورد من أن تسمية بعض الألفاظ التي جمعت بالفصيح فانه لم يقصد به ذلك المعنى النقدي الذي يحدد به الواصف درجة من الفصاحة توافرت لعمل فني ، وانما يريد من الفصاحة الصحة والثبوت في اللغة وهي في استعمال الفصحاء أكثر وأجرى على مقاييس اللغة والقوانين الموضوعة فيها .

دلالة النظم عند عبد القاهر

قد رأينا أن عبد القاهر يصل بين اللفظة وبين النظم ، ويؤكد أن الأوصاف التي تضاف الى اللفظة أو الألفاظ ليست الا أوصافا للمعنى الذي تدل عليه ، كما أنه يرى أن الألفاظ كما هي وحدات دلالية لا تفاضل بينها ، أما اذا نظرنا اليها على أنها كميات صوتية فان التفاضل يحدث بينها . فاذا كانت اللفظة متآلفة هذه الوحدات فضلت سواها من الألفاظ ، وكانت حرية بحسن اختيار الأديب ، ودقة ذوقه ، وصفاء احساسه ، وقد عرض عبد القاهر لدلالة النظم ودرجات هذه الدلالة، وكان عمله في ذلك ، النهج الواضح لمن جاء بعده من النقاد على اختلاف منازعهم، في دراسة النقد ، وتأصيل قواعده واستقراء جزئياته ، وهو في حديثه عن الدلالة يقسم النظم الى ضربين :

ضرب يصل المرء منه الى الغرض بدلالة اللفظ وحده وهو

دلائل ٢٩٨

المسمى بالحقيقة • وضرب لا يوصل الى المراد منـــه بدلالة اللفظ وحده ولكـــن بدلالة هذه الدلالة •

وعلى ذلك يرى عبد القاهر أن للألفاظ بما هي أصوات لغوية دلالة أولى ، ولهذه الدلالة عند النظم دلالة أخرى ، ويكاد يحصر الدلالات الثانيـــة في ثلاث وهي : الكناية والاستعارة والتمثيل •

ويظهـــر مـــن صنيـــع عبد القاهر ان هذه الثلاثة هي الوسائـــل التي يمكـــن أن تعرض بها الفكرة وأن الأديب يستطيع أن يفاضل بينها في الاختيار ــ وأساس العمل الفني هو الاختيار ــ أما الضرورة الملجئة الى نوع خاص مـــن التعبير لا سبيل الى الاختيار فيه فليس مـــن العمل البلاغي وانما هو ألصق بالنحو وأوثق به التباسا •

ويمضي الرجل في بيان هذه المعارض الأدبية الثلاثة بيانا يقتـــــرن بالأمثلة والشواهد والتحليل ، ويمكن أن نوجز منهج عبـــد القاهـــر في النظم بأنه يعتمد على استغلال طاقات اللغة المختلفة ، والاستفـــادة بها في الخلق الأدبي ، وأن عملية الخلق نفسها تتمثـــل في التفنـــن ، والحصافة ، والأصالة في استغلال هذه الطاقة •

وانما أطلنـــا في الحديث عن عبد القاهر لأنه يمثل نهاية الطريق بعد أربعـــة قرون شهد فيها الفكر الاسلامي أنواعا مـــن الصراع الفني سواء في الصورة أم في الفكرة والمضمون ، فتارة يعدون الحضارة في مختلـــف صورها غذاء جديدا أمد المضمـــون بجديد تطورت به حياته ، وتحددت

به سماته ، نلحظ ذلك عند صاحب الوساطة • وأصحاب هذا الاتجاه يصلون بين الانسان بما هو قدرة متصرفة في أفنان المعاني، وألفاف الفكر ، وبين العالم الخارجي الذي تنعكس آثاره في النفس البشرية ، فتصفو تارة وتكدر أخرى •

وتلك النفس مرآة صادقة شفافة ، تعكس هي الأخرى هذه الآثار في صور متعددة نسميها نحن الفنون ، وتارة ينكر بعض النقاد الذين وقفوا أنفسهم على دراسة المأثور من الشعر ــ ينكر أولئك ذلك الجديد ويرونه مجافيا للروح العربي الأصيل سواء في الصورة أم في المضمون ، والشواهد في ذلك كثيرة تقرأها في كتب النقد أو البلاغة ، وأقرب هذه الشواهد صلة بما نحن فيه ، ذلك الذي يروى عن بشار حين ابتدأ قصيدته بقوله :

بكرا صاحبي قبل الهجير ان ذاك النجاح في التبكير

وقول بشار انما بنيتها اعرابيته ــ يدل على احساس الرجل بسطوة الحضارة ــ وأثرها في التركيب اللغوي ، وحاجة المتحضر الى أدوات كثيرة للربط بين العبارات والجمل حاجة تلك الحياة التي يعيشها ــ في تشابك حاجاتها ، وتواصل مطالبها ، فاللغة ، في الواقع ، تستطيع أن تلمس أحدهما الآخر فتستجيب له • وظهرت في ذلك دراسات واسعة ، غير في جوانبها آثار ما تصيبه الحياة من تقدم أو تخلف ، وتحضر أو تبد ــ ومن هنا قدر اللغويون من المحدثين ما بين اللغة في تقاليدها ورسومها وبين المجتمع من تعاطف وتجاذب أو تنافر وتباعد وكيف يقهر

أن العلماء المحدثين من العرب اتجهوا الى الواقع الاجتماعي الذي يعيشون في ظلاله ودرسوا اللغة على ضوء منه ولم يتجهوا الى العربية لغة عاشت مع الزمن وشاركت في أنواع الصراع الاجتماعي الذي شهده المجتمع الاسلامي ، وتأثرت به وظهرت آثاره فيها • ومما يدخل في عداد الواجب أن ندرس العربية كما ندرس الأدب عصورا وأن نجمع خصائص التعبير الأدبي أو العلمي في كل عصر ، ولعلنا نخلص من ذلك الى أحكام عامة تمكننا من متابعة القول في تطور هذه اللغة حتى انتهت الينا بهذه الصورة التي نحس فيها أثر ذلك الرقي الاجتماعي والثقافي الذي أصابته المجتمعات الاسلامية التى تتكلم هذه اللغة وتكتب بها •

ولقد لفت الى آثار هذا التطور شعراء العربية أنفسهم حين أحسوا أن الموازين الفنية قد طفقت تهتز في وجدانهم وأحاسيسهم نتيجة ذلك الواقع الحضاري الذي عاشوا فيه يوم التقت ثقافات ، وانصهرت معارف وأنشئت علاقات اجتماعية جديدة ـ عمل فيها ذلك المجتمع •• باجناسه المتعددة ، وثقافاته المتنوعة ، واحساسه القوي بأنه أضحى يمثل مجتمعا حضاريا له طابعه الخاص وخصائصه المستقلة ، ومشاركته الجادة ، في حياطة المعرفة الانسانية والتمكين لها ، وانمائها بمختلف الوسائل وشتى الأساليب •

ومما يثير الدهشة أن وسائل الدراسة اليوم غيرها بالأمس ، فهي اليوم ميسرة سبيلها ، ممهدة طرائقها ، ولكنا نؤثر السلامة ، ونخلد الى الراحة وتتخفف من احتمال المشقة ، فنوازن بين المسالك ونقارن بين الطرائق فنختار أيسرها على النفس وان قلت جدوى الغاية منه •

على أية حال ـ ذلك واجب يفرضه علينا الوفاء لماضينا ، وتقدير حاضرنا والاستعداد لمستقبلنا ، وهو كما نرى بادي الأهمية في تاريخ الانسانية المقبل .

ان هذه الاهتزازات التي تعرضت لها حياة المجتمع العربي كان لها آثارها الدقيقة في حياة اللغة ، ذلك لانها كانت ولا تزال وسيلة التعبير عن هذه الحياة ، وقد رأينا أن الجانب الفني منها أنشأ تتعقد حياته وتضطرب بأهله مسالكه .. وأن اللغة في نظمها وبنائها وتطور دلالات ألفاظها قد أصابها من ذلك كثير يفطن الى الكشف عنه ، والابانة له المعنيون بالدرس اللغوي الأصيل . ولنرجع الى ما كنا فيه ـ وهو حديثنا عن اللغة بين الدين والأدب ، وقد قارنا بين صنيع رجلين ، أما أحدهما فالغزالي وأما الثاني فعبد القاهر ـ وكلا الرجلين قد تصدى لدراسة اللغة ـ فأما أولهما فيعدها وسيلة الدليل ، ومعرض البرهان ، وأما ثانيهما فيعدها وسيلة الخلق الأدبي المتميز ، فالحقيقة عند الأول هي مادة الدليل ، واللغة تقوم بدور التعبير عن هذه الحقيقة تعبيرا مجردا واضحا ولا شك أن الحقيقة هي مادة اللغة الأولى يوم كانت ـ ومن هنا كانت عملية النقل بشتى صوره ، وتفاوت أبعاده ـ لا حساب لها عند الديني وبخاصة يوم تصدي لاستنباط الحكم .. الذي به يتم التدين الفارق بين الايمان والكفر . فالذي لا مراء فيه أن تدرج الحياة الاسلامية بعد قد دعا الى التوسع في فهم النص الديني واستنباط أحكام منه تمس أنواع السلوك الاجتماعي الذي دعا اليه تدرج الحياة نفسها بما تحمل في أطوائها من عوامل التغير والتطور ، وقد أشرت في كتابي

(في التشريع الاسلامي) الى مثل من هذا التوسع المتصل بما اصطلح على تسميته بالمقدرات ، ومما هو بسبيل ما نحن فيه ما يقرره عز الدين ابن عبد السلام في كتابه الامام في أدلة الأحكام اذ يقول :

« معظم آي القرآن لا تخلو عن أحكام مشتملة على آداب حسنة ، وأخلاق جميلة ، ثم من الآيات ما صرح فيه بالأحكام ومنها ما يؤخذ بطريق الاستنباط من آية الى أخرى كاستنباط صحة أنكحة الكفار من قوله « وامرأته حمالة الحطب » وصحة صوم الجنب من قوله فالآن باشروهن الى قوله حتى يتبين لكم الخيط الى أن يقول وتارة بما رتب عليها في العاجل أو الآجل من خير أو شر ، أو نفع أو ضر ، وقد فرع الشارع في ذلك أنواعا كثيرة ترغيبا لعبادة أو ترهيبا » .

وكلا الاتجاهين يحاول استغلال طاقة النص ، فأما الأديب فان استغلاله لهذه الطاقة يتجه دائما الى المعاني الثانية أو معنى المعنى ، واصلا بينه وبين هذه المعاني وبين قدرة الأديب على رؤية الأشياء والوصول الى جوهرها ، أما الديني فانه يصل بين النص في دلالاته، وبين ارادة الشارع في اصلاح الحياة ، التمكين لها .

فالأديب وظيفته الكشف عن الجوانب المجهولة من المعاني ، وتوليدها ، وهو في هذا الكشف يحاول أن يتعمق نفسيته ، ويبرز المكنون فيها ، أما الديني فانه يبذل الجهد في أن يصل بين النفس في قدراتها وطاقاتها وبين الارادة الالهية من جهة ثم بين هذه القدرات

الاتقان جـ ٢ ص ١٣٠

والطاقات والسلوك البشري في نواحيه المتعددة ، والمتفهم للنص الأدبي يدرك هذه الحقائق المتصلة بالعمل الأدبي جملة ويقدرها ، وكذلك المتفهم للنص الديني •

وهنا تبرز ناحية جديرة بالعناية ، حرية بالتقدير والنظر ، وهـــي ما اصطلح على تسميته بخلود العمل الفني أو الديني •

لقد حاول النقاد مـــن جانبهم أن يحددوا القيم التي يقوم عليها خلود العمل الفني ، وقد وصلوا بين هذه القيم وبين المتذوق للعمل الفنـــي •

وقد انتهوا الى أن خلود العمل الفني يبدو في تأثر متذوقة بـــه واستجابته له ، وان هذا التأثر لا يتم الا حين يمس العمل الفني مشاعـــر انسانيـــة عامة وان اتخذت معارضها مـــن البيئة التي يعيش فيها صاحب العمل ، ذلك لأنه لا يستطيع أن يتحرر مـــن مؤثرات بيئته أو يتجاهلها ، ولا شك أن مـــن أهم هذه الرسوم البيئية اللغة وهي وان اشتركت مع سواها من اللغات التي تشاركها في النشأة الا أنها اكتسبت بحياتها في بيئة خاصة مدلولات جديدة ، وألوانا مـــن الصيغ والتعبيرات ، أنشأتها طبيعة التطور الاجتماعي لهذه البيئة •

فخلود العمل الفني ادق ركيزته الأولى ــ المشاعر الانسانية العامه ، ولكنه خلود يفطن الـــى أدق مـــا يعتمل في النفس مـــن الأحاسيس البعيـــدة ، والانطباعات الدقيقة التي يعيش فيها الفرد مع اتصال حياته بســـــــواه •

ولا جدال في أن النص الديني يحظى بهذا النصيب مـــن الخلود ، لا

لأنه يمس المشاعر ، ويكشف عن الأحساس المتصلة بالسلوك فحسب ، بل لانه أيضا يخطط للحياة ، ويمهد للمستقبل ، ويقدر الانحراف في السلوك الناتج عن صراع الغرائز ، ومغالبة العواطف • وما دام هذا النص يقدر هذا كله ، ويعمل لحماية الحياة الانسانية ، فانه يعيش مع الحياة ويبقى بقاءها •

وهنالك قوة أخرى مكنت لهذا الخلود ، وارست أسبابه ، وهي ارتباطه بالدين وحمايته للنفس ، مما يعتورها من أسباب التهافت والاضطراب •

فكرة التفسير بين النص الديني والادبي

وقد اختلفت مناهج التفسير باختلاف النصين اختلافا بعيدا ، فمفسر النص الأدبي يحاول جهده أن يبرز ما فيه من اشارات دقيقة ولمحات موحية ، مما يمس جوهر العمل الفني في تصويره لهذه المشاعر الانسانية العامة • أما مفسر النص الديني فانه يحاول أن يضيف اليه معاني يأذن باضافتها اليه نظمه وتركيبه •

ووسيلته لهذه الاضافة • وهنا تواجهنا هذه المشكلة :

وهي التأويل في الأدب أو الفن والتأويل في الفن الديني •

لقد استطاع العالم الانجليزي Rose في مقدمة كتابه Handbook of greek Mythology أن يعرض لجملة من المناهج التي اتبعت في تفسير النص وركز اهتمامه على المحاولات التي بذلت حول الالياذة ، وانتهى في

دراسته لها الى أنه قد عرفت نظريات تختلف في تفسير هذا النص والابانة عما يمكن أن يؤديه من تصوير لهذه المشاعر وتلك الأحاسيس موصولة الأسباب بالكون ونواميسه والطاقات الانسانية التي تنصاع لهذه النواميس أو تصدها ، وقد أشرت في بحث مضى الى أن هذه المناهج قد عرفت في تفسير النص الديني أو الأدبي الذي حظي بتقدير يسمو الى التقدير الذي يحظى به الكتاب الديني ، وانتهيت الى ان التأويل بالنص الديني أمس ، وبتقدير وظيفته ألصق ، لأن مفسر هذا النص يحاول دائما أن يضيف اليه جديدا أو بعبارة أدق يكشف من معانيه ما كان مجهولا وهو في هذا الكشف يتطلع الى دلالات أخرى غير تلك الدلالات التي تعرف بالدلالات الثانية في النص الأدبي •

هذه الدلالات التي يرى عبد القاهر ومن شايعه من النقاد تتخذ معارض في الاستعارة والتشبيه والكناية ، ونحن نعلم أن الاستعارة أدق هذه المعارض وأصعبها مراسا ، وأبعدها انقيادا ، وانها قائمة على النقل ، فان كان النقل عن طريق التشبيه الحاصله بين طرفين فالاستعارة وان كانت عن طريق المشابهة فالتجوز •

واذن فعملية النقل تحتاج الى قدرة على رؤية حقائق الأشياء التي تدل عليها الألفاظ حتى يمكن النقل ويؤمن الخطأ فيه ، وحتى يستطيع الناقل أن يدرك الفروق الدقيقة بين هذه الحقائق ، وأن يختار من الألفاظ ما يكون معبرا عنها ، ومن هنا أخطأ كثير من الأدباء في عملية

النقل لأنهم لم يؤتوا حظا من الدقة في الرؤية والاصالة في اختيار الألفاظ، وقد ذكر الجرجاني في وساطته كثيرا من الشواهد التي يبدو فيها هذا النقص ، ويظهر في ثناياها ذاك العجز ، كما أنه ألمع الى أسبابهما ، وهنا يؤكد الجرجاني أن للثقافة بمعناها الواسع دورا كبيرا في دقة النقل وعدم دقته ثم اورد بعض هذه الشواهد لتدل على ما سواها من الجهات التي يعتري فيها العجز عمل الأديب ، فيأتي على غير ما كان يرجو من سداد القصد ، وصحة التركيب ، وبراعة الخلق الأدبي •

كما أن الجرجاني يقدر دائما عامل الزمن في التصرف في المعاني ، ونقلها والتوليد منها والتأليف بين المتنافر من أجزائها ، والشارد من دقائقها •

ثم جاء عبد القاهر ، كما رأينا ، فأفاض في بيان الاستعارة والتشبيه والتمثيل وحدد الخطوات التي تتبع في عملية النقل ، ثم عاد الى تكملة القول في كل ذلك مؤكدا أن الاستعارة أحيانا لا تنحل الى أجزائها التي تألفت منها ، ذلك لأن التحليل يفقدها جمالها ، ويحول بينها وبين وظيفتها في التأثير في النفس ، واثارة الاعجاب بها ، ومثل لذلك بقول زهير بن أبي سلمى في قوله ، « وعري أفراس الصبا ورواحله » •

وتقدير عبد القاهر صعوبة حل الاستعارة دليل على أن من الاستعارات أو الصور الفنية القولية ما لا يمكن ان يتألف من أجزاء بهذه الصورة التي تحتاج الى اختيار الأشياء والتأليف بينها ، وان

هنالك أنواعا مـن النسب بين الألفاظ يعين على تحقيقها ما توافر فـي الاديب شاعرا أو ناثرا مـن صدق الرؤية ، وصحة الادراك ، ونفـاذ التأمل ، والا فما الفرق بين هذه الاستعارة التي وردت في شعر زهير وبين قول لبيد اذا أصبحت بيـن الشمال زمامها ؟

والثانيـة يمكـن ان تحل الى الأجزاء التي تركبت منها ولكنهـا الصعوبة التي يجدها مفسر النص في تحديد هذه النسب تحديدا يصـل بالمفسر الى ذلك التطور الدلالي في عملية النظم نفسها .

والحاكم بالنقل أو المتصدي لبيان مراحله انمـا هو مفسر النص ، فأما عمليـة النقل فانه يحدها الأصل الذي انتهى اليه فلاسفة النقد وهو الحقيقة والمجاز ، وقد عرف القدماء الحقيقة بآنها استعمـال اللفظ فيما وضع له ، والمجاز بأنه استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة مع قرينه مانعـة مـن ارادة المعنى الأ كما أنهم قسمـوا المجاز الـى مجـاز مرسل والى مجاز عقلي وفرقوا بينهما بأن المجاز المرسل ما كان في اللفظة أما المجاز العقلـي فانمـا يكون في الاسناد أو بمعنى أدق المجاز منه ما كان في الألفاظ ومنه ما كان في النسبة بيـن الألفاظ .

والواقع أن تعريف المجاز بهذه الصورة وبخاصة المجاز الواقع فـي الالفـاظ مجـردة عـن النظـر فـي النسب بـين الألفـاظ يعتمـد أساسا على الوضع اللغوي ، وهو أمر يصعب تحديده ان لم يبد مستحيـلا .. على أن فكرة الوضع فكرة لا يكاد يسلم بها لغوي نافـذ

دلالة الالفاظ ص ١٢٨

الادراك في اللغة ونشأتها وتطوير حياتها موصولة بحياة الأفراد والمجتمعات التي يتكلم بها أو يستعملها •

ثم ان المجاز يعتمد في تقريره على أصول : أهمها معرفة التطور الدلالي الذي مرت به حياة اللفظة كما أن مراحل هذا التطور لا يمكن تحديدها الا بتحديد النسبة بين اللفظ المتجوز فيها وبين السياق أو النظم الذي وردت فيه ، أما القول بالتجوز في اللفظة مجردة فذلك ما لا يقول به أحد،ولنمض في تحليل بعض الشواهد التي يستشهد بها الباحثون في المجاز مبتدئين بما سموه بالمجاز المرسل فمثلا قوله : « أراني أعصر خمرا » • وقوله تعالى « وآتوا اليتامى أموالهم » لا يمكن ادعاء التجوز في الخمر الا لأنها وردت في سياق الفعل أعصر ذلك لأن الخمر لا تعصر اذ هي سائل وانما يعصر العنب الذي تنتج منه • ومثل ذلك يقال في قوله « وآتوا اليتامى أموالهم » اذ لم يفهم التجوز لأن السياق فيه الأمر بايتاء المال لهؤلاء اليتامى الذين يبلغون الرشد وهم اذ يبلغونه يرتفع عنهم الوصف باليتم ، وهكذا يمكن أن نقول ان المجاز لا يوصل الى تقريره الا عن طريق ملاحظة النظم ، والتأمل في السياق ، وادراك النسب بين ألفاظ هذا النظم •

فأما ما ذهب اليه الزمخشري في أساس البلاغة ويكاد ينكره عليه الأستاذ ابراهيم أنيس فانه يعتمد في القول به على فكرة النشأة المادية للغة وتطورها حتى تصبح ذات دلالة على معان حضارية أو أشبه بالمجردة ••ذلك لأن الزمخشري كما يبدو في صنيعه ممن يقولون بمادية اللغة بمعنى أنها تتخذ من ماديات الحياة مادتها الأولى ، ومن هنا

يرى ان استعمـــال الفعل كتب بذلك المعنى الحضاري مجاز اذ أن معنـــاه المادي الأول هو ضم طرفي السقاء وكذلك الفعل قرأ ، ومنها كلمة فتنة وأنها في أصل معناها المادي من فتنت الذهب والفضة على النار ، عرضتها عليها لتتبيـــن جودتها أو رداءتها ، وهكذا نرى أن الزمخشري يقدر في بيانه لهذا التطور الدلالي مادته اللغـــة الأولى وهو في ذلك يكـــاد يتفـــق وما ذهب اليه كثير مـــن اللغويين المحدثين مـــن أن اللغة وظيفة اجتمـــاعيـــة يمارسها الفرد كمـــا يمارس غيرها مـــن الوظائف الأخرى التي تتكامل بها شخصيته .

وهكذا نرى أن مفسر النص تواجهه صعاب كثيرة أخصها ذلـــك االتطور الدلالي الذي يختلف الناس في تقديره والكشف عن آثـــاره في النظم الأدبي ، وقد رأينا أن من أهم ما يثيره ذلـــك التطور اختلاف الرأي حول القـــول بالتجوز أو نفيه في كثير مـــن الألفاظ والعبارات .

فقد رأينا اذن مـــن جمـــلة هذه الآراء التي تمثل القطاعات العلمية والأدبيـــة المختلفة في حياة الجماعة الاسلاميـــة أن اللغة كانت وسيلتها جميعـــا فيالتعبيـــر عـــن المعاني ، وتحرير المقاصد ، واكتشاف الذات الانسانيـــة ، والكشف عن المجهول مـــن جوانبها ، كمـــا رأينا أيضـــا أن اللغـــة التي استعملتها هذه القطاعات كانت تصطبغ بحياتها اصطباغا بادي الأثر بحيث نستطيع أن ندرك مـــن نص ما يلقى الينا غـــير معزو الى صاحبه أنه صورة دقيقة كاشفـــة عـــن حياة قطاع ما مـــن هـــــذه القطاعات . وقد تبين لنا كذلك أن اللغة لم تظل كما ولدت لم يلحقهـــا تغير أو تطور ، وانما كانت كذلك متغيرة متطورة ، وان النقـــل ، فـــي

جملة صوره وأشكاله ، كان وسيلتها في هذا التغير لا فرق في ذلك بين المشرع المعني بالحقائق الحفي بها العاكف على ادراكها وتحديدها ، وبين الأديب الذي يصطنع الخلق الأدبي اصطناعا يتم له به التصرف في اللغة في أوسع نطاق ، وأرحب مجال •

ويبدو أن الاصوليين ومن لف لفهم من المتكلمين وأصحاب المقالات ممن عنوا بتفسير النص الديني والاستنباط منه وممن كانوا يقدرون أن هذا النص ينبغي أن يسير والحياة الانسانية في تغيرها المستمر ، وانتقالها المطرد تقريرا منهم لقوى الانسان الذي يصنع الحياة على الأرض ، وما له من حق في تفسير الوجود والبحث عن علل ظواهره وأسبابها ـ يبدو أن هؤلاء واولئك كانوا أقرب الطوائف الاسلامية دقة في تصورهم للغة ، وتحديدهم لوظيفتها •

ولن نسرف في عرض هذه التصورات وتحليلها ، وقد اشرنا الى شيء من صور هذا التصور عند حديثنا عن الغزالي في مستصفاه ، وما نقلناه عنه من مختلف النصوص التي كان لها دلالتها على تصور العصور الوسطى للغة سواء أكان أصحاب هذا التصور من الأوروبيين أم من سواهم من العرب بعامة ممن قدر لهم أن يستقلوا بتوجيه الفكر الانساني وحياطته •

غير أنه لا معدى من أن نعرض لتصور واحد منهم عن اللغة ، وقد قدم بهذا التصور عمله في تفسير القرآن وهو الفخر الرازي ، وهو كغيره من الأدباء والنحاة والنقاد يؤكد صوتية اللغة ويتخذ ذلك

أساسا للأحكام التي أصدرها عن التغير اللغوي المستمر • ويمتاز عن سواه بأن وصل بين هذا التصور وبين ما كان يجري في بيئات الفقهاء من مناقشات جديرة بأن تلقى من عناية الدارسين شيئا من الاهتمام •

ويظهر أن فكرة التعريف التي أنشأ الفقهاء والفلاسفة والنحاة يتخذونها ركيزة في تحديد الفروق الدقيقة بين المعرفات كانت قد أنشأت تتخذ مكانها في مناقشات القوم ، حتى في أدق المسائل الفقهية ، وأعمقها أثرا في تكوين المجتمع الانساني وهي الأسرة ، ووسائل جمعها أو تفريقها • فقد حكى الفخر الرازي ــ فيما ذكره ــ ذلك الخلاف الذي حدث بين أبي حنيفة وزفر في الربع الأول من القرن الثاني الهجري ، أي قبل أن يظهر كتاب سيبويه ، ويحتل مكانة خاصة في التفكير اللغوي الاسلامي ، وقبل أن نورد المسألة موضع الخلاف نذكر ما حكاه الفخر الرازي في مقدمة تفسيره ، ولا ضرورة أن اذكره بنصه خشية الاطالة ، يقول ما خلاصته في حديثه عن اللغة والكلام واشتقاقهما ، والتعبير والعبارة والقول ، ومعناه أكثر النحويين على أن الكلمة غير الكلام ، وقال أكثر الأصوليين لا فرق ، وابن جني وافق قول النحويين وأنكر قول الأصوليين ، يقول الفخر ــ وما رأيت في كلامه حجة غير أنه نقل عن سيبويه كلاما أشعر بالفرق بينهما ، ثم يرجح ما يراه الأصوليون ــ ثم يذكر المسألة موضع الخلافات التي أشرت اليها فيقول وقد تفرع من ذلك مسألة مهمة •

وهي أولى ــ مسائل ــ الجامع الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني

في كلامه عـن الايمـان وهي اذا قال الرجل لامرأته : ان كلمتك فأنت طالق ــ قالوا :، ان قال هذا الكلام في المرة الثانية طلقت واحدة ــ ومحل الخلاف ان طلقتك أي مجرد النطق بالشرط وأداته دون أن يذكر الجواب، فقد اعتقد هذا كلاما بعضهم فحكم بالطلاق ولم يعتبره بعضهم الآخـــر كلاما • ثم ينتقل الفخر الرازي الى دلالة الألفاظ وأنها ليست ذاتيـــة حقيقية ، ذلك لأنها تتغير بتغير الازمنة والامكنة ، وللألفاظ دلالات على ما في الأذهان لا على ما في الاعيان •

وربما كان ذلك سببا فيمـا يحدث من خلط بين دلالات الألفاظ ، ومع شبهة أن يحدث مثل هذا الخلط فان الفخر يرى أن أعمق الدلائـــل وأدقها على التصورات الألفاظ دون سواها من وسائل الدلائل الاخرى •

وينتهي الفخر الى قضية أبلغ أثرا وأدق عمقا في الدرس اللغوي بعامة ، وفي النظم بخاصة ، وهي أن دلالة الألفاظ على المعاني دلالة ظنية •

وفيمـا ذكرنـا مـن مقدمة تفسير الفخـر في كثير مـن الايجاز دلالة قوية على أن التصور اللغوي أنشأ يتخذ لنفسه سبيلا مكملة لما أنشأه ابـن جني ومانحا اليه لغويو عصره من آراء •

فاذا قدرنا أن الفخر الرازي كان يديـن بمذاهب أهل السنـــة والجماعة ، وان ذلك كان موقفه من قضية التطور اللغور ، أدركنا الـى حد ما أن النظرة الى اللغة مرتبطة بحياة المجتمع الـذي يتكلمهـــا ويفكر بها ، ويفهم بهـــا النصوص الدينية والأدبية ، طفقت تتغيـــر تغيرا واضحا ، وتتشكل تشكلا آخر أعان عليه ومهد له ، ذلـــك

التطور السريع الذي مرت به حياة المجتمع الاسلامي بعد أن صهرته الحوادث ، وتصارعت فيه الفرق ، وتغالبت على أهله الأفكار والمبادىء ، وتوزعته الأهواء والمشارب، واستبدت به الثقافات والمعارف التي انصهرت في بيئته انصهارا شديدا عنيفا •

ويظهر أن الحياة الدينية العقدية والتشريعية قد أصابها من ذلك كثير فخضعت لما تخضع له الحياة بعامة ، واستجابت لذاك التطور السريع •• فقد طفقنا نحس أن النظر التشريعي لم يعد محدودا في نطاق الحرفية التي كان يستمسك بها بعض المشرعين بل ان أولئك الفقهاء المتطورين أنشأوا ينكرون فكرة الحرفية التي كان يدعو اليها أولئك الفقهاء ــ وربما أنكرها بعضهم على أولئك الحرفيين من أصحاب العقيدة والمدافعين عنها ، والباحثين عن أصولها ــ في ألفاف النصوص ، وأطواء المعاني التي تنتظمها الألفاظ ، فالعقيدة والفقه كلاهما مدلولات ألفاظ وأصحابهما يقدرون ذلك التطور ويدافعون عنه ، ولسنا هنا بصدد عرض ذلك التطور في عقول أولئك جميعا فان ذلك يقتضي أن نحلل أعمالهم تحليلا كاملا كي نلمح فيه دلائل ذلك التطور وأسبابه أشرنا الى صورة من هذا التطور فيما نقلناه عن الفخر الرازي ، وانما اخترت الفخر الرازي لأنه جمع في تفسيره بين المنهجين ــ الديني بأوسع معانيه ، وبين المنهج العلمي ــ في فهمه لحقائق الكون وتفسير ظواهر الوجود ، وهو بذلك يمثل التطور الفكري للمجتمع الاسلامي خلال ستة قرون مضت •

فقد رأينا اذن من ذلك العرض المفصل لحياة اللغة في هاتين

البيئتين الأدبية والدينية أن الادباء يعنون بالمعنى ومعنى المعنى ، وأن معنى المعنى أو المعنى الثاني ينحصر عندهم في الاستعارة والتشبيه في بعض صوره بما تعارفوا عليـه في تحديدهما ، أما الدينيون وبخاصة المشرعون منهم فيعنون بالنص ودلالة النص واشارة النص وفحوى النص .

ويحاولون أن يصلوا بيـن هذه التقسيمات وبيـن دلالته اللفظية ثم دلالة النظم ثم صلة كل أولئك بحياة المجتمع الذي يشرع له اولئـك الدينيون ، وهذا التقسيم لهذه الدلالة تقسيم الفقهاء مـن الموالي ويمثلهم الحنفية ، أما العرب مـن الفقهاء فيكتفون بتقسيـم الدلالة الى منطوق ومفهوم ويدرجون تحت المفهوم كثيرا مـن تقسيمات الموالي ، فأمـا عبارة النص فدلالة النص على المعنى المتبادر منه وأما اشارة النص فدلالته على معنى غير مقصود لا أصالة ولا تبعا وأما دلالة النص فهي دلالة اللفظ على ثبوت حكم المنطوق به للمسكوت عنه . ودلالة الاقتضاء دلالة اللفظ على مسكوت عنه يتوقف فهم الكلام عليه كقول الرسول : رفع عن أمتي الخطأ ، والمراد بالرفع هنا الحكم المرتب على الفصل بالخطأ .

وهكذا نرى أن تصور الدينيين للغة أدق وأنفذ ولما يزل محتاجا الى دراسة أوسع وأشمـل .

البلاغة العربية

نشأتها وتدرج حياتهـــا :

ترتبط حيـــاة البلاغة بفـــن القول وضروبه المختلفة مـــن شعر ونثر ، وهمـــا القسمان اللذان تندرج تحتهما كثير من الفنون التي تتخذ اداتها الكلمـــة ، بمـــا تحمل مـــن جرس وما تؤدي مـــن معنى وما تتعرض له في اثناء العصور المتتابعـــة من تطور دلالي يرتبط بحيـــاة المجتمعات التي تتحدث هذه الكلمة ، وتعتبرها وسيـــلة الابانة عـــن الفكرة ومعارض البراعـــة في البيـــان القولي •

كان ذلك هو الشأن عنـــد اليونان وقد وصلتنا محاولاتهم في هذا الصـــدد ممثلة في كتاب الشعـــر والخطابة لارسطو ، كمـــا كان ذلـــك هو الشأن ايضا عنـــد الرومان وقد انتهت الينا محاولاتهم الباكرة فـــي فـــن الشعـــر لهوراس Arspoetica ويظهـــر انه كان لكل قوم بلاغتهم يعتمـــدون عليها في تحرير القول ، وتحبير البيان ، ودقة الاداء وبراعـــة العرض ، وقوة الحجة ، وسلامة المنطق فقد عرف ــ في تاريخ الهنود انه كانت لهم بلاغة وان بلاغتهم ارتبطت بحيـــاة كتابهم الدينـــي Veda وقد عرف العرب هذا الكتاب ، وسجلوا فيمـــا وصل الينا مـــن اثارهم ما شهدوه مـــن عناية اولئك الهنود بكتابهم الديني ، ومـــا اقتضته هـــذه العنايـــة ، مـــن استقرار القواعـــد العامة التي تشكل حياة البلاغة عندهم، فقد ذكـــر البيروني في تاريـــخ الهنـــد وصفا لهذه المحاولات ، مؤكدا

انها محاولات تتصل اساسا بقضية الاعجاز عندهم التي كانوا يعدونها جزءا من العقيدة الدينية التي يحرصون عليها ، ويلقنونها ابناءهم ، كما اشار الى هذه المحاولات صاحب كتاب الهند والحضارة الهندية بالانجليزية بل انه ذكر ايضا فيما ذكر ان الهنود عنوا بنظرية النظم ـ وهي النظرية التي يعدها مؤرخو النقد والبلاغة الركيزة الاولى التي يقوم عليها العمل البلاغي والنقدي معا فقد قالوا ان بانينى وضع معجما للكلمات الشعرية الحية والبائدة ، كما ذكروا ان العناية بنظرية النظم وصلت الى مستوى من الدقة والاستقصاء عندهم لا يقل عما وصل اليه نقاد الادب في البيئات الاخرى ،

ويظهر ان العرب كانوا يدركون تماما ان فن القول يحتاج الى تجربة دقيقة ومراس طويل ، اخص خصائصها الرواية للاثار الادبية وفي ذلك تمرين للاذن على التفرقة الواعية بين جرس انواع الكلمات لاختيار احلاها جرسا ، وارقها صوتا واعذبها نغما ، كما ان فيها احاطة بالمعاني الادبية التي توارد عليها القراء وبالمنابغ الفنية التي كانوا يصدرون عنها بعامة، ثم بالصور الادبية التى كانوا يتخذونها معارض لما يودون التعبير عنه من مدح وهجاء وحماسة وغزل الى غير ذلك ، وقد عرفت مدارس في العصر الجاهلي واشتهر امرها بين العرب ، منها مدرسة زهير بن ابي سلمى وبنيه ، كما روت كتب النقد بعض الملاحظات التي كان يبديها الشعراء على ما يسمعون من الشعر في محافلهم ومنافراتهم وفيما كانوا يتناشدونه في الاسواق من انواع القصائد .

ولكـن هذه الملاحظات مهمـا يكـن امرها لا تنهض انتكون علما ولا هي ــ في واقع الامر مقدمات لنشأة البلاغة العربية وانما هي ملاحظات تعتمـد على احساس العربي بلغته وبطاقاتها في التعبيـر والبيان ٠

ومنذ نزل القرآن أنشأ العرب يحسون ان بيانهم قد تغـيـر وان احساسـهم بلغتهم ينبغي ان ينهض على اسس اخرى غير تلك الاسس التي كانوا يقدرونها ، ويحرصون على سلامتها ٠

فقد احسوا ان هذا الكتاب اعطى اللغة طاقات اخرى فمكنها مـن التعبيـر عـن الفـكر الدقيق وقد كانت تعبـر عـن المعاني التي انفعل بها وجدان العربي ، ومع اختلاف الوحي الملكى والمدنى في القرآن اختلافا بعيـد المدى ، فان الوحدة الادبيـة تشيع فيه ، وتأخذ بسوره واياته ، برغـم ان الوحي الملكي يخاطب الوجدان ويستثير الغرائز الصالحة ويرسم بآياته أبعاد العقيدة الجديدة ، ويلفت الى انها لا تختلف عما دعت اليـه الكتب السابقة عليـه ، ويؤكد وحدة التجربة الدينية مهمـا اختلف بها الزمـن ، وتباعدت بها الديار على حيـن ان الوحي المدني ، يخاطـب العقـل ويضع التشريعات التي ينبغي ان تقوم عليها حياة المجتمع الانسانى سواء منها ما يتصل بتكويـن الاسرة ام تكويـن المجتمع نفسـه ، أم بعلاقـة المجتمـعات بعضها ببعض ، تحقيقا للخير المشترك ، والنفـع العـام ، ودعمـا للحيـاة الانسانيـة ٠

ويظهـر ان فكرة الوحدة الادبيـة كانت الاساس الاول الـذي لفت العـرب الى ما في هذه الكتاب مـن فنون القول وضروب البيان ، والفاف المعاني ، واشتات الفكر ، وتسمع الى ما يروي عن ذلك العربـي

مـن سمـع القرآن فقال قولته المشهورة ، والله ان له لحلاوة وانـه عليـه لطلاوة وان اعـلاه لمثمـر ، وان اسفله لمغدق وما هو بقول بشره وتسمع قريبا من ذلك فيما روى عـن سبب اسلام عمر ، وهـو فـي زيارة لاخته فسمعها تقرأ اول سورة طه فلم يكـن منـه الا ان اذهب الى الرسول ، وقد كان اشد الناس خصومة للاسلام ، واقساهم على الرسول، فآمن به وصدق بدعـوته •

وهذه الاخبار بجملتها تدل على ان العربي انشأ يحس ان لغتـه قد اصابها تغير مـن شأنه ان يلفته الى درس هذا الكتاب والعناية به ، والحرص على الاطلاع على ما فيه •

غيـر ان عناية العرب بالفتوح الاسلاميـة ، قد شغلتهم نوعا مـا عـن التفكيـر في هذا الامر ، متجهيـن الى التديـن بما جاء به مـن الاحكام ، والتشرع بمـا فيه مـن القواعد العامة ،

وقد كان الذيـن يتولون بيانه الى الناس هم القراء ، والقارىء يومئذ لـم يكن مجرد تال لالفاظ القرآن ، وانمـا كان يجمع الـى ذلك العلم بما جاء به هذا الكتاب مـن تشريعات تتناول جوانب الحياة كلهـا ، ومـن هنـا سموا بعد ذلك بالفقهـاء ــ فالفقهاء اذن كانوا هم القراء الاوليـن وهم الذيـن كانوا يبذلون الجهد ، في بيان ما في القرآن مـن احكـام ،

فلما تطورت حياة المجتمع الاسلامي وكانت الخلافة الصخرة التـي تكسرت عليـها وحدته ، فانقسمـوا الى هذه الفرق ــ اختلفت مناهـج

النظر في النص القرآني فاتخذ كل لنفسه منهجا ،

بالاضافة الى ان الفتوح الاسلامية وصلت العرب بحضارات الامم المفتوحة ، وفتحت اعينهم على مواريث في الفكر والعلم لم يكونوا يعرفون منها شيئا ، ودخل في الاسلام من هذه الامم الكثير ، وكل قد ورث ــ فيما ورث ــ اثارا من هذه الثقافات .

كل اولئك كانت له اثاره ــ في توزع العرب في دراساتهم ذلك لان ابعاد الثقافة العربية حينئذ قد اتسعت فلم يكن في الامكان الاحاطة بها او ادعاء العلم بها جميعها

فلما انتهت هذه الفترة بما حملت من انواع الصراع على الخلافة تحقيقا لوحدة الجماعة الاسلامية وحماية لها وتمكينا لحياتها وانفرد الأمويون بالامر وانتقلت الخلافة من المدينة الى دمشق كان ذلك بداية تطور جديد لم ينل الدرس البلاغي منه شيء بل اتجه بعض الأمراء منهم الى ترجمة الكتب العلمية فيما تذكر الروايات التاريخية .

وفي هذه الفترة نشطت الدراسات اللغوية والتشريعية نشاطا ملحوظا فكان ان بدأ التفكير في استقراء قواعد اللغة حتى ييسر امر تعلمها على الأمم المفتوحة ، كما انشأ الموالي يشاركون في هذه الدراسات على نحو ما وقد أدى ذلك الى ان تكون لهم آراؤهم ــ في وظيفة اللغة واتخاذها وسيلة للتعبير وتطورها الدلالي ، ثم ما أصابها من تأثر بسواها من اللغات التي تصاقبها

ولقد كانت اولى لبنة وضعت في سبيل ظهور الدرس البلاغي : نشأة

النحـو : ذلك لانه يمثل مجمـوع القواعـد التي تحدد السلوك اللغوي في بنـاء الأسلوب وهندسة العبارة ، وبها يستطيع الدارس ان يمـارس نشاطه النقدي القائم على التفكيـر والتفسيـر والملاحظة النافذة الـى أعمـاق النص والكشف عـن طاقاته المتعددة

غير أنه ينبغي أن نلفت الى أن الدراسات اللغوية التي ظـهرت في هذا العصر كان مـن بيـن أسباب وجودها ـ العناية بالنص القرآني اداء وفهمـا بحيـث تمـرن الألسنة على قراءته والعقول على تدبر معانيه ، والأذواق على الاحساس الدقيق بما حلى به أسلوبه مـن ألوان الجمـال القـولـي •

وما كاد القرن الأول مـن الهجرة يوشك أن ينتهي حتى عصفـت بالدولة الاسلامية عواصف الفتنة والاختلاف التي أطاحت بالحكم الأموي فجاء على أثرهم العباسيـون •

وبظهور هذه الدولة واتخاذ العراق مقرا لها يبدأ الفكر الاسلامـي في مجالاته المتعددة يستأنف مرحلة جديدة مـن حياته وهي المرحلة التي تتحدد فيها مسالك الدراسات المختلفـة ويظهـر فيها التخصص الواسع، ويغلـب على ذلك كله طابع الصناعة الجاهدة في الوصول الى الأكمـل في كل ما يحاولون •

والواقع ان هذا العصر كان بداية التغير الاجتماعيي الذي أصاب حيـاة المجتمـع العربي ففيـه نشطت دراسات جديدة لم يكن العرب على علم بأصولها واخصها الفلسفـة كمـا ان في هذا العصر أنشـأت

العناصر الداخلة في الاسلام من الفرس وسواهم تشعر بكثير من الطمأنينة المؤدية الى تعدد وجوه نشاطهم في العلم والفن فلم يعد للتحرج الديني مكان في حياة العامة ، كذلك لم يعد للتعصب للعرب والعربية اثر غالب على سلوك الجماعة ، وانما القوم سواء •

وفي غمرة هذا الصراع بين الآراء والمذاهب والأجناس والشعوب تظهر أوائل الحس النقدي وبواكره ••

ولقد ظهر أثر ذلك كله ــ في ان الشعراء الذين ظهروا في هذه الفترة طفقوا يراجعون المواريث الفنية التي كان يصدر عنها اتجاههم الأدبي فيثورون عليها ويسخرون منها مدركين ان التغير الاجتماعي الذي ظفرت به الحياة لا بد ان يكون له مكانه وتقديره في الاعمال الفنية ما دام هذا الفن مرآة تنعكس عليها حياة المجتمع ومادام المجتمع هو الذي يتذوق الأدب ويحكم عليهوفي هذه الفترة ايضا أحس الشعراء أن وظيفتهم في الحياة قد تغيرت فلم تعد محدودة باطار الخلافة وانما لهم حقهم في ان يصوروا حياة المجتمع الذي يعيشون فيه بما تحمل هذه الحياة من ضروب التناقض الاجتماعي في السلوك والعادات والتقاليد ، والمذاهب والاراء والاعتقاد والتدين ، وهنا نلحظ اتجاهات متدابرة في الفن نفسه فتظهر في أوائل هذا العصر فكرة الالتزام او التحررسواء أكان التزاما يتقيد بالمواريث الفنية وهي التي اصطلح عليها بعمود الشعر أم تحررا وخروجا عليها ، وانطلاقا تتأكد به ذاتية الشاعر وانفراديته في نطاق ذلك التغيير الاجتماعى الجديد ، وهنا تظهر فكرة القديم والجديد •

وحد القدم والخبرة يتمثل في بداية هذا العصر واحساس المجتمع نفسه بأن حياة جديدة قد بدأت ، لا يربط بينها وبين الحياة السابقة سوى هذه اللغة في حدودها العامة ورسومها الثابتة تلك الحدود والرسوم التي يحددها النحو والصرف . أما وراء ذلك من الفكرة او طريقة التعبير فللعصر بجدته ونشاطه ، وقدرته على الصناعة والخلق والابتكار أثره في هذا كله .

ونلاحظ ان ميدأ القدم والجدة عاش في بيئتين مختلفتين وان كان كل منهما وثيق الصلة بالآخر فاما البيئة الاولى فهي البيئة اللغوية التي اخلصت نفسها لدراسة اللغة واستقراء الفاظها ، ووجوه التعبيرات المختلفة التي يمكن الاطمئنان الى صحتها ولا سبيل الى حصر ذلك كله وتوثيقه سوى الشواهد اللغوية المأثورة التى يصل اسنادها الى عربي لم تخالطه عجمة ، ولم يفسد لسانه تحضر غير موصول الاسباب بالعربية الصحيحة .

ومن هنا وقف اولئك اللغويون عند حدود القرن الثاني للهجرة فبشار وأبو نواس ومسلم بن الوليد والبحتري وأبو تمام واضرابهم ممن ادركوا هذا القرن او عاشوا حياتهم كلها فيه ليس لهم حظ من التوثيق عند هؤلاء اللغويين وانما هم عرضة للتخطئة والتصويب في اشعارهم وفي كتب النحو التي بين أيدينا اشارات الى موقف النحاة واللغويين من اولئك الشعراء .

أما البينة الثانية فهي بيئة النقاد الذين اخلصوا أنفسهم لدراسة

الظواهر الفنية كما يمثلها الشعر الذي لم يكن للعرب يومئذ فن سواه يعتمد على الكلمة وان كانت لديهم فنون اخرى كالرقص والغناء وما اليها .

وتكاد تتحدد كما قلت فكرة القدم والجدة عند اولئك بعمود الشعر الذي أشرت اليه يروي ابن قتيبه) (وسمعت بعض اهل الادب يذكر أن مقصد القصيد انما ابتدأ بذكر الديار والدمن والاثار فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها اذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر لانتقالهم عن ماء الى ماء وانتجاعهم الكلاء وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب ويطرف اليه الوجوه الى أن يقول ثم ينتقل الى وصف السهر والرحلة والنصب ثم الى الغرض المطلوب .

ويبدو أن المتعصبين لعمود الشعر كانوا اكثر من الثائرين عليه والمهونين من امره . والداعين الى التجديد بما يلائم ذلك التطور الجديد حتى ان خلفا الأحمر يروى عن شيخ من شيوخ الكوفة انه كلما حاول أن يجدد في شعره انصرف عنه الناس ولم يصغوا اليه فاذا قال شاعر .

انبت قيصوما وجنجاثا ــ (احتمل له)

واذا قال ذلك الشيخ أنبت اجاصا وتفاحا لم يحتمل له . .

وهكذا نرى أن هذا القرن كان بداية الحركة النقديـــة في الأدب العربي مهما أسرف بعض الباحثين في السبق به الى العصر الجاهلي فان النقد ينبغـي ان يعتمـد على التقييم المعلل اما الملاحظات العابـــرة مـــن الاستحسان والاستكراه فليس لها في حساب النقد مكان والا كان الناس جميعا نقاد الا فرق بين دارس استكمل أسباب الحكـم ووسائلـه ، وآخـر لم يتح له حظ مـن ذلك كله •

ثـم تطور النظر في القدم والجدة فوجدنا ابـن قتيبـه نفسه يرفض في شدة القول بها ويرى أن المسألة نسبيـة فمـا هو جديد اليوم سيصبح قديمـا غدا اذ يقول : ولم يقصر الله العلم والشعر على زمـن دون زمـن ولم يخص به قوما دون قوم بل جعل ذلك مشتركا مقسومـا بيـن عباده في كل دهـر وجعل كل قديم حديثا في عصره وكل شرف خارجيـة في أوله فقـد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدون محدثين وكان ابو عمـرو بـن العلاء يقول : لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى هممت بروايته ، ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعـد العهد منهم ، وكذلك يكون مـن بعدهم عـن بعدنا •

كمـا أن هذا الرجل يعرض للطبع والصنعة : ويتخذ ذلك مقدمة لرأيه في التخطئة والتصويب عنـد حديثه عـن الشعر وأنواعه المختلفة ، واحساس ابـن قتيبة وأضرابه بأن الفـن الشعري منه ما هو مطبوع ومنه ما هـو مصنوع دون ان يبيـن لنا حد الطبع وحد الصنعة ومتى نحكم على بعض الشعـر بأنه مطبوع وعلى بعضه الآخر بأنه مصنوع يوقعنـا في حيرة مـن أمر هذا الحكم • ولكنه في موضع آخر يكشف عن بعض

الوسائل التي تعيننا على صحة الحكم وأصالته : وهي البحث عن البواعث وراء الأثـر الفنني وعـن مدى الرغبة فيه ولأخلاص له ، ولقد صور سويـد بـن كراع في أبياته المشهورة كيف يكون الشاعـر مطبوعـا وكيف يكـون صانعا اذ يقول :

أبيـت بـأبواب القـوافي كأنمـا
أصادي بهـا سربـا مـن الوحش نزعا
أكالئها حتـى أعـرس بعدمـا
يكـون سحيـرا أو بعيـد فأهجعـا
اذا خفـت ان تـروي على رددتهـا
وراء التراقـي خشيـة أن تطلعـا
وجشمني خوف ابن عفان ردهـا
فثقفتها حـولا جريـدا ومـربعـا

وفي هذا العصر اتسع الديوان وتعقدت الحيـاة فيه وتخصص قوم في الكتابة له وتحددت رسوم هذه الكتابة حتى أصبح أولئك الكتـاب يؤلفون طائفـة مـن طوائف المجتمـع الاسلامي لها كيانها في توجيـه حيـاة الدولة وتدبيـر أمرها وهم يمتازون بثقافة واسعة اخص ما تمتاز به ادراكها لطريقة الحكم ووسائله ، ولهؤلاء طريقتهم في الكتابة مـن حيـث تنميـق العبارة ، ودقتها لارتباطها بحيـاة الدولـة ، وقصور الخلفاء ، وفي رسالة عبد الحميـد الكاتب التي يرويها كرد على رسائل البلغـاء بيان شاف لطبيعة هذه الكتابة ووسائلها كمـا أنه في هذا العصر

ايضا اتسع القول في العقيـدة وتعددت مسالكه وللعقيـدة آثارها في فهم النص القرآني وتوجيه اشاراته والكشف عن مقاصده •

ويمكـن أن نجمل هذه الاتجاهات المتعددة في اللغـة ، والادب ، والأعتقاد والتشريع ، والكتابة وكل هذه الحركات او الاتجاهات انمـا تقـوم على فهم النص فهمـا يعتمد على البصر باللغة واساليبها ومقاصد المتكلميـن بها والمستعمليـن لها وما يترتب على ذلك كله مـن احساس عميـق بالحس اللغوي الذي يصدر عنه الانتاج الادبي أو الفني بعامة •

والادب في عامة أمره ليس الا صورة للمجتمع ، والمجتمع الاسلامي كمـا رأينـا ينتظم انمـاطا متعددة مـن المذاهب والآراء والسلـوك وطرائق العيش ، ووسائل كسبه يقول (ولك) في كتابه نظرية الادب ما ترجمـته « أن الأدب نظام اجتماعي يتخذ اللغة أداة له ومثل هـذه الابداعات الادبيـة التقليدية كالرمز والوزن في الشعر مـن اثار ذلك المجتمـع وهي مقررات او أصول نبتت فيه واستكملت حياتها به واكثر مـن ذلك فان الأدب يمثل الحياة والحياة في أبعادها الواسعة حقيقـة اجتماعيـة سواء أكانت حيـاة طبيعيـة أم ذاتيـة أم فرديـة وهـي موضوعات لهذه المحاكمة الأدبيـة فالشاعـر مثلا عضو في مجتمع وهـو محكـوم بقيـم اجتماعيـة نوعيـة بمعنى أنه يستقبل أو يتأثر ببعض درجات المعرفـة الاجتمـاعيـة ويردها له ، والأدب في الحقيقة ينشـأ موصول الأسباب بالمقررات الاجتماعيـة الخاصة وحتى في المجتمعات البدائيـة لا نستطيـع ان نميـز بيـن الشعر والديـن والسحر •

ثم ان الأدب أيضا وظيفة اجتماعية فلا يمكن ان يكون فرديا خالصا .

فكرة اللفظ والمعنى وظهورها في هذا العصر :

ان العلاقة بين اللفظ والمعنى ، أو كما يسميها اللغويون المحدثون بين اللفظ والدلالة ، من البحوث التي حظيت بعناية اولئك الباحثين في هذه الفترة أو في هذا القرن وذلك لان اللفظ رمز لهذه الدلالة وقد يكون الرمز دالا على جملة المعنى أو على جزء منه أو على لازمة من لوازمه يمكن ان يستدل به على المعنى نفسه ، وقد تكون الألفاظ بتركيبها دالة على هذه اللوازم وقد تؤدي هذه الألفاظ وظيفة أخرى بصورها المتعددة وهي هذه الاشتقاقات الكثيرة التي يمكن ان تصاغ من مادة لغوية واحدة .

كل هذه الاعتبارات او النظرات أحدثت آثارها في نشأة النقد العربي نشأة علمية تقوم على الدراسة الواعية والاستقراء البعيد والاحساس البصير والتعليل الواضح المستنير .

ومن هنا ظهرت كتب تحمل أسم المعاني كمعاني القرآن للفراء ومجاز القرآن لابي عبيدة . ويذكرون في سبب حمل أبي عبيدة على تأليف كتابه المجاز ان احد الكتاب سأله يوما عن معنى قوله تعالى « طلعها كأنه رؤوس الشياطين » في وصف النار فنهض لتأليف كتابه مجاز القرآن ، ويرى ابن تيميه انه لم يقصد ؟ بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة ولكنه يريد منه طرائق التعبير عن الفكرة .

فاذا عرفنا ان أبا عبيدة انتهت حياته في أوائل القرن الثالث وأنه كان معاصرا للفراء وبجانبهما الامام الشافعي الذي ترك رسالته المشهورة في أصول الفقه ، وقد تحدث فيها عن اللغة ووظيفتها في اداء المعاني واثرها في فهم النص أدركنا الى أي حد كان هذا العصر عصر التفكير المنظم — في نشأة النقد العربي نشأة تعتمد على الدراسة والخبرة ، ثم على التعليل الذي هو السمة البارزة للنقد ذلك لان التعليل لا تنهض حياته الا بوسائل متعددة تحققها ثقافة واسعة، وتجربة دقيقة وادراك واع بطبيعة سير الحياة الاجتماعية موصولة الأسباب بالنواميس العامةالمسيرة للحياة بشعابها المتعددة ، ومسالكها الدقيقة •

وما كاد القرن الثالث يأخذ في المضي حتى ظهر الجاحظ في حياة النقد العربي يمثل هذه التيارات الكثيرة التي أشرنا اليها جملة ،ويكاد يلخص في كتابه البيان والتبين الدوافع العامة التي تقود هذه التيارات وتوجهها وبحسبي ان اشير هنا الى بعض نصوص من كتابه هذا لها دلالتها على هذه الدوافع التي طورت من حياة النقد العربي فاسلمته الى أن يستأنف من حياته فترة أخرى لها خصائصها الواضحة وقسماتها البارزة على ما سنبينه فيما بعد •

انتهت حياة الجاحظ سنة ٢٥٥ من الهجرة وقد دان في حياته بمذهب الاعتزال ودافع عنه وكان طبيعيا ان يتأثر باتجاهات هذا المذهب في الاعتقاد ، والثقافة وان يقيم تفكيره على هدى من أصوله ومن هنا تعددت ثقافة الرجل واتسعت ابعادها فكتب في الحيوان ، وفي

البيـــان وأصوله وضروبه المتعددة ، كمـــا كتب في الرسائل وأنواعـــها والأديان ومسائلها ، ومسالكها التعصب لها واسباب ذلك التعصب ، وفي خصائص بعض الأجناس البشريـــة وأشار في كتاباته كلها الـــــى الآثار الاجنبيـــة التي أنصهرت في البيئة العربية الاسلامية •

ومـــن هنا كانت كتابات الجاحظ تمثل هذا العصر أصدق تمثيـــل، تمثله في الأحتكاك اللغوي الذي أفادت به العربية وفي الاحتكاك الاعتقادي الذي تشعبت به المذاهب والآراء ، وفي الاحتكاك البياني الذي تعقدت به حيـــاة الفـــن القولـــي •

ولم يفصل الجاحظ كلامه في كل هذه الاتجاهات تفصيلا يقوم على التنظيـــم والتقسيـــم وانما مزج كلامه مزجا يتمثل فيه هذا التداخـــــل والاحتكـــاك في أدق صوره ، وأعقد مسالكه ، ونحـــن لا يهمنـــا مـــن ذلك كله الا ما يمس ما نحـــن فيه مـــن البيان العربي الذي نؤرخ لسير حيـــاته ، وأغلب ما عرض له الجاحظ مـــن اصول البيان انما ورد في كتاب البيـــان والتبيـــــن •

فنـــراه يطيـــل القول فيمـــا أثاره بشربـــن المعتمد من ضرورة ملاءمة الكلام للسامع ، ووجوب خلوه مـــن التنافر في الفاظه والتعقيـــد فـــــي معانيـــه وأن اسلوب الكلام ينبغي ان يكون وسطا بيـــــن الاغـــــراب والابتـــذال كمـــا عرض للكـــلام عـــن الجزالة والعذوبة ، وفي اثنـــاء ذلـــك يعـــرض لاصول الوحدة العضوية في القصيدة وهو ما سمـــاه بالقرآن وهـــو الذي أشار اليـــه ابـــن قتيبة في مقدمة كتابه الشعـــــر والشعـــراء •

ولم يقصر الجاحظ حديثه على الشعر وانمـا تجاوزه الى الخطابـة كيف تبدأ وكيف تنتهي ، كذلك عرض للسرقات الشعرية وضروبها ــ وفي اثنـاء ذلك يتناول في حديثه الكلام عـن الهنود واليونان والفرس وما كان عندهم من ضروب البلاغة وصنوف البيـان في صورة عامـة او اشارات عـابـرة ٠

ولكـن هذه الاشارات لها دلالتها على مدى تفاعل المجتمـع الاسلامي بغيره مـن المجتمعـات التي اتصل بها او احتك بثقافتها ٠

مـن هنا نـرى ان الجاحظ عرض في كتبه الى اصول البيـان العربـي فعرض في صورته العامة مؤكدا انه يعتمـد على اللغة في التطور الاجتمـاعي والدلالي فليـس حديثه عـن الابتذال الا نوعا مـن الربط بيـن اللغـة نظاما متكاملا للتعبيـر عـن الفكرة وبيـن المجتمـع في استعمـاله لهذه اللغـة وهجره لبعض الفاظها واحيائه لبعضها الآخر ، وليس حديثه عن العامية والفصحى الاصورة اخرى من صور هذا الربط٠

ومن هنا كانت هناك مدارس للفقه واخرى للغة وثالثة لرواية الشعر ودراستـه ،

ويظهـر ان العناية بالشعر كانت اسبق مـن النثر ذلك لان الشعر المادة الاولى التي يعتمـد عليها دارسو اللغة كمـا انه يعين على فهـم النص القرآني وفيمـا يرويه ابن سلام في مقدمة كتابه طبقـات الشعراء ، دليـل علـى هذه العنايـة اذ يقول فيما روى عـن عمر انـه قـال عليـكم بالشعـر فان فيه تفسيـر كتابكم

علاقة البلاغة بالاعجاز القرآن :

لم يكن بد من ان تثار قضية الاعجاز القرآني وقد اتسعت رقعة الدولة الاسلامية وامتدت اطرافها وان يختلفوا عليها اختلافهم في اللغة والنحو وفي الفقة ، وفي بقية العلوم الاسلامية فتتعدد فيها الاراء ، وتختلف باصحابها المناهج ، ونحن نعلم ان كثيرا من الاتجاهات الاسلامية سواء في العقيدة ام في التشريع انما تنهض على اختلاف اصحابها في تفسير النص ، وهذا الاختلاف بدوره يعتمد على الاختلاف في النظرة الى اللغة ووظيفتها في التعبير واساليبها في البيان •

ويظهر ان قضية الاعجاز عاشت حياتها الاولى في اكناف المتكلمين وعلى عين منهم اذ كانوا يومئذ يمثلون جبهة الدفاع عن الاسلام بما يثار حوله من شكوك ، وما يتعرض له كتابه من هجوم، ومن هنا صح ان نقول ان البيان العربي انما نشأ في هذه البيئة وهي التي صنعت منه علما مستقلا له اصوله وقواعده ، وقد لحظ ذلك ابن تيمية •

فقال في كتاب الايمان ، ان اول من تكلم بلفظ المجاز ابو عبيدة معمر بن المتني في كتابه مجاز القرآن ولكنه لم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة وانما عنى به ما تعبر عنه الاية ، الى ان يقول ما خلاصته وانما تحددت معاني هذه المصطلحات البلاغية في بينة المتكلمين ،

والمتكلمون لم يكونوا بمعزل عن التيارات الفكرية الجديدة بل

انهم درسوها وعاشوا فيها ، وشاركوا في انمائها ، وقد ذكر اوليري (وماكدونالد) هذه المشاركة . بل ا ناوليري يذهب الى ان المعتزلةكانوا اول من طبق اصول الفكر اليوناني ـ على الفكر الاسلامي ، وهي دعوى تحتاج الى نظر اذ فيها كثير من المجازفة ، لكن يمكن ان يقال ان المعتزلة كانوا من اوائل المسلمين استجابة لهذا الفكر فاستفادوا به في تصحيح المنهج ، وتنظيم المعرفة ، وامدوا اللغة به فاكسبوها طاقات جديدة

ولا نستطيع ان نظفر بكثير مما تركه المعتزلة او المتكلمون بعامة في حياة الدرس البلاغي الا فيما يذكره الجاحظ فقد كان معتزليا صاحب فرقة ، وهو الى ذلك اديب شارك بجهده في صنع الحياة الادبية وتوجيهها فهو اول من كتب نثرا فنيا بعيدا عن الديوان وكتابته ـ متجها به الى المجتمع يصور ما فيه تصويرا فنيا يميل فيه الى الاستقصاء الدقيق ، وكتابه البخلاء انموذج من هذا النثر ، ويظهر ان عصر الجاحظ كان عصر اختلاط الثقافات وامتزاجها وهو العصر الذي بدأت تتحدد فيه اولية الدرس البلاغي ـ في صورة منظمة ـ سواء منه ما يتصل بشخصية المنتج للادب ام السامع ، ام الخلق الادبي نفسه ـ

وفيما ذكره في البيان والتبيين ما يصور هذه النواحي كلها فيذكر مطابقة اللفظة للمعنى وخلو الكلام من التنافر والتكلف والتعقيد وان يلائم المتكلم بين ما يقول ، وطاقة السامع ، واستعداده للفهم وادراكه للمعاني ، وقد انفرد الجاحظ بملاحظ ينبغي ان نشير اليها لانها تشير سلفا الى القضية التي تثار اليوم والتي قد اثارها من قبل

كثير من النقاد وهي علاقة اللغة بالمجتمع ، وتدريج اللغة حسب الطبقات الاجتماعية التي كتب لها العمل الادبي وبخاصة ما كان منه يعتمد على الحوار •

فالجاحظ يرى ان اللغة ينبغي ان تساير هذا التدرج الاجتماعي فالعامي يحكي كلامه باللغة التى يتكلم بها ويفهم عن طريقها الاثار الادبية وانه لمن السخف عنده ان يقال في لغة فصيحة لا تصور منزعه في البيان، ولا وسيلته في الاداء ، وهذه القضية قد اثارها النقاد في بداية القرن العشرين وحاولوا جهدهم ان ينمو دراسة اللغات العامية ، في جميع الاصقاع العربية ورتبوا على ذلك القول باقليمية الادب ثم اقليمية اللغة ، غير ان الجاحظ لم يكن يدعو الى هذه الاقليمية بهذه الصورة الرهيبة ، التي تقطع ما بين العرب من وشائج وتعزل كل اقليم عن الاخر عزلا تضطرب معه موازين الحياة النقدية فلا يكون ثمت بينها اداب مشتركة او قيم فنية ثابتة ، او ادراك واع لطبيعة الفن القولي، على ان الجاحظ يشير في اثناء كلامه الى ما كان لليونان من اثر في هذه النظرات البلاغية المتفننة ، كذلك استطاع الجاحظ ان يصل بين البلاغة وبين طبيعة الفكرة المعبر عنها من جهة الاطناب والايجاز اذ يقول في كتاب الحيوان « والايجاز ليس يعني به قلة عدد الحروف واللفظ، فقد يكون من الكلام ما يعد ايجازا مع طوله ، لان الموضوع عنده يحتاج الى تفصيل اطول ، وبسط اكثر »•

وفي هذه الفترة التي عاش فيها الجاحظ وضعت اول محاولة في علم الاصول وهي رسالة الشافعي وقد افرد فيها فصلا مطولا عن اللغة

ووظيفتها واسرارها في التعبيـــر ، وكل اولئك يسميه الشافعي في غيـــر الرسالة منطق اللغة وهو غير ذاك المنطق الذي وصل الينا عن اليونان

وفكرة المجاز كانت تحتل المكانة الاولى يومئذ لارتباط هذه الفكرة ـ بمقررات دينية كمـا انها ترتبط عند المعتزلة بفكرة الرمز في اللغـة

حقا انه لم تصل الينا اشارات عـن هذا الرمز ولكـن ما وصـل الينا مـن اثارهم في تفسيـر النص القرآني يدل على ذلك ويؤكده وبهذا الرمز تدرج القول في المجاز في البيئة الاسلاميـة واتسعت نواحي القول فيـه ،

فاذا كانت اللغـة في اصل وضعها رموزا لمعان فانها عند المعتزلة قد تدرجت مـن رمزية الى رمزية فاليـد مثلا ترمز لهذه الجارحة التـي تمـارس نشاطها متنوعا منـه هو ما اعطاء ومنع ومنه ما هو بطش ولكن هذه اليـد اذا نسبت الى الذات العلية ضاع او تترك المعنـــى الاول واصبحت رمزا لهذا النشاط الذي تمارسه هذه الجارحة فاذا قال اللـه تعالى (يد الله فوق ايديهم) كانت اليـد هنـا رمزا للقدرة ، واذا قال ولتصنع على عيني كانت العيـن رمزا للعناية والرعاية ،

واذن فقد اتسع القول في المجاز عنـد المعتزلة وهم في تقريرهـم لقضاياه تفصيلهم للقول فيه انما يصلون بينه وبين العقيدة الدينية ذلـك لان المعتزلة يبالغون في التنزيه ويرون ان القرآن نزل بلغة عربية فيجب ان يفهم على طرقة العرب ، وطريقة العرب منها ما يصور الحقيقة بما هي حقيقة مجردة عـن الاعتبار الديني ، او النظر المذهبي ومنها ما يصور الفكرةمرتبطة بهذا الاعتبار وسائرة في مجاله، وقد ترتبعلى ذلك اختلاف

طبقات المجتمع ـ في تقرير المجاز اثباتا وانكارا في كثير من الايات التي وردت في القرآن • فمنهم من يرى ان في الاية مجازا ومنهم من ينكره ومن هنا وصل البلاغيون المتأخرون بين المجاز طريقة للاداء وبين العقل ودارت تعريفاتهم له على هدى من هذه الصلة ، وتقدير لها سواء منه ما سموه بالمجاز المرسل ام بالمجاز العقلي وقد فرقوا بين المجازين بأن الاول خاص بالكلمة المفرد والثاني خاص بالتركيب وهي تفرقة غير دقيقة •

فاذا كانوا يعرفون المجاز المرسل بانه استعمال الكلمة في غير ما وضعت له مع قرينة مامانعة من ارادة المعنى الاصلي ـ فقد قرروا ضمنا ان المجاز لا يكون في الكلمات المفردة وانما هو في التركيب جملة فمثلا اذا سمعت قارئا يقرأ هذه الآية اني اراني اعصر خمرا وجردت كلمة الخمر عن ملابساتها من الالفاظ فهمت الخمر بمعناه المعروف الشاسع بين الناس واذا وصلتها بأخواتها انتهيت الى تقرير المجاز لاستحالة عصر الخمر ـ وقد كان الجاحظ وأضرابه يستعملون المجاز بهذا المعنى الذي يستعمله فيه ابو عبيده وهو طرائف اللغة في التعبير ، والمجاز عنده بعض طرائقها ، وان كان القرن الرابع يخص المجاز بما اصطلح عليه اخيرا عند البلاغيين •

وفي مطلع القرن الرابع ظهرت الاصطلاحات البلاغية واضحة محددة تعبر عن منهج واضح وتصور دقيق

و لا شك ان ارتباط البلاغة بالنص القرآني كما قلت اوجد اتجاهين

في درسها ، وقد أشار اليهما السيوطي في حسن المحاضرة عندما ترجم لنفسه اذ يقول وقد درست البلاغة على طريقة العرب لا المتكلمين .

وقد استفاد من هذه الأشارة الأستاذ امين الخول في كتابه فن القول فحاول أن يتبين خصائص كل اتجاه ابتغاء التفرقة الدقيقة بينهما ، ويظهران المعارك الكلامبة التي دارت بين تلك الاطراف البلاغة ، وتحديد مصطلحاتها تحديدا اقرب الى المنطق منه الى الروح المتقابلة في المجتمع الاسلامي كانت انشأت تحدث اثرها في تقنين البلاغة وتحديد مصطلحاتها تحديدا اقرب الى المنطق منه الى الروح الادبية ، فاتبعوا التعريف والتحديد في هذا التفريق ولجأوا الى المنطق الصوري الارسطي يستمدون منه العون فيما يكتبون واقتضى ذلك منهم ان يشققوا القول فيما عرضوا له تشقيقا يدعو الى السأم احيانا ، وقد كان من اوائل الذين نحوا هذا المنحى قدامه بن جعفر في كتابه نقد النثر وقد بدا فيه التأثر بما ترجم عن ارسطو ـ وقد عقد للشعر فصلا خاصا تحدث فيه عن ماهية الشعر مقسما اياه الى اربعة ابواب وهي المدح والهجاء والحكمة واللهو ويعرض في أثناء حديثه عن ذلك كله الى التشبيه والاستعارة والرموز الكناية والالتفات وما اليها من ضروب البلاغة التي استقر امرها عند الخالفين في العصور التالية لعصر قدامه .

قضية الاعجاز القرآني واثرها في تطور النقد العربي :

لقد عاشت هذه القضية في بيئة المتكلمين وهم الذين وقفوا جهودهم على تحديد العقيدة وبيانها حتى انهم اعتدوا الاعجاز القرآني

جزءا مـن اعتدها عاملا في تطور الفكرة وتعميقها كأبي تمـام ومنهم من ناهضهـا ووقف منها موقفا معارضا كالبحتري ، واساس ، الاختلاف في تقريـر الفلسفـة اختلاف اولئك الادباء حول مضمـون الادب وعلاقة هذا المضمـون بالأديب نفسه •

فالذيـن يرون ان المضمـون الادبي مضمـون اجتمـاعي يرتبط بالحيـاة العامة ، وبالقيم الانسانيـة في تحديد الحق والباطل ، والخير والشر ، والجمال والقبح وكل ذلك مرده الى قيمتيـن هما الصـدق والكـذب •

ـ الذيـن يرون ذلك يعدون الفلسفـة ضربا مـن المعرفة التي ينبغي ان يكتسبها الفنان أو الشاعر فتكون موضع اهتمامه وتجربتـه ومـن اولئك ابو تمام ولم يصل الينا مـن اقوال أبي تمام ما يوضح هذه الفكـرة غيـر ان صنيعه في انتاجه الشعري يؤكد ذلك أما البحتري وهو تلميـذه فانه يخالفه كل المخالفة ويرى أن المضمون الأدبي شيء اخـر لا علاقـة له بالفلسفـة ، ولا بفكرة الصدق والكذب وقد عبر عن ذلك في ابياته المشهورة التي يقول فيها •

كلفتمونـا حـدود منطقكـم
وللشعـر يغنـي عـن صـدقه كذبة

ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنطق ما نوعه وما سببه •

فابو تمام اذن شاعر متطور يؤمن بالمعرفة ، وتطورها أما البحتري فانه شاعر يصنع شعره كما كان يصنعه الجاهليون ، وكما رسم حدوده امرؤ القيس ذو القروح •

وكما اختلف الناس يومئذ حول المضمون اختلفوا حول الاعجاز فمنهم من كان يرى ان الأعجاز لخصائص انفرد بها القرآن الكريم، وهي موضع عناية الدارس والكشف عنها ومنهم من كان يرى أن اعجازه بالصرفة وهي ان الله تعالى صرف الناس عن معارضته ولم يقل بهذا الا ابو اسحق النظام وهو أستاذ الجاحظ وشيخه •

فقد رأينا اذن ان الفلسفة التى طورت المضمون الأدبي الذي اختلف عليه الشعراء والنقاد معا هي التي عمقت القول في الاعجاز القرآني ونمته ، ذلك لان للفلسفة صلتها باللغة التي تعبر عنها ولا نستطيع ان نتمثل فكرة فلسفية ما لم تكن لغتها متكافئة معها من حيث الأداء والتعبير •

ونحن نعلم ان العقيدة لا يمكن فصلها عن النص الديني لانه النص الذي نزل من السمال يحكم في لغته اصولها ويحدد اهدافها ، ويغري الناس بالنظر فيما حولهم ليحسوا بأنفسهم أصول الاعتقاد فيما بين ايديهم من الظواهر الكونية المتعددة التي لا يمكن انعزالها عن اسباب وجودها وعلة حياتها • وقد نزل القرآن ايضا بحكم اصول التشريع العملي المنظم لوسائل الارتفاق وأساليب التعيش وضروب الكسب

فالقرآن اذن بنزوله على هذا النحو انما يعد تطورا في المضمون الفكري والاعتقادي والعملي التشريعي وكان طبيعيا عند تناوله لهذه الاشياء كلها ان لا يعني بالتفصيلات وان يستعمل احيانا الرمز لقوته

في تصوير الفكرة وتحديد جوانبها ، والكشف عن ابعادها ، ولتذهب النفس المتأملة في تصورها كل مذهب يتلاءم وطاقاتها في الفهم والادراك ولقد كان من بين أساليب تحقيق الاعجاز وبيانه المقارنة بينه وبين بعض النصوص الجاهلية التي يمكن ان تلتقي واياه في بعض الجوانب التي عرض لها ، وقد استعمل الباقلاني هذا الأسلوب في كتابه اعجاز القرآن ولكن الدكتور زكي مبارك في كتابه النثر الفني في القرن الرابع ـ يرى ان الباقلاني جانبته النصقة ، فلم يختر من النصوص الجاهلية الا أقلها حظا من التفنن الجمالي ، ولقد عاشت فكرة المقارنة بين بعض النصوص القرآني وبين المأثور عن العرب حتى عند البلاغيين المتأخرين وانظر مثلا هذه المقارنة الطويلة التي يعقدونها بين قوله تعالى : « ولكم في القصاص حياة وبين المثل المأثور القتل انفى للقتل »

وقد أشرت من قبل الى ان الدراسات الفلسفية التي اتصل بها المسلمون هي التي طورت القول في الاعجاز وذلك لارتباط العقيدة واستنباطها من النص باللغة ولذلك يعد بحث المجاز من البحوث التي التقت عندها الفرق الاسلامية كلها ونحن لا نريد بالمجاز ذلك المعنى الاصطلاحي الذي استقر عليه الأمر في البيئة الاسلامية وانما نريد به ما هو أوسع من ذلك وأشمل سواء أكان في اللفظة المفردة ، أم في التركيب أم في الصورة الفنية كلها كما في الاستعارة التمثيلية والتشبيه التمثيلي .

ومن هنا نشأ البحث البلاغي في بيئة المتكلمين وعلى أيديهم

وكان للمعتزلة أكبر الآثر في انضاجه ذلك لانهم يرون التنزيه المطلق لله تعالى ويؤولون الآيات المتشابهة على هدى من طرائق اللغة في التعبير والبيان ، كما أن المعتزلة أول من أثاروا فكرة التمثيل والتحييل لاتصالها الوثيق بعملية التجوز ، كذلك عرضوا لقضية الحسن والقبح أو بعبارة اخرى الجمال والقبح وهل هما ذاتيان في الأشياء أو ان الاشياء توصفان به .. وهذا البحث وان كان اساسا يتصل بفكره الاعتقاد وموقف العقل البشري منها أو بمعنى أدق موقف العقل البشري من الرسالات السماوية ، وهو يظل كما هو لا نشاط له يمارسه في الحكم على الأشياء أو ينتظر حكم الوحي فيها .

ثم ان المعتزلة ايضا أثاروا فكرة المعنى وعلاقة اللفظ به .

كل هذه الاراء والافكار وان كان التاريخ صبغها بصبغة دينية انما هي كما رأينا تتصل اساسا بالقيم الانسانية وهي القيم التي يرتد الحكم عليها أولها للانسان نفسه فهو الذي يتكلم اللغة ، ويستعملها ويفهم اشاراتها ومدلولاتها ، كما انه الذي يمارس نشاطه في نطاق القوى الممنوحة له مادية او معنوية .

وهو الذي يستطيع أن يتبين تلك الخصائص التي أنفرد بها هذا النص فسما بها على كل قول ، وارتفع بها عن أن تتطاول اليه طاقة بشرية مهما كان حظها من القوة المتفننة « او الادراك النافذ»

وقد أشار العسكري في كتابه الصناعتين الى طريقة المتكلمين في درس البلاغة ، وتجافى عن أن يكون من انصارها أو المدافعين عنها والمتأثرين بمناهجها .

ولكن تجافيه لم يكن لان اولئك المتكلمين قصروا في هذا الدرس وانما لانهم صبغوه بصبغة دينية وأداروه في مجالها ، وكان رائدهم في هذه الدراسة تحقيق قضية الاعجاز بهذا التعصب البادي الذي لا يرتكز على اساس من الادراك الفني والجمالي لطاقات اللغة ــ ومهما تجاف العسكري عن مناهج المتكلمين فانهم في الواقع هم الباحثون الاولون في طرائق اللغة في التعبير عن الفكرة • ويمثل قمة المتكلمين في درس قضية الاعجاز موصولة باللغة ، وطاقاتها عبد القاهر الجرجاني ، وليست دراسة المتكلمين للغة من ناحية الدلالة وتطورها وحدود المعاني والكشف عن اطرافها الا نتيجة طبيعية لطبيعة عملهم في استنباط اصول العقيدة وتحديد معالمها •

ولقد عرض المتكلمون في بحوثهم لقضية اللفظ والمعنى ووقفو منها مواقف متعددة واظهر مثل لذلك موقفهم من مشكلة خلق القرآن ، وآراء المعتزلة فيها ثم اراء غيرهم من حنابلة وأشعرية •

وقد ترتب على ذلك تعدد ارائهم في صفة الكلام ووصف الله تعالى بها كما جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى وكلم الله موسى تكليما •

وتظل هذه المشكلة (مشكلة اللفظ والمعنى) تتوزع العلماء وتتقاسمهم حتى يظهر الراغب الاصفهاني في القرن الخامس مناديا بأن الالفاظ ينبغي ان لا تفهم معزولة عن قرائنها وأن اللفظ المفرد ليست له دلالة مستقلة محددة تماما انما ينبغي أن يفهم مع غيره من الألفاظ التي تشاركه في الوظيفة اللغوية ، ومن هنا يختلف مفهوم اللفظ ضيقا

وسعة باختلاف موقعه من الكلاث ، ثم يحاول أن يكشف عن اسباب الاضطراب في فهم النص الديني بأن الناس صنفان : صنف ينظر الى أول المعنى وآخر ينظر الى آخره •

فاليد مثلا لها طرفان : تبدأ بالجارحة وتنتهي بالقوة فالذين يفسرون اليد بالجارحة نظروا الى أول المعنى والذين فسروها بالقوة نظروا الى غاية المعنى وطرفه الآخر ، والأولون هم اللفظيون والاخرون هم المؤولون •

أو بعبارة أدق الاولون هم المتمسكون باللفظ والاخرون هم الواقفون عند حدود الدلالة مقدرين تطورها في الاساليب الأدبية الراقية •

ولا نزاع في أن هؤلاء وأولئك انما يرتكزون في عملهم على أصول اللغة ووظيفتها •

فقد رأينا اذن ان طبيعة الدراسات المختلفة من أدبية ودينية واجتماعية كانت تقضي بأن يعاد النظر في دراسة اللغة على أساس من نشأتها وتطور دلالتها موصولا كل أولئك بطبيعة التطور الاجتماعي الذي ألم بالحياة العربية في جميع اتجاهاتها •

حقا ان تطور المضمون الادبي خلال العصور المختلفة كان نتيجة طبيعية لاتصال العرب بالحضارات وتقديرهم لما حفلت بها آدابهم على تفرقة منهم بين الآداب التي يدبن اهلها بالوثنية والذين هم اقرب الى روح الاسلام في دعوته الى الوحدانية وقشرنا الى ان الفلسفة اليونانية كانت من بين الروافد التي أمدت الادب العربي لكثير ، لا

في تفصيل المعاني وتشقيقها وجمع أطرافها والتوغل في شعابها فحسب كما صنع ابن الرومي في كثير من قصائده بل في تحقيق المعاني ووزنها بميزان الصدق وعلاقتها بالتجربة الشاعرة وبالواقع الانساني وبالدوافع المحيطة بالفنان نفسه .

والواقع أن هذا التطور في المضمون هو الذي أدى الى ظهور هذه النظريات المتعددة حول القديم والجديد واللفظ والمعنى واختلاف النقاد في ترجيح احد الطرفين على الآخر أو التسوية بينهما وتظل هذه النظريات تؤدي نشاطها في بيئات النقاد على اختلاف منازعهم وتباين مسالكهم بل ان اولئك انشأوا يقيمون العمل الادبي على هدى منها حتى ظهر عبد القاهر الجرجاني فوضع نظرية متكاملة في النظم أودعها كتابيه اسرار البلاغة ودلائل الاعجاز .

ويعد عبد القاهر بهذه النظرية الواضع الحق لاصول البلاغة العربية كما تمثلها هذه النظرية وليس عبد القاهر أو من تكلم في النظم فيما نعلم بل ان الكلام فيه عرفته أجيال وأمم أخرى ممن عنوا بالدرس البلاغي موصولا بأثر فني توافرت له اسباب الخلود والابداع ، فقد عرف الهنود النظم وفصلوا القول فيه ، ووصلوا بينه وبين اللغة كما عرفه اليونان ، والذي دفع الهنود الى التفكير في هذه النظرية انما هو كتابهم الديني الذي قالوا باعجازه لخصائص فنية يمكن الكشف عنها وقد اشار البيروني في كتابه تاريخ الهند الى هذا الاعجاز وأثره في تنشيط الدراسة النقدية عندهم .

ويظهر ان اتصال المتكلمين في البيئة الاسلامية بتراث هذه

الأمم أيقظهم الى ضرورة البحث في أصول هذه النظرية عندهم لتطوع لديهم الوسائل الى الكشف عن الطاقات المعجزة التي جاء بها النظـــم القــرآني •

وأهم ما تمتاز به هذه النظرية انها اتجهت الى اللغة باعتبارها نظامـا متكامــلا يتم به اداء الفكرة او المضمــون بطرق مختلفة ترتفع أو تهبط حسب قدرة المعبر وادراكه لوظيفة اللغة وتمكنه مــن طاقاتها •

خضوع الدرس البلاغي لمقتضيات الحضارات التي اتصل بها المسلمون:

لا نستطيــع ان تتبين هــذا الخضوع ولا ان نشخص مظاهــره المختلفــة ما لم تتعرض في اجمــال الى تغير الحياة الاسلاميــة واختلاف مذاهبها باختلاف العصور التي مرت بهــا •

واذا كان مــن المقرر في الدراسات الادبيــة التاريخيــة انــنا لا نستطيــع ان نفصل عصرا عــن اخر فليس ثمة عصر لاحق مستقل بنفسه مكتف بمــا فيه ، وانمــا هو يمثل قمة ترتكز على قاعدة هي هذه العصور وليست تلك الاضافات الجديدة التي يضيفها عصر ما بقاطعة صلته بهذه العصور السابقة بمحتوياتها في الادب والفن والاختراع ، عليه ولا تصلح ان تكون اساسا لاستقلال هذا العصر واكتفائه بنفسه •

فالبلاغة العربيــة ــ في صورتها التي انتهت بها الينا ليست الا تنائج لتتابع هذه العصور وما كان فيها مــن تطور حضاري او عمراني ، والواقــع ان العصور الادبيــة العربيــة حتى فيما انتهت اليه الدراسة التعليميــة ، تؤكد ما نقول به ، وندعو اليه ،

فاذا كان العصر الجاهلي يمتد فيما نعرف الى اكثر من مائة وخمسين سنة قبل البعثة فيما يحدده به الجاحظ ، فان هذا العصر لم يكن في حياة الفن القولي – سوى عصر البلاغة في التعبير ، والتفاوق في الاداء ، وهو يمثل قمة التطور في حياة اللغة – بهذا الاعتبار وقد ادى ذلك الى وحدة الصورة للجملة العربية وهي هذه الصورة التي دار عليها الدرس البلاغي فيما بعد ، وبهذا نستطيع ان نفسر كيف اخذ النحو العربي صورته الاولى على يد سيبويه في الكتاب برغم تقدمه زمنا ، فاذا كانت البلاغة بعد ذلك تبحث – في تفصيل صورة من صور الجملة على صورة اخرى لان المقام يلزم به ، فان النحوي لا يعنيه البحث في ذلك الاختيار والايثار لان اللغة عنده هي ذلك المركب الذي يطوع استعماله لكل متكلم به مهما كان حظه من الفكر ونصيبه من الثقافة ، اما البلاغي فانه ينظر الى اللغة نظرة ارفع وارقى من ان تكون وسيلة لتوصيل الفكرة ، او التعبير عن القصد ، فهي عنده هذه القدرة على التعبير الذي يعتمد على حسن اختيار الكلمات ذات الاثر البالغ ، والفرق بين الادب وبين غيره من الاحاديث العامة ان الادب لغة راقية ، يقول سابير في كتابة اللغة، نشأتها وتطورها بالانجليزية – ان اللغة متى ارتقت انتقلت الى مرحلة اخرى فسميت ادبا .

ويبدو ان ذلك كان الاحساس العام الذي يصدر عنه تقدير العربي للغته ، ولا شك ان هذا الرقي الذي تحظى به اللغة يوحي دائماً بنوع من الدرس المقارن بين اللغة في عصر وعصر اخر حتى

يستطيع الدارس ان يدرك ابعاد هذا التطور واسباب ذلك الرقي ، ومن هذه الدراسات المقارنة ينشأ الدرس البلاغي وينمو ويزدهر ازدهارا كبيرا .

واذا اردنا ان نقف على مراحل تطور الدرس البلاغي في البيئة العربية في صورته البينة وملامحه الكاشفة لم تكن لنا من سبيل الى هذا الدرس سوى هذه المقارنة ، وقد احس الاقدمون اصول هذا المنهج فيما تركوا من نظرات دالة على اصالة الشعوربه وان كان قد تطور الدرس البلاغي فيما بعد الى هذه الصورة الجافة .

والقصد من ذلك ان نستشف الاسس التي قام عليها الدرس البلاغي عبر هذه العصور وان نصل من تحديدها الى التيارات العامة التي كانت توجه هذا الدرس والتي أنمته نموا مطردا .

وهنا نسأل : هل قام هذا الدرس على اساس من شعور العربي بحاجته اليه او تقدير العربي لحاجة المجتمع الاسلامي اليه بعد ان انصهرت فيه هذه الاجناس المختلفة فكونته على هذه الصورة التي انتهى اليها بناؤه مقدرا الى ذلك ان عوامل التوحد في الاذواق والمشارب واللغة انشأت تحدث اثارها الواضحة في هذه الصورة !

ان الاجابة عن هذا السؤال تقتضي ان نتابع القول فيتطور العصور التاريخية مشيرين الى الاحداث الكبرى التي المت بحياة المجتمع العربي والتي كان لها اثارها في تطوير اللغة نفسها والذوق القاضي على هذه اللغة ، والمجتمع المستعمل لها .

ونحن لا نستطيع ان نغفل ان العربي في جزيرته كان يلتزم بمقررات فنية لا يستطيع الخروج عليها او مجانبتها وبخاصة من كان منهم يمارس الفن القولي ممارسة جادة مازته عن غيره من افراد عشيرته حتى عد من مفاخر هذه العشيرة يذب عنها اذا نال منها شاعر اخر فيتحدث عن اثارها ويذيعها في الناس ، ويتخذ من امجادها مادة لاعماله الفنية ، وقد حرصوا فيما صنعوا من الشعر على اشياء استقرأها الدارسون فيما بعد •

وهي : الوزن ، القافية ، والصورة الشعرية ، التي يمتاز بها هذا الفن عن سواه من الفنون والتي تعتمد على التخيل او الخيال او بعبارة اخرى على ملكة تعيش في اعماق الانسان وهي ملكة لا يستطيع التصرف فيها تصرفا اراديا وانما هي موهبة لا تتاح الا لمن شفت قصيرته ورهف حسه ، ودقة رؤيته للاشياء ، وقليل ما هم : ولا شك ان اخراج العمل الفني مسكملا لهذه الاشياء كان يحتاج الى قدرة خاصة تمكن من التصرف في اللغة يقول يوتر في كتابة لغتنا بالانجليزية ان المعرفة قدرة ولكن القدرة على اختيار الكلمات المعبرة عنها اقوى واشد ويظهر ان هذا الاختيار من جانب العربي البادي في صحرائه كان يعتمد على هذه الرهافة وذلك الاحساس ، فلما انتقلت العربية الى البلاد المفتوحة وتداعت الامم المفتوحة الى دراستها حتى يستطيع افرادها ان يمتلكوا ناصيتها فتطوع لهم انشأ الدرس البلاغي المعين على ذلك كله يأخذ طريقه الى الوجود في صورة عامة غامضة ، وكان اولئك الدارسون يعتمدون على

امرين اولهما دراسة النصوص الجاهلية ثم المقارنة بينها وبين الانتاج الفني لمن تعلم هذه اللغة • فكل انتاج جديد اتبع طرائق الاقدمين انتاج جيد ، وكل انتاج لم يتبع هذه الطرائق سقط من حساب النقد بل سقط فيما يقدرون من حساب الفن القولي بعامه ، ثم ظل ذلك هو المنهج في العصر الاموي ـ فلما كان العصر العباسي تغير وجه الحياة العربية تغيرا اخر وبذلك التغير اضطراب الرأي بين النقاد فمن حريص على الموروث من التقاليد الفنية ، ومن مأخوذ بهذا التغير حفى به وقد سموا الشعراء الذين ظهروا في هذه الحقبة بالمحدثين او المولدين والتسمية لها دلالتها على هذه النقلة التي تعرض لها النقد الجمالي في البيئة العربية فظهرت مشكلة القديم والجديد وجوهر هذه المشكلة كان النظر في الاسلوب وفي طريقة التعبير وتروى روايات تدل على هذا الاتجاه فقد ذكروا ان بشار بن برد حين قال قصيدته الت مطلعها :

بكرا صاحبي قبل الهجير الهجير ان ذاك النجاح فيالتبكير

لفت نظمه احد السامعين ذلك لانه احس ان هذا النظم لا يتفق وما اوحت به هذه النقلة وما اقتضاه ذلك التغير فالحضارة بطبيعتها امتداد في ذوات الاشياء الحضارية بخلاف البداوة التي لا تعرف هذه الامتداد بل ولا تساعد عليه ظروف الحياة فيها فاذا كانت الحياة في الحاضرة تختلف عنها في البادية اختلاف ما بين البيئتين الماديتين فان اللغة ـ ولا شك ـ تخضع لهذا الاختلاف بل انها المرآة التي تنعكس عليها اثاره وتبدو في نسجها اسبابه ودوافعه ، واللغة في الحاضرة تميل الى البسط

والاطناب ، ومـن هنا قال ذلك السامع لبشار لم لم تقل وان ذاك النجاح في التبكيـر فتأتي بالواو الكاشفـة عـن ربط عجز البيت يصـدره فاجابه بشار انما بنيتها اعرابيـة .

ولا يريد بشار مـن وصف بنـاءقصيدته بانها اعرابيـة انه آثـر فيها حوشي الالفاظ فـلا يستبين منها المعنى الا بجهـد ومشقة وانمـا اراد الايجاز لان في نظم البيت ما يدل عليه ذلك ذلك لان الجملة اذا وقعت مـن الجمـلة السابقة عليها موقع العلة حسـن فصلها عنها مع تأكيدها بان كذلك يصنع القرآن في كثير من اياته كمـا في قوله تعالى ومـا ابرىء نفسي ان النفس لامارة بالسوء فان جمـلة ان النفس تقع مـن الجمـلة الاولى موقع العلة .

وهذه الرواية لها دلالتها على ان هذه النقلة الجديدة طفقت تحدث اثارها في تغير النظر الى اللغة والى بنـاء الاسلوب وطرائق وصل الجمل بعضها ببعض وسوف نلحظ فيـما بعد ان الوصل والفصل اللذيـن اشار اليهمـا بشار كانا مـن بيـن الموضوعات البلاغيـة التي عنى المتأخرون بدرسها تفصيـلا بل انهم اعتدوا ان البلاغة في الفصل والوصـل ، ومقصدهم مـن ذلك ان دقة هذا الباب دقة بالغة تحوج الى عمـق في الادراك ، ونفاذ في الرؤية وحساسيـة في الاذن ، وشفافيـة في الذوق ، ولم يقف اثر هذه النقلة عنـد اللغة في نظمها وتحقيق الالف بيـن كلماتها على صورة تخالف ما كان عليـه الامر قبلا بل تجاوزه الى بناء القصيدة نفسها ويروى عـن ابي نواس في ذلك اخبار تدل على ضيقه بالتقاليـد الموروثة في بناء القصيدة العربية وفي ذلك يقول :

لا تبك هذا ولا تطرب الى وعـد
واشرب على الورد مـن حمراء كالورد

فالبكاء على الاطلال ، وتعقب اثار الديار ، والحديث عـن الرحلة والناقة كل اولئك لم يرض عنه اصحاب هذه النقلة ، ولكـن تيـار التقليـد كان اغلب فظل القوم يمارسون نشاطهم الفني في الاطـارات المعروفـة وان كان قد شاع في اوائل العصر العباسي المقطعات القصيرة وهي تمثل الوحدة العضوية لبناء العمل الفني ، تمثيـلا دقيقة .

والنقاد مـن وراء ذلك كله يسجلون اثار هذه النقلة فلا يتعصبون لفريـق على اخـر ولا يعلون مـ شأن اتجاه على اخرو وانما هم يرقبون هذيـن التياريـن في صراعهمـا مسجليـن ما يشاهدون مـن اثـار هذا الصراع .

ولا يقف الامـر عنـد هذا لدى النقاد بل يتجاوزه الى اللغويـن واصحاب النحـو فتهولهم هذه النقلة ولا يكادون يعترفون بها ـ تطورا في حيـاة اللغـة ـ ينبغي ان يدرس وانمـا يقفون في استشهادهم على اللغـة عنـد العصريـن الجاهلي والاسلامي ـ ويخطئون من خرج من الشعراء على ما استقرأوه مـن القواعـد مـن شعر هاتيـن الفترتيـن فسيبويه مثلا لا يستشهد بشعر بشار الا حيـن اطلق فيه لسانه ، فاسكته بالاستشهاد بابيـات قليلة .

بل انهم فوق ذلك كله انشأوا يخطئون هؤلاء الشعراء ومنهم الاعشى وقد ذكره النحاة لهذا الخطأ امثلة من شعره منها قوله :

كـان صغـري وكبري مـن فقاقها
حصبـاء در على ارض مـن الذهب

ذلك لان افعل التفصيـل لا يؤتي بعده بمـن اذا كان مطابقـا لموصـوفـه .

وحيـن اشتـد الصراع بيـن انصار القديم والجديد لا في بنـاء الاسلوب وتركيب العبارة بل في المعاني والاخيلة ـ وجدت فكرة الطبقات ونلحـظ في هذه الفترة ظاهرة تحتاج الى مزيـد مـن التأمل ـ وهي ظهـور الطبقات في رواية الحديث وفي الشعر ـ والاتجاه يكاد يختلف بيـن المظهريـن وكان اسبق ما وصل الينا مـن طبقات المحـدثيـن الطبقات الكبيـر لابـن سعد ، كمـا كان اسبق ما وصل الينا مـن طبقات الشعـراء طبقات الشعراء لابـن سلام الحجمي وقد ماتا جميعـا في اوائل القرن الثالث الهجري .

وليست فكرة الطبقات ـ في حياة الشعراء الا مظهرا مـن مظاهر ادراك النقاد في هذه الفترة لطبيعة العمل الفني وانه يخضع في وجـوده لعوامل كثيرة ـ اهمها انتاج العصور السابقة عليـه ثم الموهبة الفنيـة التي يمتـاز بها منتج العمل الادبي .

مـن اجل ذلك قسم اصحاب الطبقات الشعراء الى طبقات وحرصوا في هذا التقسيـم على التدرج الزمني في حياة الشعراء ما استطاعوا الى ذلك سبيـلا وحاولوا ان يتبينوا خصائص كل طبقة مـن هذه الطبقات وكان ما صنعوا مقدمة نافعة لفكرة الدراسة المقارنة بين الانتاج الادبـي

في عصوره المختلفة وبخاصة ما يتصل منه بحياة الادب العربي بعامه •

فقد رأينا من قبل ان القيم الجمالية التي يعتمد عليها الناقد قد طفقت تتغير سواء في الجمال الحسي ام في الجمال الذي لا يقيمه الحس وانما نشعر نحوه بشيء من الراحة ، والرضى وهو ما يمكن ان نسميه بالجمال الفني القائم على الدراسة والتحليل •

فقيم الجمال في المرأة قد تغيرت كانوا ــ كما صورها الشعراء الجاهليون ــ يحبون فيها سواد الشعر وحور العين وبضاضة الجسم وامتلاؤه ، وطول الشعر واسترخاءه ، وبهذا ورد القرآن في تصويره لنساء الجنة ، في قوله تعالى : حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون ، اما في العصر العباسي فقد انشأوا يتجهون الى قيم اخرى ، نستطيع ان نلحظ صورة لها ــ في هذا البيت الذي يرويه البلاغيون •

فامطرت لؤلؤ من نرجس وسقت
وردا وعضت على العناب بالبرد

واخذ التصنع يأخذ طريقه الى حياة المرأة وهو ما يحدث دائما عند التقاء الحضارات في بيئة ما ــ والمرأة في كل عصر بسلوكها وزينتها ومواطن الفتنة فيها ــ المقياس الدقيق للتغير الحضاري الذي تتعرض له الامة اذ انها تحرص دائما على ان تستجيب لكل جديد وتهرع الى كل بدعة ، وتفتن في استغلالها والانتفاع بها على اي نحو من الانحاء •

من هنا بدأت الصنعة والتصنع يأخذان طريقهما الى كل مظاهر

الحيـاة الجديدة حتى ان النقاد انفسهم الذيـن ظهروا في هذه الفتـرة سموا كل علم او فن صنعة فابـن سلام في اول طبقاته يقرر ان الشعـر صناعـة وانها تتعاطى كسائر الصناعات وان الاحتفاء بها ، والتأنق فيها ، دليـل على قوة الفنان وصلاحيته للابداع الفني ولم يعد النقاد يربطون بيـن الفـن الشعري والطبع بهذا الربط الذي كنا نستمع اليـه عنـد اصحاب النظرات النقديـة مـن المتقدميـن ، ذلك لان الفـن في هـذه الفتـرة اضحى كغيره مـن الفنون دراسة يتجه اليها المرء ، ويأخـذ نفسـه بها ويتلقاها عـن اصحابها كأي علم من العلوم التي كانت تعقد لها الحلقات في المساجد وفي بيوت العلماء ، ومجالسهم وكان من المعلمين يومئـذ من اخلص نفسه لدراسة الشعر ونقده ، ومنهم مـن احس في نفسـه القدرة على ان يجاري فيه المطبوعيـن قبل هذا العصر فكـان الانتحـال في ادق صوره عند خلف الاحمـو واضرابه مـن الـرواة والمتصنعيـن ، ولولا ما اخذ به نقاد الشعر انفسهم يومئذ مـن المقارنة بيـن صنيـع اولئك المنتحليـن ، وبيـن انتاج اسلافهم مـن الشعراء المطبوعيـن ما عرف هذا الانتحال ولا تمهدت السبيل الى ادراك خطره .

اثر الترجمة في تطور الفن القولي ونقده :

وفي هذا العصر نشطت حركة الترجمة مـن مختلف اللغات وكان الذيـن يتولون هذه الترجمـة هم السريان وهنا تظهر مشكلة لا بد من القـول فيها ويمكـن ان توضع في ذاك السؤال :

لم لم يترجم العرب الادب اليوناني كمـا ترجموا بعـض الاداب الاخرى ؟

يختلف الباحثون في تعليل احجام العرب عـن ترجمة هذا الادب او بعضه الى العربيـة

فمنهم احمـد امين في ضحى الاسلام يقول ما خلاصته انهم لـم يترجمـوه او بعضه لان الغالب عليـه الوثنيـة وهي تناقض الاسلام في ادق ما دعا اليـه وهو الايمـان باله واحد لا شريك لم ثم ان هذا الادب اغلـب ما يعرض له مـن الفنون الادبيـة الادب التمثيلي والمرأة عنصر اساسي في التمثيـل وقد جاء الاسلام بحجاب المرأة .

ومنهم مـن ذهب الى ان العرب لم يجدوا في انفسهم حاجة اليه لاكتفائهم بادبهم واعتزازهم به ، وهم اهل الفن وبينهم نزل القرآن وكلا الرأييـن لا يثبت عنـد النظر فقد ترجم العرب مـن اداب الامم الاخرى وهي لم تكـن تديـن بديـن موحد على ان المرأة لم تشترك في التمثيل عنـد اليونان الا في فتـرة متأخرة نوعا ما وقد ذكر سانكلير في كتابـه تاريـخ الادب اليوناني

ان المرأة لم تقف على خشبة المسرح الا في الاسكندرية ، واغلب الظـن عندي ان العرب اهتموا اولا بترجمة العلم لانه الوسيلة القوية لصيانة اقتصاديات الدولة الاسلاميـة وقد تقدمت مرافقها وتنوعـت طرائق اكتساب العيش فيها يدل على ذلك ان اول ما ترجمـوه مـن الكتب كان كتاب الفلاحة النبطية ، ثم ترجموا كتب الكيمياء والفيزيـاء وما اليها مما تنمو به مرافقها ، ويقوى به عمرانها فلما تم لهم ما ارادوا انشأوا يتجهون الى ترجمـة الادب ووسائل نقده فاتجهوا الى ارسطـو في كتابيه الشعر والخطابة .

وهنا تواجهنا مشكلة اخرى وهي ، هل فهم العرب هذه الكتب حين ترجموها او كما يقول كثير من الدراسين لم يفهموها وترجموها فاخطأوا في كثير من فهم مصطلحاتها وتطبيقها ٠

سواء فهم العرب هذه الكتب فهما دقيقا او فهموها فهما اجماليا ـ فانا لا تستطيع ان ننكر ان هذه المترجمات احدثت اثارها في النقد العربي ـ وفي البلاغة العربية على العموم ، وعلى هدى منها توسع القوم في تشقيق القول وتفصيل الكلام في كل جزئية من جزئياتها ٠

ولو حاولنا ان نتتبع مظاهر هذا التأثر فيما ترك العرب من اثار نقدية وجدنا ذلك اوضح ظهورا وابين ملامح في نقد الشعر ونقد النثر لقدامه بن جعفر مع تأثره بالمنطق في ضبط الابواب وتنظيم التقسيم ، والامعان في تطبيق اصول التعريف والتحديد المنطقيين ٠

على اية حال ادى ذلك التغير في اللغة وبناء الاسلوب ، وفي القيم الجمالية وفي الصناعة والتصنع الى ان تظهر فنون في القول وضروب من البيان لم يعرفها السابقون بهذه الصورة المسرفة وعلى هذا النحو المتعمل فكان ما اصطلح على تسميته بعد بالبديع عند بشار وابي نواس ومسلم بن الوليد ثم ابي تمام ٠

وفي اصطلاح القوم يومئذ على تسميته بالبديع شعور بجدةالموضوع فالشيء المبدع او البديع الذي لم يجر على مثال سابق ، ويرغم ان ابن المعتز في اول كتابه البديع ينكر ان ما عناه اولئك الشعراء من الوان البديع وما نشطوا له من تصنيع فيما تركوا من قصائد لم يكن من

خصائصهم ، التي انفردوا بها وامتازوا عـن سواهم مـن السابقين فانا نقدر ان ذلك مـن ابداعهم وان جاء عفوا وبغيـر تصنع فيما ترك بعض الشعـراء السابقـون اذ يقول ابـن المعتز في مقدمة كتابه قد قدمنا في ابواب كتابنا هـذا مـا وجدنا في اللغـة وفي احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة والاعراب وغيرهم واشعار المتقدميـن من الكلام الذي سماه المحدثون ـ البديع ـ ليعلم ان بشار او مسلما وابا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا الى هذا الفن ولكنه كثر في اشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمى بهذا الاسم فاعرب عنه ودل عليه» .

ومـن هذه العبارة نستطيـع ان نخلص الى اشيـاء يمكـن ان تعـد ميزانا او معيـارا في العمل النقدي او في تعليل بعض الظواهـر الفنية موصولة الاسباب بالتطور الحضاري الذي تتعرض له الامة فيغير مـن حياتها ويعدل مـن قيمها ويصوغ بعض جوانبها صياغة جديدة تخضع لهذه المقومات الجديدة .

ففي هذه الفتـرة انشأت الشعوب التي دخلت في الاسلام تستعيد ماضيها ، وتحاول جهدها ان تحي ما اندثر مـن اثارها ، وبخاصة انهـا اصبحت تكون جزءا هاما في كيـان هذه الدولة فكانت الشعوبية بأجلى مظاهـرها احدى الاساليب التي اتخذتها هذه الشعوب لتنفـذ مـن خلالها الى احياء تراثها وقد ادى ذلك الى ان يأخذ البحث العلـمي او النقدي مظهرا مـن مظاهر التعصب ، والمحدثون من الشعراء وان كان منهم مـن لم يؤمـن بهذه الشعوبية او يدع اليها فان المتقدميـن منـهم ساندواهذه الدعوة وايدوها وتروى عـن بشار ابيات يشيد فيها باسلافه

ويعدهم مــن مفاخر الاعجميــة وساداتها اذ يقول :

ونبئت قومـا لهـم احنـة
يقولون من ذا وكنت العلـم

الا ايهـا السائلى جاهـلا
ليعرفني انـا انف الكـرم

نمت في المكـارم بى عامـر
فروعى واصلى قريش العجم

وهؤلاء الشعراء هم الذيـن ظهرت في انتاجهم معالم التطور الجديد الذي اصبح به المجتمع الاسلامـي يمثل لوحة فنية جديدة • فكـل جديد جاءوا بـه او زخرف صاغوه ، او ابتداع انفردوا به ليس جديدا في نظـر العرب وبخاصة نقادهم ، ومـن هنا حاول ابن المعتز ان يقرر صراحـة انه ما ترك الاول للاخر شيئا والاولون عنده هم العرب •

بهذا الاضطراب الذي ساد الحيـاة العربية في البلاد المفتوحة : من دعوات متقابلة بعضها يؤيد القديم ويدعو اليه ، والبعض الاخر يشيد بالجديد ويؤمـن به ، وبين هذه المعارك الناشبة بين هذه الاطراف اتسع القول في الفن البلاغي ـ الى جانب المؤثرات الاخرى التي عرضنا لهـا اجمـالا ، وقد استبد البديـع باهتمام الدارسيـن حتى عدت البحوث الاخرى المتعلقـة بالاستعارة والتشبيه والكناية والمجاز من ابواب هـذا العلـم وبعض فصولـه •

وحتى الذيـن كتبوا في اعجاز القرآن مـن المتقدميـن او ممـن نشأوا في غمـارهذا الصراع وشاركوا فيه غمرهم الاتجاه البديعـي فخلطوا بين بحوثه والبحوث الاخرى •

فالروماني في رسالته عن اعجاز القرآن يخلط بين البديع وبين غيره وقدامة اتخذ نفس الاتجاه •

وهكذا نرى ان البديع كان اهم الابواب البلاغية التي استأثرت بعناية الدارسين يومئذ وانفردت بتقديرهم •

ذلك لان البديع صناعة والعصر عصر صناعة في كل شيء في اختيار الالوان ، والاطعمة والتشبه بالملوك الذين اصبحوا امانة — في ذمة التاريخ •

ثم هو عصر التقليد والمحاكاة في كل مظهر جديد او بدعة اخاذة •

(احساس البلاغيين المتأخرين بخطورة هذا الاتجاه ومحاولتهم العناية بدرس اللغة)

قد رأينا من قبل ان العناية بالبديع والزخارف القولية كانت قد حددت النقاد والبلاغيين في اطار ضيق ، حتى الذين كتبوا منهم في النقد الخالص كصاحب الوساطة والموازنة بين الطائيين لم يخرجوا عن هنا الاطار غير ان الجرجاني في الوساطة حاول ان يضع في مقدمته اصول نظرية نقدية متكاملة ، تعتمد على ان يكون الناقد موضوعيا فلا يأخذ عليه التعصب طريق الانصاف وان الفن القولي سواء منه ما يتصل بصياغة اللغة ام الفكرة لا ترتبط جودته بعصر دون اخر ، ولا تقتصر عبقريته على شاعر دون اخر فأمرؤ القيس يستوي في ذلك مع بشار وهو الى كل ذلك كله يقدر التغير والتطور ، ويشير اليه في بعض المواضع مؤكدا له ، ومقررا لأثاره •

غير ان هذا الاتجاه من جانب اولئك النقاد لم ينم عند غيرهم النمو الذي تنطور به تلك النظرية فتصبح كائنا نقديا منفصلا يمثل حلقة من

حلقات التاريخ النقدي عند العرب ، وانما ظل تناولهم اياه خفيفا رفيقا يأتي عرضا ، وبغير قصد لافراده واستقلاله غير ان بعض هؤلاء النقاد كان جريئا فيما اصدر من احكام ، وما لفت اليه من ظواهر لغوية او فنية ، واخصهم الجرجاني فقد قدر الرجل ان اللغة نظام وهي في نظامها مظهر لعامل الوحدة الرابطة بين اطراف الجماعة التي تتكلمها مهما يكن امر الحياة الاجتماعية بينها ومن هنا خطأ هذا الرجل امرأ القيس في جزم المضارع دون ان يكون في العبارة عامل من عوامل الجزم في قوله •

فاليوم اشرب غير مستحقب : اثما من الله ولا واغل كما قدر الرجل ان المعاني في اصولها ومقوماتها قيم فنية يحرص عليها صاحب الانتاج الفني مهما يكن حظه من الابداع والاختراع ومن هنا خطأ بعض الشعراء في بعض ما اوردوه من فنون الاستعارة والتجوز • ولا شك ان هذا التطور في درس الفن القولي على هذه الصورة الجزئية شيء يلفت الى ان النقد الادبي اضحى يدعو الى مبدأ الانصاف في الحكم ، والدقة الواعية في اصداره ، معتمدا على النظرة الشاملة ، والاستقصاء البعيد ، وان فكرة ما ترك الاول للاخر شيئا لم يعد لها مكان عند اولئك النقاد بل الاصل في المفاضلة والاساس في التمييز هو الخضوع للاصول اللغوية ، والاحساس المشترك باصول المعاني •

والفيصل عند الآمدي في هذا كله هو دقة النظر التاريخي ، وتقدير النواميس العامة التي تسير الحياة اللغوية والفنية معا ،

فلما كان العصر المتأخر نوعا ما واقصد به حدود القرنين الرابع

والخامس وقد اخذ الفن القولي يتطور الى مرحلة اخرى اخذ الدرس البلاغي ايضا يسير مع هذا التطور ويعيش في اجوائه •

ولا بد من ان نقول كلمة عن اسباب هذا التطور الجديد وعوامله ، وقد بدا لنا من قبل ان التطور الذي الم بهذا الفن في بداية العصر العباسي كان مرده الى طبيعة التغير الذي شمل جوانب الحياة الاسلامية كلها في السياسة والاجتماع والاقتصاد والفكر وان هذا التغير ادى الى نمو اللغة واتساعها وشيوع الجدل والمناظرات في الفقه واللغةوالادب ، ثم محاولة اللفت الى نظريات جديدة في توثيق العمل الفني عند صاحب طبقات الشعراء وهو ما اصطلح على تسميته بالانتحال •

واما ذلك التطور الجديد فانه يتمثل ــ في ظهور اثار ذلك العصر السابق في انتاج الشعراء فالمتنبي مثلا وهو احد معالم ذلك التطور احدث في النقد العربي ضجة ترجم عنها ابن رشيق في العمدة بقوله فلما ظهر المتنبي ملأ الدنيا وشغل الناس كذلك انشأ ابن الرومي يعنى بتفصيل المعاني واستهلاكها في بسط التعبير ، وتشقيق القول واللفت الى ادق الدقائق فيه وعند ابن الرومي تظهر بوضوح ــ الوحدة العضوية في القصيدة على نحو اخر غير ذلك الموروث من التقاليد المرسومة للقصيدة العربية كما انه انشأ يتناول المعاني الاجتماعية في صور مجسمة تبدو للعين شاخصة ماثلة ثم ان ابا العلاء المعري اتخذ الشعر وعاء للفكر الفلسفي العميق فتناول مشكلة الحياة والموت والمرأة واثارها في هذه المشكلة •

بل انه انشأ يعرض للقيم الدينية في صورة قصة يقارن فيها بين

الحيـــاة الدنيـــا والاخرة ، وصلة كل منهما بالاخرى ـ وكل اولئك كان يستغل فيه مصدريـــن :

همـــا الفلسفات الانسانيـــة شرقية ويونانيـــــة ، ثم النصوص الدينيـــة في تصويرها للحيـــاة الاخرة ونعيمها وشقائها وصلة ذلك كله بالانسان من حيث انه المسؤول الذي احتمل الامانة ، ورضى لنفســـــه منـــذ الازل ان يكون القائم على تنفيـــذ الارادة الالهية في كل جانب من جوانب الحيـــاة .

ونلاحظ ان كتب النقد الادبي العربي لم تتعرض في بحوثها المتعددة الـــى هذا اللون مـــن الادب ممثلا في رسالة الغفران وانما ظلت تقصر نفسها على الجمـــلة في صورها المتعددة ، وعلاقتها بسواها مـــن الجمل الاخـــرى غير حفية بهذا الابداع الفني الذي عرض له ابو العلاء ،

ويظهـــر ان الذي دفع البلاغيين والنقاد جميعا الى الاعراض عـــن ذلك الصنيـــع عند ابي العلاء انهم كانوا يقدرون ان ذلك اقرب الـــى الفلسفـــة والتفلسف ، وكأن الفلسفـــة عندهم لا يصح ان تكون مـــن بيـــن المنابع التي تمـــد الادب بروافد جديد ةومن هنا يقررون صراحة ان هؤلاء الشعراء فلاسفـــة حكمـــاء وان الشاعر هو البحتري ،

وقد ظنوا ان جمـــال الديباجة ، ودقة العرض وروعة المنطـــــق . وسطوة القول لا تجتمع والفلسفة ولا يأتلفان معا في انتاج ادبي متميز من اجل ذلك كله انشأ الفن القولي او البلاغة العربية تتجه الى الصورة اللغوية وعلاقتها بالفكرة . ويمثل هذا الاتجاه ـ في صدر هذه الفترة عبد القاهر الجرجاني في كتابيه اسرار البلاغة ودلائل الاعجاز .

وقد استطاع عبد القاهر في كتابه الدلائل ان يضع ايدينا على نظرية متكاملة في النظم لم يتح لاحد من قبله ان يتناولها بهذه الصورة الواضحة ، وبهذه الافاضة المفصلة ،

ويرى الدكتور شوقي صنيف ان هذه المحاولة قد سبقه اليها القاضي عبد الجبار في كتابه المغني وبخاصة في الجزء الذي افرده للحديث عن اعجاز القرآن والحق ان ما عرض له عبد الجبار لا يصل في دقته وادبيته الى المستوى الذي وصل اليه عبد القاهر فان النزعة الكلامية والاسلوب الجدلي كانا يسيطران على القاضي عبد الجبار سيطرة يذهب معها الاحساس باللغة وطاقاتها في التعبير والبيان ، الى جانب انه عرض للاعجاز على انه جزء من العقيدة الدينية ، اما عبد القاهر فانه عرض له على انه قضية من قضايا الفن واصل من اصوله الرفيعة التي يسمو بها على بقية الفنون مهما تعددت الوانها وتباينت ظلالها ،

والجديد عن عبد القاهر انه نظر الى اللغة نظرة احاطة فلم يقصر نشاطه على جانب من جوانبها دون الاخر وانما نظر اليها على انها كل لا يمكن فصل جزء منه عن الاخر •

وقدر الرجل في حديثه عامل التطور في حياة اللغة موصولة بحياة المجتمع العربي ، واخص ما يعرض له من ظواهر هذا التطور رأيه في الفصاحة وانها لا ترتبط باللفظ ولا تدور في مجال الصناعة اللفظية وانما ترتبط بالمعنى والنظم معا فقد يكون اللفظ غير العربي فصيحا في نظم الكلام ومؤديا للغرض على احسن وجه وابينه ، وقد يكون لجرس حروفه وائتلاف نغمه وترادف رنينه اثر اقوى من اللفظ العربي الاصيل ،

ويكاد عبد القاهر كما قلت يعرض اصول نظرية النظم عرضا مفصلا وان لم يلتزم الترتيب المنطقي فيعرض لجزئيات هذه النظرية في تساوق ونظام ثم ينتهي الى رسم الاطار العام لها •

ويظهر مـن صنيعه انه كان يقدر ان تلك هي المحاولة الاولى وان الزمن كفيل بأن يهيء لها من الافراد الخالفين مـن يكمل القول فيها على اساس مـن ذلك الترتيب الذي اشرنا اليه جملة •

على اية حال : اللغة عند عبد القاهر ـ هي ذلك البيان الذي يمتاز به الانسان عـن غيره مـن سائر المخلوقات كما في قوله تعالى الرحمن خلق الانسان علمه البيان ، على عكس ما فهم الدكتور شوقي صنيف من هذه الاية وهو ان المراد بها البيان في صورته الاخيرة بما هو تفنن في التعبير وبراعة في النظم ، وقدرة على الخلق الادبي المتميز ،

وقد وصل عبد القاهر بين الاعجاز وبين النظم مؤكدا انه لا يتم في الكلمة المفردة وانما في ذلك في المجموع الذي يسمى بالنظم اذ يقـول :

ان الاعجاز ينبغي ان يكون وصفا قد تجدد بالقرآن وامرا لم يوجد في غيره ولم يعرف قبل نزوله واذا كان ذلك فقد وجب ان يعلم انه لا يجوز ان يكون في الكلمة المفردة لانتقدير كونه فيها يؤدي الى المحال وهو ان تكون الالفاظ المفردة التي هي اوضاع اللغة قد جددت في حذاقة حروفها واصواتها اوصاف لـم تكن لتكون تلك الاوصاف فيها قبل نزول القـرآن ـ

فالرجل اذن يرى ان الاعجاز ــ في الاسلوب والنظم بشقيه اللفظة والفكرة ــ بعد التركيب ، وهنا يؤكد عبد القاهر ان النظم في عامة امره وخاصه يرتكز على دعائم ثلاث :

١) اللفظة المفردة التي هي اللبنة الاولى في بناء العمل الفني القولي ،
٢) المعنى النحوي الذي تدل عليه هذه الالفاظ بتضامها ، وتساوقها
٣) المعنى الثاني او معنى المعنى وبين هذه الدعائم الثلاث ــ يكون عمل النحو بما هو ضابط لجميع انواع العلاقات بين هذه الالفاظ وهو المبين عن الفكرة التي يراد اداؤها على هذه الصورة ... وعبد القاهر يرى ان البراعة التي تحقق لصاحب العمل الادبي الامتياز عن سواه من صناع الادب انما تكون في المعاني الثانية ،

وقد استطاع ان يكشف عن القوالب التي تصاغ فيها هذه المعاني ، بالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز .. وقد افرد كتابه اسرار البلاغة لتفصيل القول في هذه القوالب ، واذا كان عبد القاهر قد انفرد من بين سائر البلاغيين بجمع الاشتات المتفرقة لنظرية النظم مبتدأة بالجاحظ ومنتهية اليه فانه قد استطاع ايضا ان يكشف عن الفنية الدقيقة في بناء الاستعارة ومن رأيه ان الاستعارات قد لا يمكن ان تحل الى التشبيه وانما ينبغي ان يحسها الاديب او الناقد وان يرى ما فيها من الحس والدقة والاصالة ،

وقد عرض لبعض الشواهد التي لا يمكن حلها منها قول زهير بن ابي سامى في قوله ، وعرى افراس الصبا ورواحله ومنها ايضا قول لبيد اذ اصبحت بيد الشمال زمامها

ولا ريب في ان تقرير عبدالقاهر لهذا الملحظ كان له اثره فيما بعد ، في حركات التجديد البلاغية في العصر الحديث والتي نعرض لها بعد قليل ،

كما ان عبد القاهر قد لفت في كتابه هذا الى عملية النقل واقصد بها نقل اللفظ من معنى الى اخر حسبما يقتضيه العمل الادبي وتعين عليه القدرة الفنية التي يستمتع بها صاحب ذاك العمل •

ـ ومن هذه العملية ـ يدخل الخطأ على الاديب فقد لا تسعفه الرؤية البصيرة فينقل وهو لا يدري انه جنى على عمله جناية اسفت به ومن هنا نرى عبد القاهر يصنع الاساس للنقل فيقول ما خلاصته ان النقل على جزئين ، نقل يراعي فيه التشبيه ، ونقل لا يراعي فيه ذاك التشبيه والاول تقوم عليه الاستعارة والثاني ينهض عليه المجاز فاذا قلت مثلا رأيت اسدا يصول ويجول في ميدان الحرب فان النقل هنا يقوم على التشبيه ذلك اني نقلت الاسد وهو اللفظ الدال على خصائص يتميز بها ذلك الضرب من الحيوان الى اطلاقه على الفارس او الرجل الشجاع الذي انفرد بخصائص تميزه عن غيره من افراد النوع •

وعملية النقل في الاستعارة انما تعتمد على حسن اختيار الاديب ودقة ذوقه ، ونفاذ ادراكه للطبائع والخصائص التي تمتاز بها الأشياء المحسوسة او المدركة بطريق العقل ،

اما النقل في اللغة ـ فانه عملية تاريخية ترتبط اساسا بالاستعمال اللغوي ـ عند اصحاب الانتاج الادبي المتميز وهي خاضعة اساسا للرقي

العقلـي والذوقى الذي يصيبه المجتمع المستعمل لهذه اللفظة والمتصرف فيــها ، والقاضي على هذا التصرف كما اشرت مــن قبل ،

ومما هو بسبيــل مــن عمليــة النقل في اللغة او في الالفاظ فكرة الغرابة وهو اصطلاح طالما جرى على السنة اصحاب النقد وهم لا يكادون يتفقــون فيــه على معنى واحد فتارة يطلقونها بمعنى الوحشــي مــن الالفاظ غيــر المأنوس وتارة يريدون بها ما كان بعيد الدلالة عن المستوى العام الذي يقاس به الانتاج الادبي .

وعلى اية حال فالحكم بالغرابة على بعض الالفاظ وبالالف والايناس على بعضها الاخــر ، انما يرتبط بالقاموس اللغوي الذي يعيش في كــل عصر ذلك لان لكل عصر قاموسا يخصه ، ويعيش على السنة اهله ، ومــا كان خارجا عــن نطاق هذا القاموس اضحى غريبا غير مألوف ولا منقاد لاهلـــه ،

وبهذا التناول الدقيق لنظريــة النظم موصولة الاسباب باللغة مــن جهاتهــا المختلفــة اعتبــر عبد القاهر واضع علم البلاغة والمؤسس لهــا ويظهــر ان هذا الاعتبار مرده فيمــا نعتقــد الى ان عبد القاهر كان اول من وضع نظريــة متكاملة في البلاغة اما مــن سواه من السابقين عليه فلم تكــن بحوثهم فيها غير جزئيات مشتتة لا يكاد تؤلف بينها نظام ولا تصل بين اجزائها وحدة بلغت مــن الدقة والاصالة ما بلغته عند عبد القاهر .

ولقــد كان لعمــله هذا اثره فيمــن جاء بعده ممن تصدوا للدرس البلاغي في صورة محددة بينة نظامها التقسيــم والتحديد ، وجماعها المنطق

في الترتيب والتبويب ، وخصائصها المناقشة العقلية لكثير مما وصل اليه عبد القاهر .

وكان على رأس هؤلاء جميعا السكاكي وقد ترك كتابه المعروف بالمفتاح تحدث فيه عن النحو والصرف باعتبارهما الاداتين اللتين يصح بهما الاسلوب ويضعان الموازين الدقيقة للحكم على هذه الصحة .

ثم قسم علوم البلاغة الى اقسامها الثلاثة ، المعاني والبيان والبديع ، وعرف المعاني بانه العلم الذي تعرف به مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته ، كما عرف البيان بانه العلم الذي يعرف به ايراد المعنى الواحد بطرق مختلف والبديع بانه العلم الذي يعرف به وجوه تحسين الكلام .

وبذلك فصل الرجل بين بحوث هذه العلوم ، بهذه التعريفات وبدأ بالكلام عن المعاني لانه العلم الذي يرسى اصول التصرف في بناء الجملة العربية من مسند ومسند اليه وتقديم وتأخير ، وخبر وانشاء ، وقصر وفصل ووصل ، واطناب وايجاز ومساواة وكان عمل السكاكي في كتابه الاساس الذي نهضت عليه الكتب المتأخرة حتى هذا القرن الذي نعيش فيه .

ولا ضرورة عندنا في ان نستقصي الكلام في هذه الكتب وانما نكتفي بايرادها دون تحليل لعملها ، وكشف عن طبيعة صنيعها ، فانها لم تعد غير التفصيل تارة ، او الايجاز تارة اخرى ،

غير ان اهم هذه الكتب كان التلخيص ثم الايضاح وكلاهما للخطيب القزويني

ركود الحركة الادبيـة واثرهما في تجميـد الدرس البلاغي :

في هذه العصور السابع والثامـن وما تلاهما كانت الحركة الادبية اخذت طريقها هي الاخـرى الى الجمـود ، فلا ابداع في صورة فنية ، ولا اختراع في معنى وانمـا كانت الصناعة هي اساس الاختراع والابداع عندهم ، ، ولا شيء ارحب مجالا ـ في التصنيـع ـ من البديع ومن هنا اسرفالقوم في تشقيـق الكلام فيه واختراع الصور المتعددة له حتى بلغ بها بعضهم الى ما فوق المائة كمـا صنع ابـن ابي الاصمع وابن حجه الحمـوي •

ويظهـر ان الحيـاة المادية يومئذ كان يداخلها التصنيـع وكثـرة الوشي ، ومختلف الحلى فالمساجد يومئذ ـ وهي مظهـر مـن مظاهر هذا التصنيـع كان التعقيـد بدأ يأخذ طريقه الى ما يجللها مـن انواع الوشى المختلفة ويبدو ان النقاد انشأوا هم الاخرون يشاركون في اختراع الاضرب المختلفة والانماط المتعددة لهذا الوشي في الفـن القولي على نحو ما نجده في كتاب ابـن ابي الاصبع وابـن حجه ،

اما الدراسات البلاغيـة الاخـرى المعنيـة بالجملة وبنائها فانها بدأت تنمـو في بيئة الفقهـاء المفسرين ويظهر ان المفسرين منذ اقـدم العصور الاسلاميـة كانوا يحاولون ان يستفيدوا مـن الدرس البلاغي في كشف طاقات النص المختلفـة كي يقدموا للفقهاء والمشرعين ملاحظ جديدة يمكـن ان تتسع بها افاق العمل التشريعي عندهم ولقد كان مـن اوائل الذيـن نهضوا بهذا التطبيق في صورة خاليـة مـن الصنعة ابن

جرير الصيري في تفسيره جامع البيان ، فانا نجد الرجل في كثير من الايات التي تعرض الوانا مـن التشريع يحاول جهده ان يستفيـد من هـذه الدراسات متجها الى الجملة المعبرة وما قد يكون فيها من دلالات تعين المفسر وتسدد خطاه ، وتنيـر له السبيل الى فهم ادق وافق ارحب •

ويظهـر ان عمـليـة التطبيق من جانب المفسرين قد كان لهـا اثارها فيما نقدر في نمو علم الاصول واتساع مذاهب القول فيه حتـى انا نرى رجلا كابـن السبكي في اول كتابه عروس الافراح يؤكد هـذا المعنى بل ويقرر صراحة ان علم الاصول بمـا انتهى اليه امره حتى عصره مجمـوع متكامل من دراسات متعددة اخصها علم المعاني ، عند البلاغيين والمنطق عند اصحابه المناطقة •

فلقد عاشت البلاغة تطبيقا لفروعها المختلفـة عند المفسرين ومنـهم مـن استغلها تأييدا لمذهبه ودعمـا لارائه كما صنع الزمخشري ومنـهم مـن حاول ان يكشف عـن ظواهرها المختلفـة في النص القرآني وان كانت الاليـة في التطبيق بلغت عنده شأوا بعيدا كأبي حيان في البحـر المحيـط فيقول مثلا وفي الاية مـن البلاغة جناس مطابقة وتقديم وتأخير دون ان يشيـر الى اثار هذه الانواع في المعنى العام الذي تدل عليه الاية او في علاقتها بسالفتها او لاحقتها مـن الايات •

ولا شك ان التطبيق للبلاغة بهذه الصورة عند ابي حيان يدل على ان العمـل البلاغي كان يمارس تطبيقا بهذه الصورة الجامدة كما كـان يمـارس فنا قوليـا وزخرفا لافتا ـ في الانتاج الادبي بعامه ويظهـر

ذلك واضحا في انتاج الشعراء في هذا العصر فقلما تسلم قصيدة من تكلف مثل هذه الانواع البديعيــة حتى تحول الانتاج الفني بعامة الى انواع من الزخرف المؤدي احيانا الى الاضطراب والخداع الفني ٠

هكذا انتهى الدرس البلاغي في هذه البيئات قائما علــــى التقسيم والتحديــد والتطبيــق الالي غيــر ان المجددين مــن الفقهاء في كـــل عصر حاولوا ان يستغلوا قواعد هذا العلم في توسيـــع افـــاق النص والاستنباط منــه ومنهم مــن تصدى الى نقد كثير من جزئياته فمــن اولئك ابــن القيم فقد سمي المجاز (الطاغوث) وعرض لاخطار التوسع فيــه في كثير مــن الايات التي تتعرض لرسم العقيــدة وبيان حدودها وابعادها ، ولفت الى ان تطبيقه بهذه الصورة المترخصة بفتح ابوابـــا مــن الفتنــة على هذه العقيدة ، ولم يكــن ابــن القيم في هجومه على المجاز بهذا القدر سوى مقرر لمبدأ هام في القول بالتجوز ــ وهو الرجوع الى طريقة اللغة في هذا التجــوز موصولا بتدرج حياة اللغــة على السنة العارفيــن بها المدركيــن لنواميسها ، وظل الامر كذلك حتى ظهر ابــن الاثير في المثل السائر وكنا نأمل ان نجد عنده جديدا يمكــن ان يضاف الى ما ترك الاقدمون وبخاصة عبد القاهر برغم ما يدعيه في كتابه مــــن دعاوى جرئيــه مــن انه وصل الى هذا الملحظ او ذاك ولم يسبقه اليــه احد ، ولكننا لا نكاد نظفــر عنده بجديد سوى ما يسوقه من الرسائـــل التي كتبها والتي يعدها القمــة العاليــة للفــن القولي ، غغير ان صنيــع الرجل يحدد لنا مفهوم البلاغة عند الكتاب في الديوان ووسائل احتيــاز هذا الفــن لديهم ولذلك نراه يستهل كلامه بالحديث عــن البيان ومــا

يلزم صناعة الادب من الات وهو يردها الى ثمانية انواع وهي العلم بالنحو واللغة وامثال العرب • وما كتبه البلاغيون من قبل والاحكام السلطانية وحفظ القران والتدريب على الاقتباس ، وحفظ الحديث والتمرين على استخدامه في تضاعيف الكلام والعروصة والقوافي •

البلاغة في العصر الحديث وموقف النقاد منها لا نستطيع ان تتبين موقف هذا العصر من التراث البلاغي ما لم نحدد معالم هذا العصر ومظاهر الصراع الثقافي الذي عاش فيه والذي ادى الى انقسام المجتمع الى معسكرين احدهما ينصر القديم ويداقع عنه ويحاول ان يرد كل جديد اليه والثاني يحاول ان يلفت الناس الى الجديد فيعنوا به ويحرصوا عليه ويأخذوا باسبابه حتى يتطور لديهم الخلق الادبي تطورا اخر • يساير ذاك التقدم الذي احرزته الانسانية في مختلف الفنون وشتى المعارف •••

والواقع ان العصر الحديث في تاريخ الادب والنقد يمثل هزة اخرى في حياة المجتمع العربي نقلته من جمود الى حركة ومن تقليد الى ابداع ، ومن محافظة الى تجدد متحرر ،

وهذه الفترة شبيهة الاثر ببداية العصر العباسي وما كان لها من اثر في تحول سريع في حياة ذاك المجتمع فاذا كانت حركة الترجمة هنالك نقلت المجتمع نقلة اخرى في الفن وفي الفلسفة وفهم التاريخ وتفسير احداثه ، بل وفي التشريع نفسه فدفعت باصحابه الى ان يكونوا اوسع افقا واعمق نظرا وادق ادراكا لطبيعة العوامل والدوافع المسيرة

للحيــاة الاسلاميــة بما اصابت من تغير في جميع جوانبها اذا كان كل اولئك في العصر العباسي الاول فقد كان مثله في العصر الحديث •

فقد كان لاستعمــار اوروبا للشرق الاوسط بعد ان انتهت الخلافة العثمانيــة اثره في ان وصل المجتمع العربي بثقافات جديدة وحضارات اخــرى ، بالرغم مــن ان هذا الاستعمــار كانت له مساوىء في اضعاف الكيان السياسي واستغلال طاقات هذه الشعوب المادية لخيره وصالحه ، وما يزال يحوك مــن المؤتمرات ما لا يسهو عنه احد •

وقد صاحب ذلك كله التفكيــر في انشاء اول جامعة في الشرق وهي الجامعــة المصريــة القديمة ، تعنى بتراثنا العربي وتحي ما اندثر مــن اثاره ، وتدفع بالقوم الى الثقة به والايمــان بما ادى للانسانيــة مــع نفع على اختــلاف العصور ، ثم هي الى ذلك تحاول ان تنظم الانتفــاع بالحضارة الاوروبية التي وفدت مع الاستعمار ، واخذ بها بعض القــوم يومئــــذ •

ولقد كان مــن اثر انشاء هذه الجامعة ــ ان فكرة الاكاديميــة في الدراسة والبحث انشأت تأخذ طريقها الى الدارسين ولا شك ان اهم مــا تعتــمد عليــه هذه الاكاديميــة ــ « المنهجيــة»

والمنهجيــة التاريخيــة تعتمــد على امريــن اولهمــا تحقيــق النصوص تحقيقا علميــا محررا ثم محاولة تفسير التاريخ تفسيرا دقيقا من خلال هذه النصوص بعد ترتيبها ترتيبا تاريخا يدل على مدى التطور الذي الم بالحيــاة العربيــة وكان المستشرقون الذين وفدوا الــى مصر

يخططون الحيـاة الجامعية تخطيطا يساير التطور الاوروبي وكان اول من لفت الى هذه المنهجية وطبقها أمثال سانت هيلانه جويدي وغيرهما ، ثـم جاء على اثرهمـا طه حسيـن • فاتخذ التطور اساسا لدراسة الظواهر الفنيـة والعلميـة ووضع في ذلك كتابيـن اولهمـا في الشعر الجاهلي والثاني في الادب الجاهلي وقد احدث اولهمـا ضجة كبيرة في الاوساط العليمـة بيـن متعصب له ومتعصب عليه •

والواقع ان الذي مهد تماما لظهور مثل هذه النقلة الاستاذ الامام محمـد عبده فقد احس الرجل ان الجمـود يكاد يخنق المجتمع العربي فلا حركة فيـه تدل على حياته ، وتؤذن بخير يرتقب منه ولا نشاط لـه في التبصيـر بتاريخه ، وبعث الصالح مـن اثاره وتجديد النظر فيه ، ويظهـر ان الرجل قدر فيمـا قدر ان اثار الجمود لا تظهر الا مـن خلال معنويات الشعوب واخصها ما يتصل بفنها ، واحب الفنون عنـد العـرب يومئذ وآثرها لديهم الفـن القولي ــ وقد رأيتفيما سبق ــ ان البلاغة كانت تطبق تطبيقا اليا بهذه المصطلحات التي شاعت على السنة اصحابها يومئذ ، وان النظرة الواعيـة والرؤية الدقيقة لجوهر النص لم تكـن قائمة بيـن النقاد ومـن هنا احس محمـد عبده ان لا قيام لهذا المجتمـع الا بترقية ذوقه ، وتصقيـة احساسه ، فنشط يومئذ الى احياء الدرس البلاغي بعيـدا عـن السكاكي واضرابه مـمن حولوا هـذا الدرس الى رياضة عقليـة واتجه الى عبد القاهر في كتابه دلائل الاعجاز فتصدى لدرسه في الازهر بعد ان يفرغ مـن عمـله الرسمي وهو الافتاء وتدافع الناس يومئذ الى الاستمـاع اليـه والاستفادة مما يبديه مـن ملاحظات على النص ،

وكان مـن اخص تلاميـذه واقربهم اليه محمـد رشيـد رضـا فتولى نشر هذا الكتاب واثبت ما كتبه الشيخ بخطه على الكتاب وما وعاه في اثناء الاستمـاع اليـه وكان ذلك اول تجديد في حياة الدرس البلاغي في العصر الحديث ، وقد توالى فيمـا بعد بعث الاثار الصالحة ـ في الفن القولي بعيـدة عـن ذلك الجفاف الذي آل اليه امره حتى انا نجد تلميذا اخر له يأخذ مكانه في الازهـر فيعني ببيان ما عند عبد القاهر ـ مـن ملاحظ في النظم وهو الاستاذ علي عبد الرزاق ولهذا الرجل تاريخ يمكن ان نستدل منـه على اشياء فمـن معالم تاريخه انه اتجه الى الدراسـة في الازهـر وقد كان في وسعه ان يدرس في اوروبا لما امتازت به اسرته يومئذ مـن ثراء وجاه ، فلما تخرج في الازهر اشتغل بالقضاء فاكسبتـه هذه الوظيفة تجارب متعددة أرهفت حسه ووسعت افقه واصدقته الرؤية لكل ما يحيط به ويبدو ان صلة هذه الاسرة بمحمـد عبده كانت وثيقـة فانقطع الرجل اليـه يستمـع له ويأخذ عنه وظهرت اثار ذلك فيمـا حاوله بعد مـن عرض لنظرية النظم عند عبد القاهر فيـما كتبه من كتاب اسماه « الامالي » وقد استطاع على عبد الرزاق ان يضع ايدينا على اصول هذه النظريـة مـن واقع النصوص التي نقلها من مجموع كتب عبد القاهر ، فلم يكـن التجديد يومئذ غير احيـاء لتراث عربي خلا مـن عوامل الجمـود واسبابه ، وقد حاول بعد طه حسيـن في الجامعة ان يدرس هذا الكتاب على انه نص يمكـن ان يستفاد به في ترقية الاسلـوب وضبط اللسان ، ثم في ترقيـة الذوق الادبي مـن جهة منهج الرجل في تحليـل النص تحليـلا يعتـمد على البصر باللغـة وادراك دقائقها .

في الوقت الذي ظهـرت اثار الاتصال بالثقافات الاجنبيـة بدأت تنشط حركات ناقدة تتناول جانبيـن :

١) الجانب الاول الخاص بالقصيدة العربية ونظامها ، والثورة علـى عمـود الشعور ، ثم وحدة القصيـدة ، والوزن الشعري بهذه البحور الستة عشر ، وقد تزعم الدعوة الى التجديد في هذه الناحية ،ثلاثة هـم شكري والعقاد والمازني ، وكل مـن اولئك كان يقول الشعر ويحاول ان يضع النمـاذج التي تتوافر فيها الاصول التي يدعو اليها وقـد اتخـذ موضوع التطبيـق لهذا النقد الشاعر احمد شوقي اذ كان يومئذ يمثـل القمـة التي انتهى اليهـا الشعر التقليدي في وزنه وقافيته وموضوعاته ، وكان العقاد يومئذ اشد النقاد عنقا واقساهم حكمـا ، وابعدهم عن صدق النيـة ، فيمـا يكتب وقد ظهرت اثاره واضحة في كتابه شعـراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ثم حاول طه حسيـن ان يكون ذلك الصراع حول شعـر شوقي او بعبارة ادق حول الشعر التقليدي بجميع خصائصه ومقوماته في الجامعة فحاضر فيها عـن الشعر في العصر الحديث وبخاصة عنـد شوقي وحافظ وكتب في ذلك كتابا مستقلا ، اما الجانب الثانـي فيتمثل في وحدة العمل الادبي ويظهـر ان فكرة الوحدة التي ينبغـي ان تكون صلب العمل الفني هي التي اوحت بنقد البلاغة العربيـة ودفعت كثيرا مـن النقاد الى مهاجمتها فنرى مثلا جبر ضومط يحاول ان يضع في كتابه اسس التجديد في هذا الميدان ، ثم سلامة موسى يدعو الـى محاولة اخرى بينها وبين دعوى جبر ضومط وشائج قوية ، وتكاد تتبلور هذه الاتجاهات فيمـا كتب جبران خليل وجبران ولكن اسس النقد عند

هؤلاء الناقدين لم تضح تماما ولم تتحدد في صورة بينة الملامح سوى انهم يدعون الى التطور ويؤمنون به ، وان البلاغة يجب ان تعيش في هذا التطور وتتأثر به حجتهم في ذلك ان الفنون الادبية كلها قد تطورت ، وان الجمود على فن منها انكار لواقع حياة ، او تخلف عن ملاحقة التطور وقد كتب الاستاذ الشيخ عبد العزيز البشري جملة مقالات عن تطوير البلاغة العربية وكان اعدل هؤلاء الدعاة الى التطوير واقربهم الى الصواب منهجا وهي نفس الدعوى التي جهر بها الاستاذ امين الخولي في الجامعة اذ كان يلقي محاضرات عن علم الجمال ومن خلال هذه المحاضرات يدعو الى تجديد الدرس البلاغي .

وقد ترك الرجل في هذا التجديد واسبابه وصوره كتابا مستقلا اسماه فن القول وكان اول قضية صدر بها محاولاته للتجديد هي : « ان اولى خطوات التجديد قتل القديم بحثا » والقصد عنده من هذه القضية تقدير ان دعاة هذا التجديد يجهلون كثيرا مما كتب القدماء ومن هنا عرض الرجل اولا لارهاصات التجديد عند القدماء فكتب جملة مقالات عن الصلة بين البلاغة وعلم النفس ، والصلة بين البلاغة والفلسفة ،

وفي هذه المقالات عرض للخيال والتخيل وهو ما يتحدث عنه البلاغيون في باب الفصل والوصول حين يعرضون لفكرة الجامع من وهمي وخيالي وعقلي وان التفريق بين هذه الامور الثلاثة يحتاج الى دراسة نفسية وخبرة دقيقة باحوال النفس البشرية ومدى استعدادها للرقي بالفنون المختلفة واستجابتها لها ،

ومن هنا اكد الرجل ان دراسة البلاغة ينبغي ان تنهض على اسس

نفسية ذلك ان المستقبل للادب عند قراءة الادب او ممارسته فننا يشارك في انتاجه انما يتهيأ نفسيا سواء اكان مستقبلا ام منتجا ،والنقد الذي مارسه البلاغيون احسوا فيه هذا المعنى احساسا واضحا وان لم يبلوروه في كتاباتهم لان الدراسات النفسية يومئذ لم يكن قد بلغت من الرقي والتعقد ما بلغته في هذه الايام بعد ان اتسعت المعرفة بالنفس وزادت الخبرة بها وانشئت مختبرات ومعامل لهذه الدراسة وللقدماء في ذلك ملاحظات دقيقة تدل على اصل هذا الاتجاه في الدرس البلاغي وقد عرض لكثير من هذه الملاحظات الجاحظ في البيان والتبيين وعلى اساس من هذه اللفتات عند القدماء اقام الرجل منهجه في التجديد .

فلا فرق عنده بين الفصاحة والبلاغة بل هما يؤديان وظيفة واحدة قوامها اداء الفكرة في صورة متفننة ثم انتقل الى تعاريف القدماء لعلوم البلاغة الثلاثة .

فقال ان القدماء يعرفون علم المعاني بانه العلم الذي تعرف به مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته وان الحال هو الامر الداعي للمتكلم الى ايراد كلامه على نحو خاص وان المطابقة ينبغي ان تتم على اساس من رعاية هذه الحال ثم عرض لكلامه عن اضرب الخبر ملائمة لحال المستقبل للكلام من جاهل او شاك او منكر مع تقديرهم لدرجات الافكار وما يقتضي من توكيد للجملة ،

وهذه كلها دراسات نفسية تحتاج الى خبرة دقيقة بحياة النفس البشرية ودرجات هذه الحياة الاجتماعية والثقافية ، وان التغاير في

تركيب الجملة من تقديم وتأخير يتبع هذه الدرجات ويعيش في جو مستشف لها ومدرك لطبيعتها ،

وان محاولة حصر هذه الدرجات من جانب البلاغيين القدماء فيما اوردوه انما يقتصر على عصرهم وقد تجددت الحياة ، وتشكلت في صور متعددة وتجدد الحياة وتشكلها يغير تماما من طبائع الناس ويعدل في أمزجتهم ويترتب على ذلك ان يتعدل العمل الفني وفق هذا التغيير حتى يجد من ينفعل به ، ويستجيب له ، ويتأثر بما يدعو اليه ... ثم انتقل الى القصر وهو تخصيص امر بأمر بأداه لفرص ومن ادواته ما يفيد القصر باصل وضع اللغة ومنه ما يفيده بطريقة الفحوى وهو تقديم ما حقه التأخير كتقديم المفعول على الفعل او الجار عن المجرور او الظرف ومثلوا له بقوله تعالى اياك نعبد واياك نستعين ، وقد اشار الرجل الى ان باب القصر لا يدخل اطلاقا في اطار العمل البلاغي لانه يرتبط اصلا باصل تأدية الفكرة دون اختيار من المعبر او صاحب العمل الفني او الادبي فاذا قلت مثلا ما محمد الا حاضر اختلف المعنى عند قولنا ما حاضر الا محمد ففي المثال الاول قصرنا الموصوف على الصفة وهو قصر اضافي لاستحالة ان يقصر محمد على الحضور دون غيره من الصفات التي تعرض للكائن الحي اما المثال الثاني فان فيه قصر الصفة على الموصوف .

وقد زاد الاصوليون على اسلوب القصر بطريقة الفحوى اساليب اخرى وصلوا اليها عن طريقة دراستهم للنص القرآني منها تعريف الطرفين مثل محمد الكريم وذلك الكتاب ومنها الايجاز في مقام

الاطناب ، كمـا انهم فرقوا بيـن التخصيص والحصر بالنظر الى المفهوم وقد ترك ابـن السبكي في ذلك رسالة مفردة اشار اليها السيوطـي في الاتقـان ونقل منها بعض الفقرات ،

ويرى الاستاذ الخولي ان هذا الباب كله يضاف الى النحو لانه به الصق على ان النحوين انفسهم يستعينون به في ضبط وجوب التقديم او التأخيـر بيـن المفعولات في قولهم ما ضرب محمـد الا زيدا وحيـن عرض لباب الفصل والوصل وهو اهم ابواب علم المعانـي ، رأى ان الاستغناء عنـه ممكـن بأن يعود الكتاب الى نظام الفصل بين الجمل بعـلامات الترقيـم ،

والواقع ان الاستاذ الخولي في دعوته الى الغاء هذا الباب والاجتزاء عنـه بعلامات الترقيـم انكر تماما امرا ذا خطر ـ في الخلق الادبي ـ ثم في عمليـة الفهم الذي يواجه قارىء الادب ذلك لان الفصل والوصل بهذا الاسلوب الذي عرض له القدماء يعيننا على تمثل اشيـاء لا معدى من تمثلهـا وهي :

١ ـ طبيعـة كل جمـلة ووظيفتها في العمل الادبي
٢ ـ مدى احساس منتج الادب بهذه الاشيـاء
٣ ـ من خلالها يستطيع ان ندرك العوامل التي اثـرت في حيـاة التركيـب الادبي .

وقد نقلنـا مـن قبل ما قاله بشار حيـن طلب اليه ان يزيد (الواو) في قصيدته المشهورة ويكاد الاستاذ الخولي يؤمن ان الفـن القولـي

ينحصر في علم البيان وان كان يدعو الى اقامة النظــر في ابوابه وبحوثــه على اسس اخرى غيــر تلك التي استقرأها القدماء ــ

وهو يرى ان المجاز العقلي ينبغي انيخلص مــن التأثر بالديــن في تقرير جزئياته والحكم عليها فلا يصح ان يقال مثلا في : انبت المطر الزرع ان ذلك مجاز عنــد الدينيين لان المنبت هو الله في الحقيقة وانما اسنــد الانبات الى المطر لان ذلك ظاهر مرأى العين وليس مجازا عند الطبيعين ، كما انه يرى ان فكــرة التشبيه وبناء الاستعارة على حذف احد طــرفي التشبيــه يحول العمــل الفني الى الية تحول بيــن المنتج وبين الاحساس بالفكــرة ، او الصدق الفنني في التعبير ، ويرى في المجاز انه قائم علــى الافاضــة فاذا قلت مثلا : امضي ليلته ساهرة فمعنى ذلك ان هذا المريض كأنه افاض على الليل ما يحسه مــن آلام السهــر حتى كان الليل شاركه فيــه فعاش مثل هذه التجربة القاسيــة التي يعيشها المرء في هذه الليلة ، كمــا يرى ان الاستعارة الاساس فيها التجسيم وكأن المستعار له بلغ من القــوه او الضعف بحيــث استحالت حقيقته الى كائن اخر اما البديــع فانه يرى انه نوع مــن الخداع الفني في اغلب مظاهره ، والعمل الفنــي ينبغــي ان يخلو مــن كل انواع هذا الخداع والاجانب أقوم اصل من اصوله وهو الصدق الفني في التعبيــر بحيــث يؤدي الى قارئــــه او سامعه الاحاسيس والانفعالات التي يعيش فيها صاحبه بعيدا عــــن التزاويــق والتلاويــن وهكذا نرى ان اساس دعوة الاستاذ الخولي الى التجديد يعتمــد على ثلاثة اصول :

١ ــ قتل القديم بحثا حتى يستفاد مما وصل اليه اصحابه مما ينشط

هذا التجديد وينفخ فيه ، ويجعله موصول الاسباب به ،

٢ ــ فكرة الاختيار والمفاضلة بيــن الاساليب ، وهي اساس ارتياد افاق جديدة وابداع متميز في العمل الفني اما ما لا اختيار فيه مما يتصل اساسا بحتميــة التركيب اللغوي فانه ينبغي ان يضاف الى النحو فيصبح بابا مــن ابوابــه •

٣ ــ الوصل بين الظواهر الفنية واحساس الاديب بها ، ومدى صدقه في عملية الوصل هذه وما كاد الأستاذ الخولي يجهر بهذه الدعوة الــى التجديد ويحاضر بها في الجامعة ، ويبسطها في محاضرات عامة حتى انبرى له الاستاذ احمــد حســن الزيات في مجمــوعة مقالات كان ينشرها في مجلة الرسالة وقد اتخذ منهــا جانب الهجوم فتعــرض لامور شخصيه وسلوكــية نمسك بالقلم عن ايرادها • وبذلك حول الدرس البلاغي الى مناظرات كلاميــة على نحو ما كان يصنع المتكلمون في مناظراتهم •

كان ذلك مدارج حياة البلاغة العربية في العصور المختلفة وبقي ان نتحدث عن

مفهوم النقد في العصر الحديث :

تحدثنــا في الفصول السابقة عــن نشأة البيان العربي وتطوره في البيئة الاسلاميــة وعرضنــا الى المؤثرات والعوامل التي وجهته وانتهينا هنــالك الى ان هذا البيــان قد انتهى الى نظرية النظم التي حدد معالمها عبد القاهر الجرجاني وبذلك عد هذا الرجل اول مــن وضع اصول علــم البلاغة العربيــة بكتابيه اسرار البلاغة ودلائل الاعجاز ، كمــا اشرنا ايضا الى اثر التطور في حياة هذه البلاغة ، ذلك التطور الذي احالها الى قواعد ترتكز على التقسيم والتعريف دون نظر الى العمل الادبي كله وبذلــك وقفت البلاغة العربيــة عنــد حدود الجمــلة •

غير ان ضعف الملكات الادبيـة واتجاه المجتمع الاسلامي الى العلم بذلك التقسيـم الذي عرض له ابـن خلدون في المقدمة مـن فقه واصول وتفسير وحديث ومحاولة تقنين هذه العلوم وتقعيدها .

ثم ارتباط التشريع الاسلامي عند اولئك المتأخريـن باللفظـة والجمـلة ــ جعل هذه البلاغة تخدم اغراضا خاصة واهدافا معينة اهمها تحقيق القول في الاعجاز ــ مـن خلال تفسيـر القرآن ــ بتطبيـق هذه القواعد عليـه ثم تجديد الاستنباط الفقهي بالنظر ــ عن طريق هذه القواعـد ــ في النص القرآني واستغلال طاقاته المتعددة استغلالا يدور في نطـاق الجمـلة ــ وفي حدودها .

ولم يلق رواجا مـن بيـن علوم البلاغة سوى البديع الذي اتسـع القـول فيـه اتساعا بعيـد المدى حتى وصل به بعضهم وهو ابـن ابي الاصبع الى ما يربي مائة نوع مـع ما اصاب تسمية هذه الانواع مـن اضطراب واختلاف نلحظه بالمقارنة بينه وبيـن غيره من اولئك البديعيين الذين سلكوا طريقه واتبعوا منهجه ، ومع ما كان يحدو اولئك المؤلفين فيه مـن تصنع لافت وتكلف بارز .

ونجد امثلة لهذا التكلف فيما يورده الثعالبي في يتيمة الدهر مـن نصوص ، وفيمـا تستشهد به كتب التاريخ والتراجم مـن شواهد ادبية تكشف عـن اتجاه المترجم له في الصناعة الادبيـة وظل الامر كذلك حتى خضع المجتمـع الاسلامي لحكم المماليـك فاصاب الفنون الادبيـة مـا اصابها مـن الجمـود ، مع غلبة العاميـة وشيوع اساليبها على السنـة الشعـراء مما ادى الى ظهـور فنون ادبية جديدة تعتمـد على ذلـك

الصراع الدائم بين الفصحى والعامية ومع احساس الادباء في هذه الفترة بان للعامية مكانها في التعبير عن الاحاسيس والانفعالات وما تسعف عليه من النكتة ، التي تزيد من طاقة السخرية اللاذعة والتهكم المزرى • من اجل ذلك شاعت الازجال واتخذت معارض للفكرة التي يراد اداؤها ثم ان الحروب التي دارت بين اولئك المماليك وبين الروم ساعدت على التمكين لهذه الازجال وامدادها بالمضمون الادبي والتاريخي مما ادى الى كثرتها كثرة غامرة وقد روى بدائع الزهور في وقائع الدهور كثيرا منها ومن اشهر اولئك الزجالين ابو الفرج الغباري ، كذلك روى طرفا منها السخاوى في الضوء اللامع لاهل القرن التاسع وهو احد مؤرخي هذه الفترة وتعمق الهوة بين الفصحى والعامية على يد الحكم التركي وتكاد الفنون الادبية تستحيل الى نوع من المساجلات الشعرية في البيت والبيتين والمقطعات الصغيرة وانواع المراثي التي قد لا تسعفك طاقة الاحتمال على الاستماع اليها والتصفح لها •

وتجري الحوادث سراعا وتبدأ بوادر التغير الاجتماعي الذي تتغير معه دائما النظرة الى اللغة ، والى الادب ثم الى القيم الاجتماعية التي تربط بين افراد المجتمع •

ولهذا التغير دائما اسباب وعوامل فاما اسبابه جملة فتغير نظام الحكم ثم اتصال الثقافة العربية بثقافات اخرى لها نشاط اخر • ومفاهيم خاصة ، وادراك بصير بطبيعة ذلك النشاط الذي تبذله ، ولتلك المفاهيم التي تتصل اساسا بتقييم الفكر ، وتعميق الثقافة ، ومحاولة الوصل بينها وبين المجتمع الانساني ، في تطوره الحضاري بعد ان اصاب هذا الفكر

ما اصابه نتيجة ظهور عصر النهضة ،واحياء التراث الانساني القديم ، وتقييمه على اسس جديدة اهمها يمثل التاريخ البشري تمثيلا لا يمكن ان نغفل معه ، اثاره في حاضر هذه الانسانية ، وثانيهما انه يعنينا على ان نحدد مكاننا من سلسلة التطور ومدارج التاريخ . وبذلك نبدأ في اداء الدور الذي ينبغي ان نؤديه في ترقية المجتمع . وقد تلا هذا العصر ذلك الغزو الاوروبي للبلاد العربية وكان ذلك اول احتكاك دائم بين هذه البلاد وبين اوروبة فكانت الحملة الفرنسية على قصرها بداية لفت العرب لهذا التطور الذي اصاب المجتمع الاوروبي سواء في العلم ام الفن ام السياسة ام الاقتصاد والاجتماع وتكاد تحس اثار هذا التطور ومظاهره في الحملة نفسها ومن الاقوال والنداءات التي كان يوجهها قوادها الى الاقاليم المفتوحة وقد روى طرفا منها الجبرتي في تاريخه فلقد عاصر هذه الحملة وشاهد كثيرا من وقائعها ووصفها وصفا دقيقا بل سجل دهشته لما رأى من الظواهر العلمية التي استبدت بعقله حتى جعلته يرى انها ظواهر سحرية ليس بينها وبين البحث العلمي سبب يمكن ادراكه او تعلقه . وقد قام كثير من العلماء الذين صاحبوا هذه الحملة بدراسة شاملة لمصر في كتاب اسموه « وصف مصر » باللغة الفرنسية كذلك استطاع احد علمائها وهو شامبليون ان يصل الى قراءة الرموز التي دونت على بعض الحجارة التاريخية وكان ذلك بداية التعرف المستمر على اصول الحضارة المصرية القديمة ونحن في حديثنا عن التطور الادبي والنقدي معا ينبغي ان نعني بهذا الكشف التاريخي ذلك لانه كان له اثره في الدعوة الى الاقليمية في اللغة والادب والتاريخ

وقد تعصب لها كثير مــن الساسة والمفكريــن يومئذ وقد اشار الباحث الدكتور محمــد حسيــن في كتابه الاتجاهات الوطنية في الادب الحديث الى هذه ابلدعوة وكشف عــن نوايا اصحابها واهدافهم ولفت الى اثارها يومئذ في تفريق المجتمــع العربي ثم الى خطرها في تهيئة الاذهان عنــد بعض التطوائف الي تعيش في هذا المجتمع زاعمة انها من بقايا اصول هذه الحضارة مــن حيــث النوعيــة البشرية كمــا كان لهذه الدعوة اثرهــا في بعــض الاتجاهات الادبيــة التي تؤرخ لها ٠

كذلك ادى تغير الحكــم في ظل الاثار المترتبة على هذه الحملة الى الاتصال بالغرب عــن طريق البعثات العلميــة وتبادل الاساتذة والمفكرين والى الاستفارة مــن خبرات التطور العلمي والفكري هنالك ولقد كان مــن اثر ذلك كله نشأة حركة الترجمة ثم التوسع في المترجمــات فلم تعد قاصرة على النشاط العلمي الخالص وانمــا اتجهت الى الادب في فروعــه المختلفــة واجناسه المتعددة ، وقد صحب ذلك كله العناية بدراسة اللغات الاوروبيــة في المدارس ثم في الجامعة القديمة والمدارس العليــا التــي سبقتها وقد تخرج فيها طلاب اتقنوا هذه اللغات فكانت لهم مشاركة قوية متفاعلــة مع حركة التطوير التي مرت بها حياة المجتمع العربي سواء في مصر ام في الشام ٠

وهمــا الاقليمان اللذان تعرضا لهذه الحمــلة ، وشهدا الــــوان الصراع الثقافي والسيــاسى ٠

كمــا ترتب على ذلك كله تغير النظرة الى الاقتصاد ووسائل توظيف المال وموقف الفرد مــن هذا التغيير والتطور وقد نتج عــن ذلك كلــه

مشكلات اقتصادية اساسيــة كان مــن اثارها ذلك التطور المعاصر الذي
تشهــده اليــوم في النظريات السياسية الاقتصادية التي توجه حياة الامم
وتدفعها الى ايجاد علاقات اقتصادية يمكــن عــن طريقها استثــمــار
الثروات المنظورة والمطمــورة في صورة شركات مساهمة او شركات تتخذ
لنفسها طابعا اخر يحميها مــن الاعتراض والثورات التي تقوم بها الشعوب
وقد استبدت هذه الشركات او المؤسسات بالاستفادة مــن هذه الثروات
بمــا يضمــن لاممها البقاء ويحميــها مــن سطوة الحاجة ويدفع عنــها
قسوة الانهيــار في مجال التنافس الدولي والمغالبة السياسيــة .

بهذا التغير وذلك التطور تأثرت الدراسات الادبية النقدية وكان من
ابرز مظاهــر هذا التغير ان النقاد فطنوا الى وظيفتهم في الحياة المعاصرة
فهم اولا طائفة مــن طوائف هذا المجتمع والمشاركة الاجتماعية الجادة
تفــرض عليهم اشيــاء اهمها ان تتسع افاقهم العقلية والفكرية والادبية
فمــن واجبهم ان لا يقصروا انفسهم على النظــرة الجزئية التي كانت
طابع الدراسات الادبيــة في العصور الماضية ومــن هنا شاع بينهم ذلك
القول المأثور ان الادب هو الاخذ مــن كل فن بطرف ، وعند ذلك اخذت
ثقافة الاديب في الاتساع والتنوع ، والاتصال الناقد بالاثار الادبيــــة
والفكريــة على اختــلاف الوانها وتعدد صورها واشكالها ، واذا كان
لا بد مــن التصفح للاثار الادبيــة السابقة فليس الا لانها تبصر الاديب
بالحقائق اللغوية التي تكفل للاسلوب الدقة في الأداء والصحة في الاستعمال
ولم يعد لها تلك المكانة في تربيــة الذوق الناقد والاحساس الواعي به
الا مــن حيــث الاطلاع على طبيعة التغير في المضمون الذي كان مــن

بيـن عوامله ذلك السيـر التاريخي الطويـل وما تم فيه مـن اتصال بحضارات واحتكاك بثقافات .

يقول الناقد الامريكي « اليوت » اننا لا نستطيع ان نقيم هــذا الحاضر الذي نعيش فيـه ما لم ندرك سيـر حياة الماضي ودوافع حياته ، ومقومات وجوده .

نشأة النقد الحديث :

قد رأينا مـن قيل طبيعة الارض التي نشأ عليها هذا النقد والاسباب التي احتفت بهذه النشأة فمـا هو هذا النقد وما هي وجوه الاختلاف بينه وبيـن النقد العربي القديم الذي ورثنتا اياه تلك الاجيال السابقة ؟

لـن نعرض بالقول المفصل عـن معنى كلمة النقد في العربية وانها اصلا مشتقـة من المعنى المادي الخاص بنقد الدراهم والدنانيـر لبيـان الزائف منها والصحيح، فان هذا المعنى المادي نفسه يرتبط بتطور حضاري لا معدي مـن الاشارة اليه ذلك لان استعمـال الدرهم والدينار وصكهما انما يحدد فتـرة حضارية تركت فيها المجتمعات ذلك الطور البدائـي في تبادل المنافع وعقود البيع والشراء ، ووسائل الاتجار واسواقه فالنقـد الادبي اذن لا ينشأ الا في ظل حضارة وامتداد صناعة ، وتعقد علاقات ، وتعدد انماط خاصة بالحياة الاقتصادية وفي كتب التشريـع الاسلامي بحوث متعددة تكشف عن طبيعة هذا الطور الحضاري الملابس لهذا التعقد الاجتماعي والاقتصادي كما ان القران نفسه ينص علينا في بعض اياته انمـاطا مـن هذا التعقد وصورا مختلفة له ، وفي الاثار النبوية بيان شاف لهذه المظاهر وانواعها .

واذا كان النقد في اصل معناه اللغوي يرتبط بهذه المادیات النقدية ابتغاء تقييمها على نحوما فان النقد الادبي يتصل اساسا بماديات ادبية تلك التي عرفها المجتمع العربي ومن اهمها الشعر ثم النثر الفني وان كان هذا النثر قد تأخر وجوده الا اذا عددنا من بين ضروبه الخطابة وليس من وكدنا ان نقف عندها ولا عند الشعر فقد كان لكم فيهما تجربة ادبيـة طويلة نكتفي بماعرفتموه منها •

كل الذى يهمنا هنا هو التفرقة بين طبيعة هذا النقد قديما وطبيعته في هذه الفترة التي تؤرخ لها وقد رأينا ان اهم الفوارق بين هاتين الفترتين

١ ـ ان النقد القديم كان نقدا جزئيا يقف عند المعنى الواحد وفي اطار البيت او الفقرة وقد يتجاوز ذلك الى انواع من المقارنات بين جملة من الابيات التي وردت عرضا في بعض القصائد لشاعر ، وبين نظائرها في قصيدة لشاعر اخر ، ونجد مثلا لذلك في تلك المقارنات التي يعقدها ابن الاثير بين وصف الاسد عند المتنبي ، وبين ذاك الوصف عند البحترى ، وقد تجد في هذه المقارنات بعض الاشارات لتطور الصورة الادبية تبعا لما يصيب الشاعر من ثقافة وما يتحقق له من عمق التجربة فان المتنبي حاول ان يكشف عن طبيعة الاسد في غروره واعجابه بنفسه واعتزازه بقوته ثم حاول ان يتعمق باطنه ويربط بين هذا الباطن وبين ذلك المصير الذي انتهت اليه حياته • وفي اثناء ذلك يعقد وجوها من المقارنة بينه وبين ممدوحه بدر بن عمار في قوله :

اسد يرى عضويـة فيـك كليهمـا

متنـا ازل وساعـدا مفـتولا

فتشابــه الخلقــان في اقدامـــه
وتخالفـــا في بذلـــك المأكـــولا

ولكن هذه المقارنات مهما يكن امرها لا تصل بنا الى مرحلة يمكن ان نجد فيها صورة لنظرية نقدية يمكن الاعتماد عليها في تقييم الاثار الادبية . حتى ان النقاد القدماء اشاروا عرضا في اثناء حديثهم عن النقد الى اصول كثيرة ما يزال النقد الحديث ياخذ بها ويعرض عليها واهمها :

مبدأ : نفى القدم والجدة وان كليهمـــا معنى نسبي لا يصح ان نربط به تقديرنا لتراث فترة معينة بل ان الاساس في التقييم هو الاثر الادبـــي نفسه وثانيهما مبدأ الانصاف في الحكم والتجرد من الذاتية المغرضة وهو المبدأ الذى فصل القول فيه عبد العزيز الجرجاني في مقدمة كتابه الوساطة.

اشار النقاد القدماء الى كثير من الاصول النقدية ولكنهم لم يلتزموها في ما اصدروا من احكام ، ومرد ذلك الى عدم تقديرهم لتطور المضمون الادبي بعد ان شابته الفلسفات التي اتصل بها المجتمع العربي .

كذلك من بين الفوارق بين النقد القديم والجديد عند العرب ان العرب قديما لم يعرفوا هذه الاجناس الادبيـــة التي عرفها العرب واقاموا دراستهم النقدية على هدى منها واستجابة لها وتقدير لوظيفتها في التعبير عن المجتمع ونزعاته وتصوير مذاهبه وارائه والكشف عن طاقاته المتعددة في هذه الاتجاهات كلها ، وما كاد النقاد العرب يتصلون بهذه الاجناس ويقدرون اثارها في تطوير حياتهم الاجتماعية والسياسية حتى طفقوا يغيرون من نظرتهم الى النقد الادبي واصوله .

والنقد الادبي الحديث ينبغي ان يصل بين الاديب وانتاجه على ضوء المفاهيم الاجتماعية والسياسية والدينية التي تقود حياته وتوجه نشاطه ومن هنا ظهرت تلك الدعاوى كدعوى الفن للفن والصدق الفني ثم الالتزام وعدم الالتزام وهي كلها دعاوى تحتاج الى دراسات مستقلة مستقصية للاثار الادبية موصولة الاسباب بمنتجيها .

والذي يهمنا من هذه الدعاوى كلها مبدأ الذاتية في الادب لانه الاساس الذى نهضت عليه كل هذه الدعاوى العريضة التي يثيرها النقاد من حين الى اخر .

والمعروف ان مبدأ الذاتية يتصل بفكرة الفردية في تفكيرها وسلوكها ونظرتها الى الحياة والى الفن بعامه وقد اختلف عليها النقاد قديما وحديثا ولقيت من تفكيرهم الشيء الكثير ولا حاجة بنا الى تتبع هذا الاختلاف ونشاطه في البيئات النقدية المختلفة غير انا نقرر ما ذهب اليه ولك في كتابه نظرية الادب وهو ان الاديب حتى في نزعاته الفردية لا يستطيع ان يفصل نفسه عن المجتمع الذي يعيش فيه بل ان ادبه صورة لبعض وجوه النشاط النوعية التي يمارسها بعض افراد ذلك المجتمع .

كذلك اثار النقاد العرب مبدأ اللفظ والمعنى او بعبارة اخرى مبدأ الصوت والمعنى وكانت لهم لفتاتهم الخاصة نلحظها واضحة في حديثهم عن البديع ومحسناته اللفظية والمعنوية فبرغم ان كثيرين من نقاد الادب ومؤرخيه المعاصرين لا يلتفتون الى اساس هذا التقييم وفلسفته واحساس البلاغيين العرب بأثر الصوت في الدلالة وفي التأثير الذي ينشده الأثـر

الادبي او الفني في القارىء والسامع معا ـ وبرغم موقف النقاد من هذه القضايا الاساسية فان النقاد الاوروبيين قد لفتوا اليها وكشفوا عـن دورها في الانتاج الادبي يقول (ولك) في كتابه نظرية الادب في الفصل الذى عقده عن الوزن والسجع والاتساق الصوتي ص ١٥٨ ما ترجمته « ان كل عمل ادبي هو قبل كل شيء مجموعة من الاصوات التي ينبثق عنها المعنى وفي بعض الاعمال الادبية تتضاءل اهمية هذه الصوتية ولكن برغم ذلك فان هذه الصوتية مهما كان حظها من الضآلة تسبق في وجودها « المعنى » وفي كثير من الفنون الادبية التي من بينها النثر تجذب الصوتية الانتباه وبذلك تشكل دورا متكاملا فيالتأثير الجمالي وتلك حقيقة نلحظها في النثر الفني وفي كل بيت من ابيات القصيدة وعند تحليلنا لهذه الاثار الصوتية فان علينا ان نضع في الاعتبار عاملين هامين غالبا ما تتجاهلهما او نجهلهما فانه ينبغي ان نفرق بين الاداء المنطوق وذلك النموذج الصوتي المكتوب ، فالقراءة بصوت عال تعد في الواقع نوعا من الاداء التمثيلي وهكذا نرى ان النقاد المحدثين يشيرون الى فكرة الصوتية وعلاقتها بالخلق الادبي ، ثم مكانها من العنصر الجمالي الذى يزدان به ذلك الانتاج وقد اشار النقاد العرب الى هذا المبدأ بل كتبوا فيه بحوثا مستقلة فكتاب سر صناعة الاعراب محاولة جادة للكشف عن الطاقة الصوتية للغة في الاداء والتأثير والموسيقية وان كان الرجل تناولها في صورة علمية جافة كما لم يحاول ان يطبقها على كثير من الاثار الادبية التي ترامت اليه ، على ايةحال اختلفت حياة النقد الادبي الحديث في الجمال الادبي العربي عنها في القديم ومرجع ذلك الى ظهور هذه الاجناس الادبية الجديدة كما قلنـــا .

ولا ضرورة بنا ان نعدد هذه الاجناس فان شهرتها تغني عن التكثر بايرادها كل الذي يهمنا ان نعرض لتاريخ بعض الفنون الادبية التي بينها وبين الاثار الادبية وشيجة ولو في التسمية لندرك الى اي حد انتهى هذا الفن عند العرب وما اصابه من تطور ثم نعرض الى الاصول النقدية التي نقلت الينا وانشأنا نقيم نقدنا لهذا الفن او ذاك على تأثر بها وتقدير لها

الفنون الادبية المعاصرة وموقف العرب منها :

لا نزاع في ان هذه الفنون او اغلبها امتداد لمثيلاتها التي عرفها اليونان وان اختلفت التسميات وتعدلت مناهج التناول للاحداث وتحليل الشخصيات التي تؤدي الحركة المسرحية في الادب التمثيلي ، وكل اولئك تكشف عنه الدراسا تالتاريخية لهذه الاجناس الادبية بالاضافة الى ما ظهر من المذاهب والاراء حول العمل الادبي وعلاقته بالفنون المختلفة ثم علاقته باللغة نفسها من ناحية الرمز او الزمن او الصوت كذلك تعدلت هذه المناهج بما ظهر من الفلسفات المختلفة المتصلة بتفسير الوجود والاجتماع وما اليهما والواقع ان هذه الدراسات التاريخية لا يمكن فصلها عن التيارات العامة للفكر في مجالاته المتعددة ما دام الفن الادبي كما يقول (ولك) صورة للمجتمع بما فيه من تقدم او تخلف واتساق وتناقض ، فالشعر لا يزال فنا ادبيا كذلك المسرحية ، والقصة بصورها المختلفة من طويلة وقصيرة لا تزال فنا ادبيا له قيمته وخطورته .

وتعد القصة اهم هذه الفنون في الادب المعاصر ومرجع اهميتها الى انهـا الفـن الذي يستطيـع اي قارىء ان يتذوقه وان يجد فيه المتعة التي ينشدها وقد تعينه على كثير مـن انواع التصورات التـي عـن طريقها يحل مشكلة يعانيها او صعوبة تعترض طريقه ، كما يستطيـع القارىء ان يجد فيهـا تصويرا دقيقا للمذاهب الاجتماعيـة والسياسية والاقتصاديـة التي توجه نشاط المجتمـع في مجالاته المتعددة بعيدة عن التعقـد العلمي والعرض الفلسفي الجاف الذي يحتاج الى دراسة عميقة ودقيقـة .

ولم يعرف العرب الفـن المسرحي الا في عصر متأخر وهنا يختلف تعليـل النقاد لهذا التأخر وخير تعليل فيما ارى ـ ان الفن المسرحي فـن معقد يحتاج الى وسائل اهمها القصة التي تصلح للتمثيل ولم تكـن قد وجدت ثم اعداد الممثل الناجح الذي يؤدي دوره ، وكل اولئك وسائل لم تتح للمجتمع العربي الا بعد ان خبـر الثقافة الاوروبية عن قرب وادرك في رؤية واضحة ـ اهداف العمل المسرحي وغاياته وعلاقة المسرحية بالمجتمـع ومشكلاته ثم تأثـر المضمـون الادبي في الغرب بهـذه النظريـات التي تؤلف نسجا عاما مـن التفكيـر .

القصة العربية ومراحل تطورها :

القصد اصلا مشتقة مـن الفعل قص ، وهو تتبع الاثر وقد لحظ القصاص هذا المعنى اذ كانت قصصهم تهدف الى هـذا التتبع وتقصى الاحداث التاريخية . ذات الدلالة الخاصة والتي يرادمن قصها اهداف معينة يهدف اليها القاص ، والمعروف ان للقصة بهذا المعنى صلة بالحكايـة

التي كان يقصد بها السمر ثم روايتها للناشئة الصغار حيث يجدون فيها نوعا من الامتاع الذي يرضى نزعاتهم الى البطولة ورغبتهم في تحصيل المجد والاخذ باسبابه وتطلعهم الى الوقوف على المسالك التي يسعون فيها ابتغاء ذلك التحصيل ، من هنا ارتبطت القصة بفكرة المغامرة او المخاطرة وهما السبيل دائما الى التغلب على ما يعترض المرء في طريق بلوغ الغاية من الصعاب وما يتكاءده من عقبات . وهكذا نشأت القصة عند العرب الاولين وسيلة من وسائل التربية الناجحة في اعداد الفتى او الفتاة لتحمل مسئولياته في الحياة والادراك الواعي لطبيعة الصعوبات التي تحتف به اثناء رحلته فيها .

ولا نكاد نظفر بقصص طويلة في العصر الجاهلي سوى ما ترويه كتب الادب والاخبار عن الحروب التي دارت بين العرب والتي عمل فيها الخيال القصصي حتى اوصلها الى ما يشبه الملحمة فلما نزل القرآن لفت الناس الى اهمية القصة في التربية النفسية والاجتماعية وكان عرضه لهذا القصص يتصل اساسا بالتجربة الدينية التي كان يمارسها الانبياء والمرسلون توجيها للناس وتبصيرا لهم بجملة من الحقائق التي ينبغي ا نترتكز عليها نظرتهم الى هذه الحياةوفهمم لاسرارها وتحديد موقفهم منها .

والقصص القرآني في عرضه لهذه التجارب انما يلفت المتدين بهذا النص والقارىء له الى أن يكشف عن الخطى التي مرت بها حياة الانسان منذ اتصلت الارض بالسماء عن طريق الوحي ، كما انه يعقد المقارنات الكاشفة عن الفكر الديني بين التجربة

الانسانيـة الواقفة عند حدود الحس وبين تلك التجربة التي تنزلت اصولها مـن السمـاء كمـا انه يشيـر الى العادة واثرها في حجب العقل عـن التفكيـر ، واذا جاز لنا ان نحدد ابطال هذا القصص تبيـن لنا انهـم اولئك المرسلون الذيـن حباهم الله سعة العقل ، ومضاء العزم ، وقـوة الحيـلة ، والفطانة المدركة لطبيعة النفس الانسانيـة وكيف تستثار الغرائز الصالحة فيـها لمغالبة الهوى وصراع العادة وتبديل الالف وقد ادار القرآن تناوله للقصة في اساليب مختلفة فتارة يبدأ بالحديث عـن الرسول وموقف قومه منه ، ودعوته اليهم ومداورته اياهم ليسلك بهـم طريق الرشد ، ثم محاجته اياهم عن طريق اللفت الظواهر الكونيـة التي الهوها فعبدوها كمـا في قصة ابراهيـم عليـه السلام وتارة يجمع بيـن الحديث عـن الرسل جميعا في معرض واحد ليبيـن عـن وحـدة الاصول الدينية التي دعا اليها الرسل قبل بعثة الرسول الاكرم عليـه الصلاة والسلام كمـا في سورة مريم •

كان القصص القرآني اذن بداية حياة القصة في الادب العربي بما وضع من اصولها وبما كشف عـن وظيفتها في قيادة المجتمع البشري وتوجيهه • ومنذ ذلك التاريخ والمجتمـع الاسلامي يعني بالقصة وينميها على النحـو الذي نجـده على مر الاعصر وتتابع الايام •

غيـر ان الفتوح الاسلاميـة امدت القصاص بمواد جديدة نمت مـن حيـاة القصة ومكنت لتدرجها فانا نلحظ فيمـا خلفه العصر الاول بعض هذه الاثار الاجنبيـة في حوادث القصة وشخوصها كما نرى في قصة رستـم واسفنديار التي ترويها كتب الادب والتاريخ ، وقد ساعد الحكم

الاموي على العناية بالقصص ، وتوظيف القصاص ليؤدوا دورهم في شغل الناس به والهائهم عن شئون الخلافة الاموية ، فلما كان العصر العباسي كان بين مواد الترجمة هذا القصص ونلاحظ ان القصص الاسلامي كان قد انشأ يتخذ ميدانه النزاع بين الخير والشر في صوره المتعددة والوانه المختلفة ذلك لان الاسلام حل مشكلة القدر اذ طلب الى المتدينين به التسليم له ، والوقوف عند حدود الحس •

ويظهر ان هذا الاتجاه ــ في القصص الاسلامي ــ كان هنالك ما يشبهه في بعض البيئات الشرقية وخاصة الهندية والفارسية ، حتى انا نلحظ ذلك في تصورهم الديني واتجاههم الاعتقادي فالنور رمز للخير والظلمة رمز للشر ، والخلاص من المآثم والتطهر من ادران النفس سمة من سمات هذه الاعتقادات وتلكم الاديان وهنا نلحظ ان الرمزية في القصة بدأت تظهر اثارها في ناحيتين : ١) الناحية الاولى تفسير القصص القرآني تفسيرا رمزيا وهذا الاتجاه نجد اثره واضحا فيما خلف المعتزلة من تفسيرات اذ يكثرون فيها عن التمثيل والتخييل ، كما في قوله تعالى واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا انه واقع بهم اذ يقررون ان القصة تمثيل لما كان من الله تعالى معهم ٢) الناحية الثانية تفسيرات الصوفية ولهم في هذا الرمز كلام طويل وتشقيقات بالغة ويكفي ان نقرأ الرسالة الكبرى للقشيري فقد تناول فيها المعجم الرمزي عند الصوفية تناولا مسهبا •

وهنا نسأل لماذا اتجه المعتزلة وهم اصحاب النظر العقلي والفلسفة الكلامية الى ذلك التفسير الرمزي ويمكن الاجابة عن ذلك بان

هؤلاء كانوا يقدرون ان النص القرآني له اتجاهان اتجاه واقعي واتجاه مثالي وان هذه المثالية تتمثل في تلك الايحاءات القوية التي يثيرها النص القرآني بنسجه ونظامه والفاظه المختارة ، وصيغة المتعددة فالرمزية عند هؤلاء المعتزلة ليست رمزية مقطوعة الاسباب بالنص ولكنها تنبع منه ، وتفيض من اعماقه .

كان لهذه الرمزية اثرها فقد كان اول عمل فني قصصي ترجم الى العربية اوائل العصر العباسي كليلة ودمنه وهو من القصص الرمزي الذي يصور احيانا الظلم واثره على الفرد وفي كيان الجماعة كما يصور احيانا اخرى سعة الحيلة وفطانة المرء ، في تقديره للاشياء وحكمه عليها الى جانب ذلك كله يعرض قصصا تتصل بنظام الحكم واثره على الراعي والرعية

فقد رأينا ان القصص العربي في نشأته وتطوره كان قصصا ملتزما ومحدودا باطار حياة الجماعة التي عاش بينها ، وما كاد الزمن يسير وتتعقد حياة المجتمع العربي ، وينضج النثر الفني على يد الجاحظ واضرابه ممن تعددت ثقافتهم ورهف حسهم حتى طلع علينا الجاحظ بكتاب البخلاء ويعد الكتاب فاتحة جديدة في تاريخ القصة العربية ليس فيه اثر لترجمة او تقليد لسالف وانما هو في مجموعة صورة كاشفة عن بعض الاخلاق التي تحكم سلوك الافراد في مجتمع تشابكت حاجاته واتصلت بالحياة المعقدة اسبابه ويظهر ان الجاحظ لم يكن يقصد بهذه الاسماء التي اوردها في كتابه شخوصا باعيانهم وانما هي اسماء اخترعها تصور تلك المعاني التي يريد اداءها ، والجديد عند الجاحظ ايضا انه فتح بابا جديدا لاستقراء المعاني المتعلقة بموضوع

واحد متصلة بما وراءها مـن اسباب نفسية واجتماعية وبذلك اعطى العمل القصصي طاقة اخرى تعتـمد على التحليل النفسي في حدود ادراك القوم يومئـذ لاسرار النفس وطبائعها وهي الحدود التي لفتهم اليها القرآن والآثار النبوية . ثم انطلقت الحيـاة العربية انطلاقة جديدة في مجـال القصة فظهـرت رسالة الغفران لابي العلاء المعري ـ في المشرق ـ وحي بـن يقظان لابـن باجه الاندلسي ، فاما الاولى فانها تخضع القيم الدينية للتجربة الحسيـة في القصة فحديث المعري عن الجنة والنار ومكـان الشعراء الذين لقيهم فيها انما هو تمثيل لمشاهد لما تحدث عنه القرآن ولكن القرآن جاء فوصفها ابلغ وصف وما كان لابي العلاء في هذا كله الا ذلك القص المتفنـن في صورة ادنى ما تكون الى الحس البشري واما الثانيـة فتحكي قصة الانسان في تفاعله الاجتماعي وادراكه المباشر ، وتتعقد حياة الجماعة الاسلاميـة وتغيـر عليها الصليبية الحمقـاء فيظهـر القصص البطـولي ... ولنا معه موقف اخر .. منتقليـن الى القصة الحديثة .

القصة العربية في العصر الحديث :

اشرنا مـن قبل الى نشأة الفـن القصصي عند العرب وتأثـره بالمترجمـات الادبيـة التي ترجمت الى العربية ، كما عرضنا الى تطور هذا الفـن وصلته بالامجاد البطولية التي حققها العرب ضد الغـزاة والفاتحيـن على اختـلاف الاعصر ، ثم تحول الفن القصصي الى الحياة الشعبية يصورها في لغة تكاد تكون عاميـة لا تخضع للموازين اللغوية في الصياغـة والتعبيـر واشرنا الى ان هذا النوع من القصص يلحـق بمـا اصطلح على تسميـته بالفلكلور . فاهميته تأتي من انه يتغلغل في

اعمــاق الذاتيــة الشعبيــة وتفاعلها مع الاحداث الدائرة واستجابتهــا للدوافع البطوليــة .

وظل الامر كذلك حتى كان ما كان مــن تغير وجه الحياة العربيــة مرة اخرى بعد ان انصهرت في بيئتها ثقافات جديدة ادت الى وجود قيم فنية جديدة انتقل بها العمل الفني نقلة اخرى سواء في الفكرة ام الصياغة ام القوالب التي تصاغ فيها هذه الاعمــال الفنية .

ونحن نعلم ان أولى المحاولات في تجديد الفن او الادب تتجــه اولا بتقليــد القديم ومحاكاته ثم يبدأ التخلص مــن ذاك التقليد الـــى الابتداع والابتكار في صور شتى والوان متعددة .

وقد بدأ فــن القصة بكتابة المقامات وتقليــد السابقين فيهاكمقامات اليازجي في لبنان ثم حديث عيسى بــن هشام في مص للمويلحي وبالرغم مــن ان حديث عيسى بــن هشام ينحو منحي المقامة في تصوير الحياة الاجتمــاعيــة ونقــد جوانبها والكشف عــن وجوه النقص فيها فانه يعد فاتحة جديدة في الفــن القصصي في العصر الحديث لما امتاز به مــن دقة في التعبيــر وطاقة في التصويــر وامانة في النقد ، ودعوة الى التأثر والاقتباس مــن النظم الاوروبية ــ وهو نفس الاتجاه التي دعا اليــه من قبل رفاعه الطهطاوي في كتابه الذهب الابريز في تلخيص باريز وما كــاد القــرن التاسع عشر ينتهي ويبدأ القرن العشرون حتى اخذ الادباء يودعون هذه الفنون الادبيــة القديمة ويتجهون الى التأثر بالغرب واقتباس الصالح مــن نظمــه الفنيــة واشكالهــا .

وكانت اول محاولة في هذا الصدد حركة الترجمة للقصص الاوروبية وكتابتها في لغة عربية تخلصت من اثار السجع والاحتفاء بالترصيع والافتتان فيه ويمثل هذا الاتجاه المرحوم الاديب المصري مصطفى لطفي كقصته الفضيلة وما جدولين وقد تصرف الرجل في احداث القصة تصرفا بعيدا ولكنها محاولة اهم ما تمتاز به انها طوعت اللغة للفن القصصي وحملتها على سهولة التعبير وقوة الاداء دون تصنع •

ثم انشأ الادباء يترجمون تارة كما صنع طه حسين وتوفيق الحكيم ويكتبون قصصا تصور الحياة المصرية الحديثة وما يضطرب فيها من القيم تتيجة التغير السريع الذي يصيب جوانب هذه الحياة •

واول ما نلحظه على القصص الجديد انه يحاول ان يؤكد الذات المصرية وان يبرز جوانبها القوية في صراعها مع الاحداث وتفاعلها مع التاريخ وايمانها بقوتها فقد كتب هيكل قصة زينب كما كتب المازني ابراهيم الكاتب ، وكتب توفيق الحكيم عودة الروح وعصفور من الشرق وكل قصة من هذه القصص تصور جانبا من جوانب الشخصية المصرية •

والحق ان هؤلاء الكتاب جميعا استطاعوا ان يخلقوا فنا قصصيا عربي الصورة عالمي النزعة ذلك لان هؤلاء القصاص انما يحاولون ان يتخذوا من الشخصية المصرية ذات التاريخ الطويل ، والحضارة العريقة مثلا يمكن ان يكون شيئا في تاريخ التطور الحضاري البشري ولا شك ان تأكيد الشخصية المصرية في هذه الاعمال الفنية كان له اثره في تربية

الوعي القومي وتنميـة الشعور به حتى انتهى الامر الى ذلك التغير الشامل لوجه الحياة العربية بعامه ومـن ابرز مظاهـر التغير ان الشعوب انشأت تحكـم امرها وتدبـر شئونها بنفسها •

اصول القصة العربية الحديثة :

عرفنـا ان القصة العربيـة الحديثة تأثرت بالقصة الاوروبية الوافدة في الشكل والصورة وتلاقت معها في تصويـر الواقع الاجتمـاعي لامة من الامم كما كان لها دورها الخطير في التطـور الحضاري البشري • وهي الامة العربية والقصاص العرب حاولوا ان يستهدوا ما وصل اليـه الادبـاء الاوروبيون في فنونهم القصصية ويمكـن ان نتحدث عـن تلك الاصول التي استهدى بها اولئك الادباء والتي تشكل الفن القصصي تشكيـلا يميـزه عـن غيره مـن الفنون الادبيـة واول هذه الاصول •

١ ـ الحكاية في القصة وهي مجمـوعة مـن الاحداث مرتبة ترتيبا سببيـا ينتهي الى نتيجة طبيعيـة موصولة بهذه الاحداث في تسلسلها والمعروف ان هذه الاحداث تدور دائمـا حول موضوع عام وهو التجربة الانسانيـة في حياتها العامة ومنطقها المألوف وهي بهذا تختلف عن التجربة الشعرية التي تمـتاز بانها تجربة ذاتيـة تعيش في اعمـاق الفرد وتمتاز التجربة القصصية بصدق الكاتب وامانته وليس معنى هذا ان يكـون واقعيا الى حد يلتقي فيه مع العالم ولكـن واقعيته تعتمد على الواقع الذي يختار مـن حوادثه واشخاصه ما يعينه على بلوغ الغاية التي يسعى اليها مـن تصويـر بعض جوانب هذا الواقع تصويرا يؤثر في النفس ، ويدفعها

الى ان تؤدي دورها في الانفعال باحداث القصة والاستجابة لمـا تتطلع اليـــه •

ولما كانت الحكاية تتصل اساسا بالمجتمع الذي هو مجمـوعة مـن الافراد والنظم والتقاليـد والعادات فان موضوع الحكاية في القصةينبغي ان يسايـر مطالب الحيـاة فلا يشترط ان يكون الموضوع نبيـلا بـل يجـوز ان يكون غيـر نبيـل لان الحياة تتطلبه •

ويظهـر ان الانسان بمـا هو كائـن اجتماعي هو الذي يمثل ابرز اصول العمـل القصصي ومـن هنـا اتجه القصاص اولا الى دراسة الانسان اذ فيه تتمثـل كل الاتجاهات التي تسيـر المجتمع •

والاتجاه الى الانسان باعتباره المرآة التي تبدو في اعماقها رؤى هذا التفاعل الاجتمـاعي بيـن القيم والمبادىء والاتجاهات كان ثمرة للمذهب الواقعي والطبيعي وهذا المذهب يحاول ان يفسر العلاقات الاجتماعيـة والنظـم السيـاسيـة وكل ما يحتكم في الحيـــاة تفسيـرا علميـا طبيعيـا يقـوم على التجربة العلميـة فمـا يصدق على الطبيعة يمكـن ان يصدق على الانسان ويظهـر ان نجيـب محفوظ في قصصه يتجه الى هذه الواقعيـة في قصتيـه خان الخليلي وبداية ونهاية وهما تتحدثـان عـن تاريـخ اسرة مـن الطبقة الوسطى في اثناء الحرب العالمية الثانية ••

ويتطلب هذا النوع مـن القصص الاحاطة بالتاريخ الاجتماعـي والعوامل المسيـرة له ، ثم النظـر الناقد الى طبيعته القيم الاجتماعيـة التي تحكم السلوك الفردي والجمـاعي وموقف التاريخ في هذا النوع من القصص انه يهدي الكاتب الى صحة الرؤية ودقة التفسيـر •

٢ – وحدة القصة العضوية :

ويظهر ذلك في دقة ترتيب الاحداث ، ووصل بعضها ببعض وقد تتعدد الشخصيات وتتعدد الحوادث ويكثر الحوار ، وعند ذلك يحتاج الكشف عن هذه الوحدة الى شيء من التأمل المدرك فقد لا يكشف الكاتب في حديثه او لغته عن الوسائج القريبة التي تربط بين هذه الاحداث ولكنه يدعها الى ذكاء القارىء وقدرته على الرؤية .

وهنالك فرق واضح بين هذه الوحدة في القصة والمسرحية ذلك ان الكاتب في القصة حر ينطلق الى حيث يريد الانطلاق غير مقيد بزمن او مكان اما المسرحية فان الكاتب فيها مقيد بزمن ومن هنا كان للحدث اهمية في المسرحية عنه في القصة .

٣ – تصوير الشخصية في القصة :

وهذه مسألة تختلف فيها وجهة نظر الكتاب وهي خاضعة لطبيعة القصة واهدافها فمن الكتاب من يرسم شخصيته رسما ماديا يتحدث فيه عن طولها وبريق عينيها ولون شعرها وحركاتها عند الانفعال او التأثير ويدع للقارىء الكشف عن باطن هذه الشخصية وادراك ما فيه ومنهم من يكتفي باللمحة ــ جاعلا ذلك الطريق الى الكشف عن معالم الشخصية وسلوكها .

المسرحية في الادب العربي الحديث :

لم يعرف العرب المسرح الا في العصر الحديث ، فقد نقلوه عن اوروبا صورة ومضمونا ومن هنا كان لا بد من التتبع العاجل لحياة

المسرحية وموقف النقاد العرب منها والمعروف ان اليونان هم المسرحيون الاولون وقد تعلمت منهم الشعوب هذا الفن الادبي ، والمعروف ان ارسطو في كتابه الشعر يقسم المسرحية الى قسمين مأساة وملهاة ويقرر ارسطو ان موضوع المأساة يمتاز بالنبل اما الملهاة فتمتاز بالهزل الساخر ومن هنا كان البطل في المأساة يمتاز بارستقراطية التربية والسلوك معا اما بطل الملهاة فانه يكون من اراذل الناس وسوقتهم .

وقد كانت المأساة تعتمد على التاريخ واحداثه ، ثم انشأ هذا الفن يأخذ طريقه الى الزوال ونشأت على انقاضه الدراما التي تأخذ موضوعها من الواقع وتصور المواقف والشخصيات الذين هم من طبقة متوسطة وقد تختلط فيها بعض عناصر الملهاة وفي نهاية القرن الثامن عشر واوائل التاسع عشر ظهرت الميلودراما او الدراما الشعبية وتمتاز الميلودراما بكثير من عناصر الاثارة والالم ، والمفاجآت الغريبة ، والاحداث المحزنة وهي تنتهي غالبا بانتصار الضعف على القوة الفاشلة وتدور حوادثها على اربع شخصيات رئيسية : الشباب السوداوي المزاج السريع الانفعال الشجاع المحب ثم الفتاة الطاهرة المظلومة والخائن الذي يجهل نبل المشاعر الانسانية ثم شخصية غامضة نهازة للفرص غليظة الطبع ويتخلل العرض فيها الحان موسيقية تساعد على شبوب العواصف وقوة الانفعال والتأثير .

وتعتمد المسرحية على الاصول الاتية :

الحكاية والحدث :

وقد اهتم ارسطو في كتابه الشعر بالحدث وعلاقته بالشخصيات

ومدى التألف بيـن الشخصيـة التي تؤدي هذا الحدث وبينه ويغلـب على مسرحيات شوقي تعدد الاحداث ولكـن هذا التعدد لم يضعـف مسرحياته اذا قدنرا ان الرجل كان يحاول ان يوجد فنا مسرحيا لاول مرة في اللغـة العربيـة والواقع ان المجال الدرامي ضيق لا يأذن بمزيد من الشرح والتفسيـر كما هو الحال في القصة ولذلك كان لا بد مـن وحدة الحدث في المسرحيـة حتى تكـون مفهومة واضحة ويمكـن للمشاهد او القارىء ان يتتبع سيرها وحركتها المسرحية في فهم ودقة •

وقد تطورت الدراما مـن ناحية الحدث فتحولت في اغلب اتجاهاتها الى التصويـر النفسي والتعمـق في باطـن الشخصيات ويعد الحوار من الاسس الاصيلة في بناء المسرحيـة والحرص على تكامل الديناميكيـة المسرحيـة •

اما الشخصيات في المسرحيـة فانها تؤلف او تشكل طاقة فنية متميـزة ويحدث التفاعل دائما بيـن شخصيات المسرحية في صورة مغامرة جماعية ولقـد كان مـن اهم الشخصيات التي انشأت الحركة الادبية المسرحية في الادب العربي الشاعـر المصري احمد شوقي وقد اعتمد في مسرحياته على التاريخ فاستطاع ان يتخذ منه المادة المسرحية

وهنـا تواجهنا مشكلـة وهـي • لماذا اتجـه شوقـي الـى التـاريخ فـي مسرحياتـه ، كـان طبيعيا ان يتجـه شوقي الى التاريخ لان العمل الدرامي في نشأته الاولى اتخذ التاريخ مادته وقد بدأ شوقـي مسرحياته مـن اول الطريـق فعاد الى التاريخ المصري القديم والاسلامي

فمـن التاريخ القديم كتب كليوباتره وقمبيز ومن التاريخ الاسلامي كتب مجنون ليلى ثم على بك الكبير .

وقد حرص شوقي على الامانة في حكاية التاريخ وان كان قد تصرف في التعليل لاحداثه كما في مسرحية كليوباترة فقد وقف من تفسير سلوكها في احداث المسرحية موقف المدافع عنها المعلل لهذا السلوك على عكس النقاد الاوروبيين . كذلك استطاع ان يربط بين احداث التاريخ ربطا فنيا وان اخذ عليه كثرة ما اورده من الشعر الغنائي ولعل له في ذلك بعض العذر اذ كان المجتمع يومئذ يقدر العنصر الغنائي في الاستمتاع بالمسرحية والاقبال عليها .

كذلك استطاع شوقي ان يصور شخصياته من خلال الحركة المسرحية دون ان يحدد لذلك مكانا متميزا في الكتابة المسرحية .

وفي اثناء ذلك كله يحوم على نوع من التحليل النفسي لشخصياته في شيء من الايجاز معتمدا على تفاعل الشخصيات مع الحوادث والظروف وقدرة السامع او القارىء على استبطان هذه الشخصيات وادراك ما يجري في اعماقها .

ثم جاء على اثره عزيز اباظه وعلي احمد باكثير وهما لم يخرجا عن تقليد الشاعر احمد شوقي وان قصرا عنه في براعة الصناعة اللغوية ، والقدرة على النظم والانتفاع بالتاريخ وادراك اسراره .

ولنا بعد عودة الى الكلام عن المسرحية في الادب العربي الحديث .

تفصيل القول في النظم عند عبد القاهر :

وانما خصصت هذا الفصل بالحديث عن عبد القاهر اذ انه بكتابيه أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز يمثل القمة التي انتهى اليها الدرس البلاغي في البيئة الاسلامية كما أنه استطاع أن يربط بين اللغة في دلالاتها الاولى وبين تطور المجتمع الاسلامي وأثر ذلك التطور في دلالات اللغة ، بالاضافة الى أن الرجل قدر أن النظم وهو بناء الأسلوب له آثاره الواضحة في ذلك التطور بما يعين الأديب على التصرف في اللغة ،ذلك التصرف الذي يخلق به ذلك الأديب صورا فنية متعددة تحيل الأدب الى فن له عمل الفنون في رياضة النفس وتهذيب الوجدان ، والتعبير الصادق عن الأحاسيس والانفعالات •

واذا كان عبد القاهر ــ كما يقول مؤرخوه والمترجمون.له • كان متكلما فيلسفا ــ فان هذه النزعة الكلامية لم تكن أصيلة عنده نجيت ملكت عليه منافذ الاحساس بالفكرة الأدبية ، والمنزع المتفنن ، وأغلب الظن أن البلاغيين في هذه الفترة كانوا يعدون القول في المجاز

القرآني جزءا من العقيدة ــ ولم يكن ثمت سبيل الى البعد عن هذا البحث ، وقد نادى الاشعري في القرن الرابع الهجري بضرورة الاستدلال والنظر على صحة العقيدة ، وتأكيدها ، وتأصيل اتجاهاتها• بل انه أسرف في الكلام عن ايمان المقلد ، وتقليده وقد رأينا من قبل أن البحث البلاغي ــ عاش في بيئتين مختلفتين اعتقادا ومنهجا ــ وهما البيئة الاعتزالية ، ثم البيئة المتسننة ، وأن البيئة الأولى كانت عونا على

التجدد المطرد ، وربما كان ذلك من بين الاسباب التي وصلت أهلها بالتراث الانساني تدرسه وتستفيد به في تفسير الوجود وظواهره ، وأن البيئة المتسننة كانت محافظة ، تميل الى الاتباع لا الى الابتداع .

ولقد قام الدرس البلاغي في هاتين البيئتين على أصول مدروسة ، وقواعد محكمة ، تستمد وجودها من مناهجهما من في التفكير وطرائقهما في التفسير ، واتجاههما في الاعتقاد

وبهذا نستطيع أن نفسر بعض اللمحات الفنية التي نادى بها زعماء الفن القولي في هاتين البيئتين

فانا قد رأينا أن الجاحظ نادى بأن البلاغة والتفاضل فيها انما يعتمد على الألفاظ دون المعاني ، ذلك لأن المعاني متاع مشاع بين الناس جميعا أما الالفاظ فليس لها هذا الشيوع ويحتاج الاديب الى قدرة خاصة تمكنه من استغلالها واستعمالها ،

والحسن والقبح اللذان هما أساس المفاضلة بين الألفاظ والايثار لبعضها على بعض من الصفات الذاتية لهذه الألفاظ ، أما عبد القاهر فيرى رأيا اخر وهو أن الحسن والقبح ليسا من الصفات الذاتية وانما هما صفتان تعرضان لها يضفيهما عليهما النظم وقد عرضت في الفصل الذي كتبته عن العربية وتطورها الدلالي الى النظم عن عبد القاهر ، وأنه ائتلاف معاني النحو ــ وقارنت بين صنيع الرجل في النظم وما ترتب عليه من احداث معان جديدة وما ترتب على هذا كله من تصنيف المعاني وأنها قسمان معان أولى ومعان ثانية

وأن المعاني الأولى يحددها الاستعمـــال اللغوي أو بعبارة أخرى يحددها المعجم ، ويكشف عـــن أوليتها ، ويضع أيدينا على خط سيرها في مجرى الزمـــن البعيـــد والقريب ،

كمـــا أشرت الى أن انتقال اللغة مـــن المادية الى المعنوية هو الذي يحدد هذه الخطى ، ويرشد اليها ، ويبصر مصنفها بالعوامل التي أدت الى هذا التدرج ممثلا في انتقالات زمنيا تقتضي لونا مـــن التطور الحضاري •

وما مـــن شك في أن عبد القاهـــر ومـــن شاركه دراسة اللغة مـــن الأصوليـــين كانا يقدران هذا التطور ويعمـــلان على ابراز ملامحـــه الكاشفـــة ،

وربمـــا كانت المصطلحات التي توارد عليها العلماء مـــن بين الدلائل على هـــذا التدرج •

فاذا كان البلاغيون يفرقون بيـــن المعاني الأولى والمعاني الثانيـــة بأن الأولى دلالات اللغة قبل أن تتطور أو قبـــل أن يتصرف الادبـــاء في استعمالاتها ، على هدى مـــن التطور الحضاري التي تنعكس علـــى اللغـــة آثاره ، فان الأصوليون يقدرون هم الاخرون هذا التطـــور ويحاولون أن يفصلوا بيـــن المعاني الأولى والثانية فصلا يدق معـــه استخلاص الحكم المستنبط ، وتطبيقه ،

وقد اتفق اولئك جميـــعا على أن يسموا المعنى الأول بالظاهـــر والمعنى الثاني خلاف الظاهـــر وخلاف الظاهر تندرج تحته معان كثيرة بحسب الأدوات والألفاظ التي يستعمـــلها المشرع أو الاديب والـــذي

دفعهم جميعـا الى التفريق بيـن الظاهر وخلاف الظاهر ادراكهم لطبيعة اللغـة مجردة عـن الظروف والملابسات وما تقتضيه مـن تعديل أو تغيير في مجرى التعبير الطبيعي فالأمر مثلا في أصل دلالاته طلب الفعل علـى وجه الامتثـال المؤدي الى انجاز المأمور به فاذا احتفت به ظروف قضت أن يخرج عـن معناه الأول استعمل الأمر على وجه آخر من الوجوه التي تلائم هذه الظروف ، وتسترشد بها في استعمـاله على نحـو مـن الانحاء المتعددة ويقال مثل ذلك في الاستفهام وأدواته وفي القصر وأدواتـه

والمواقف المؤدية الى ايثار طريق مـن طرقه علىآخر ولا شك أن اللغة بهذا الاعتبار عند العالم والأديب والمشرع تختلف في استعمـالها فالعالـم المعني بالحقائق الحريص على جلائها وبيانها لا يستعمل الا الـدلالات الأولى أو الدلالات الثانية بعد أن يستقـر بها الاستعمـال فتصبح حقيقة متعارفا عليها في بيئة مـن البيئات العلميـة .

أما الأديب فانه يعني بالمعاني الثانية لارتباطها بالحالات النفسيـة والاجتمـاعية ، التي يعيش فيها المجتمع أو بعض أفراده ممـن يتذوقون الأدب ويسعون الى اكتسابه ، ويحرصون على معانيه واستشفافها مـن نصوصه ، ومـن هنا نرى الناس يختلفون أيهمـا أدق وأفصح التعبير المجرد عـن التلاويـن الفنية أم التعبير الحالي بهذه التلاويـن والحريص عليـهـا .

العالم يرى أن الحقيقة أفصح مـن المجاز والأديب يرى العكس وكل على حق فيمـا يقرره ويقصد اليـه ،

ولا جدال في أن النظم عند عبد القاهـر لا يغفل المعاني الأولى عند بيـان المعاني الثانيـة اذ المعاني الأولى أو النحوية كما يسميها هـي الأساس الذي تنهض عليـه هذه المعاني الثانيـة وبدونها لا نستطيع أن نحدد هذه المعاني وأن تتبيـن حقائقها وأبعادها ، كما أن عبد القاهر لم يغفل النظـر في الأحوال النفسيـة وما تقتضيه مـن تحوير أو تعديل في مجرى التعبيـر الطبيعي وكل أولئك عرضـن له في كتابه أسرار البلاغة أما دلائل الاعجـاز فقد خصه بالحديث عن النظم ،

وقد رأينا أن عبد القاهر يرى أن الحسـن في اللفظة لا يتم لها مفردة دون أن تركب مع مع سواها من الكلمات التى تكسبها الحسن والجمال ، وتوفـر لها أسبابه وتمكنها مـن أن يكون لها مكانها المقسوم في أداء الفكرة وعرضها ولا يستطيع أحد أن يحكم على كلمة بأنها فصيحـة ما لم يحدد مكانها مـن النظم ، وقد ضرب لذلك مثلا بالآية الكريمـة وقيل يا أرض أبلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض المـاء وقضى الأمـر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين ، يقول : فاذا نظرت في هذه الآية تجلى لك منها الاعجاز وبهرك الذي ترى وتسمع أنك لم تجـد ما وجدت مـن المزيـة الظاهـرة والفضيلة القاهرة الا لأمر يرجع الـى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض وأن لم يعرض لهـا الحسن والشرف الا مـن حيـث لاقت الأولى بالثانيـة والثالثة بالرابعة وهكذا الى أن تستقر بها الى آخرها وأن الفضل تناتج مما بينها وحصل مـن مجموعها

ان شككت فتأمل هل ترى لفظة منها بحيـث لو أخذت مـن بيـن أقرانها وأفدت لأدت مـن الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها مـن

الآية مثل ابلعي واعتبرها وحدها مـن غير أن تنظر الى ما قبلها والى ما بعدها وكذلك فاعتبر سائر ما يليها وكيف بالشك في ذلك ومعلـوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ثم أمرت ثم أن كان النداء بيا دون أي ثم اضافة الماء الى الكاف ثم أن اتبع نداء الأرض بالامر بما هو مـن شأنها وكذلك نوديت السمـاء واتبعت بالأمر بمـا هو مـن شأنها ثم التعبير عـن غيضان الماء بالفعل المبني للمجهول للدلالة على أنه لم يتم الا بامـر آخـر وهكذا نرى عبد القاهـر يستخرج مـن النظم وجوه الحسـن الذي حليت به الكلمات ، فتم لها الاعجاز في اجمل صورة وأوضح معرض والدليل على ذلك أن الكلمة الواحدة تكون نابية في موضع ، قلقـة فيه مأنوسة في موضع آخر مستقرة فيه وضرب لذلك مثلا بكلمة أخـدع وأنها جميـلة حسنة في بيتين لأبـي تمام والبحتري قلقـة في بيـت آخـر لأبي تمـام ، ذلك أن أبا تمـام قدر لها مكانها الذي تكـون فيه حسنة جميـلة ، في بعض شعره ، ولم يقدر لها ذلك الموضع في بيته الآخر فجاءت نابية في مكانها ، متأبية على القبول والاستحسان في أبياته الاخرى وأعجب مـن ذلك هذه لفظة الشيء فانها تكون حسنة مقبولة في موضع، نابيـة قلقة في موضع آخر فالنظـر الى قول عمـر بـن أبي ربيعة :

ومـن مالـىء عينيه مـن شيء غيـره

اذ راح نحو الجمرة البيض كالدمى

فان التعبيـر بالشيء هنـا في غاية الحسـن والروعة ، وانمـا اكتسـب هذا الحسـن لمكانه مـن النظم ، ولأنه كناية عـن أن المرأة المنظـورة

ليست له وانما هي لسواه وكان عليه أن يغض طرفه ، ويلتزم جانب الحشمة والتوقر فلا يرسل عينه ترعى ملاحة سواه وجمال غيره •

وليس القصد من النظم عند عبد القاهر أن ترص الكلمات رصا وتراد على مكانها ارادة لا يقتضيه المقام ، ولا تدعو اليه وجوه الحسن والاعتبار ، وانما تتلاقى الكلمات في النطق مترسمة خطى المعاني القائمة في النفس والتي يريد المرء أداءها الى غيره لقصد يتحراه وغاية يهدف اليها •

وهنا يقرر عبد القاهر أن الألفاظ أوعية للمعاني وأن المعاني المصبوبة في هذه الأوعية لا بد أن تختار لها الالفاظ المتكافئة واياها فلا يصب المعنى الكبير في وعاء ضيق وكذلك المعنى الضئيل لا يصب في وعاء واسع ، ومعنى هذا أن الرجل يدعو الى أن تكون الألفاظ على قدود المعاني وملابسة لها أتم ملابسة حتى لا تعافها النفس ، ويتأبى عليها الذوق ، وينفر منها الاحساس •

وخلاصة الرأي عنده أن النظم لا بد أن يتبع الفكرة التي يراد اداؤها

فاللفظ عنده تبع للمعنى في النظم ، وأن الكلمات تخضع في ترتيب النطق بها لترتيب المعاني القائمة في النفس

الانتقال من معنى الى آخر وعلاقته :

يكاد يحصر عبد القاهر هذا الانتقال في المجاز والكناية ويراد بالكناية أن المتكلم يريد اثبات معنى من المعاني فيأتي بردفه ويجعله

دليـلا عليـه كمـا في قولهم طويل النجاد نؤوم الضحى ، والأول كناية عـن طول القامة ، والثاني كناية عـن الترف والتمتع المحقق للراحـة النفسيـة والجسميـة •

وليس في الكناية انتقال مـن معنى الى آخر بطريق التطور اللغوي وانمـا هي استعمالات صاحبت قيما اجتماعية سواء منها ما يتصـل بالمدح أم الذم أو ارتبطت احيانا بأمور مادية تعتمد عليها هذه القيـم فجبان الكلب ومهزول الفصيل ، وعريض القفا ليس في ألفاظها انتقـال لغوي وانمـا هي مجرد استعمالات اصطلح المجتمع على معانيها في فترات زمنيـة متعاقبة ، وقد يصبح استعمـال بعضها في عصر ما غير لائق اذ وجدت كنايات أخرى أدق استعمـالا وأوقع تصويرا ، وأليق بقيـم حضاريـة جديدة •

ومن هنا عرف البلاغيون المتآخرون الكناية بانها لفظ أطلـق وأريـد به لازم معناه ويجوز أن يراد به معناه الأصلي

أما النقل فانه يتم بصورة أوضح في المجاز وقد فرق عبد القاهـر بيـن المجاز والتشبيه بان المجاز نقل بطريق المشابهة والتشبيه نقل بطريق التشبيه • والمقصود بالمشابهة في المجاز أن يكون بيـن المعنى المنقول والمنقول اليه علاقة تصحح الانتقال وتهيىء له ،

عبد القاهر والاستعارة :

الاستعارة عنـد عبد القاهر أن تريـد تشبيه الشيء بالشيء فتؤثر أن لا تصرح بالتشبيه في صورة محددة بينة تستبيـن منها أركانه الأربعة

مشبه ومشبه به وأداة تشبيه ووجه شبه ـ الى عملية يراد بها طـــي التشبيه وتحويله الى صور فنية اخرى فتقصد مثلا الى المشبه وتطلق عليه لفظ المشبه به لمعان مشتركة لحظتها بيـن المشبه والمشبه به وهذه المعاني سوغت أن تطلق لفظ هذا على ذاك اذ أن كليهمـا ينتميـان الى فصيـلة واحـدة تبيـح لك التفنـن في الاستعمـال ، وتجيز النقل مـن هنـا الى هنـاك • فاذا أردت أن تقول رأيت رجلا هو كالأسد في شجاعتـه وقـوتـه وبطشه فتدع ذلك وتقول رأيت أسدا وهـذه الاستعـارة سماها المتأخرون بالاستعارة التصريحيـة لأنه صرح فيها بالمشبه بـه ويرى الأستاذ أميـن الخولي في كتابه فـن القول أن هـذا النـوع مـن الاستعارة قائم على الادعاء ، والمقصود بالادعاء أن الرجل الشجاع قد ادعيت أنه فرد مـن أفراد الأسد فلذلك عبرت عنـه بلفظه وليست فكرة الادعاء التي يراها الأستاذ الخولي جديدة على الدرس البلاغـي فان مضمـون حديثهم عـن الاستعارة يقوم على هذه الدعوى بل ان عمليـة النقل ذاتها تلمح هذا الادعاء وتشيـر اليـه •

فاذا طويـت المشبه به وأشرت اليه في عمليـة النقل هذه كانت الكلام استعارة أخرى وهي ما يسميه المتأخرون الاستعارة المكنيـة أو بالكنايـة ،

وفرق بيـن الكناية والاستعارة بالكناية ذلك أن الكناية لفظ يطلق ويراد به لازم المعنى مع جواز ارادة المعنى الأصلي أما الاستعارة بالكناية فـلا يمكـن أن يراد بهـا معنـاهـا الأصلـي لأن فكـرة الادعاء قد حالت بيـن ارادة المعنى الأول مع المعنى الثاني الذي أصبـح التركيـب دليـلا عليـه •

يؤصل عبد القاهر هنا أصلا للتفريق به بين نوعـي الاستعـارة فيقـول :.

وهنا أصل يجب ضبطه وهو أن جعل المشبه المشبه به على ضربيـن أحدهمـا أن تنزله منزلة الشيء وءتذكره بأمر قد ثبت له كقولك رأيـت أسدا تريـد به انسانا يبلغ في شجاعته وقوته حد الأسد والثاني أن تجعل ذلك كالامر الذي يحتاج في اثباته الى عمل تحتال عليه كقول لبيـد اذ أصبحت بيـد الشمال زمامها فانك هنـا شبهت الشمـال برجل ذي بأس ثم حذفته وبرهنت على وجود فكرة التشبيه باليـد المضافة الى الشمال ، ثم يفرق عبد القاهـر بيـن التشبيه البليـغ والاستعارة بأن عمليـة النقل في التشبيه لم تتم تماما مزيلا لآثار التشبيه في الكلام : ويظهر أن عبد القاهـر هنا يرد على أرسطو في فـن الشعر اذ يعتبر كل أولئك مـن الاستعارة ، وقد شايع جرونباوم في كتابه عن الحضارة الاسلامية أرسطو في ادعاء أن التشبيه البليغ مـن الاستعارة ، وليس منها

الفرق بيـن الاستعارة والتمثيل :

قد رأيت أن الاستعارة بنوعيها تعتمـد على نقل لفظة مـن معناها الى معنى آخر ، أما التمثيـل فلا يعتمـد على نقل لفظة وانمـا ينقل جمـلةه أو عبارة مكتفيـة بنفسها في الدلالة على فكرة كاملة .

ويقسم عبد القاهر التقسيـم الى قسميـن : ١) ما جرى مجرى التشبيه وهـو داخل في حد الاستعارة كقوله مالي أراك تقدم رجـلا وتؤخر أخرى لمن يتردد في الأمر ولا يأخذ فيه وانما يراوده الشـك

فيقدم تارة ، ويبطىء أخرى وكأن المتكلم به أراد تشبيه مــن وجه اليــه الخطاب بهذه الصورة الحاصلة مــن هذا التردد والامثال كلها قائمة علــى الاستعارة اذ يعرفون المثل بأنه ما شبه مضربه بمورده ـ فاذا صرح في هذا الاسلوب بالتشبيه كان تشبيها تمثيليا وليس داخلا في نطاق الاستعارة وتعريف القدماء للمثل يدل على أصالة التشبيه في الاستعارة التمثيليــة .

علاقة الاستعارة بالمعاني المستعارة من حيث ندرتها وابتذالها :

قد رأيت أن الاستعارة مردها في قوتها وأصالتها الى التوليد والتفنن في تقليــب المعاني ، واستهلاك طاقة اللغة في التعبيــر عــن الفكرة ومــن هنــا قسم عبــد القاهر الاستعارة الى ما هو خاص لا يتطاول اليه الا الفحول مــن الشعراء والكتاب الذيــن أوتوا حظا مــن سعة العقــل ، وصفاء الذهــن ، وتفتح القريحة ، وعمق الشفافية كما في قول الشاعر ،

ولما قضينا مــن منى كـــل حاجـــة
ومســـح بـــالأركـــان مــن هــو ماسح
أخـــذنــا بأطراف الأحاديث بيننـــا
وسالــت بأعنــاق المطـــى الأباطـــح

وقول الشاعــر

سالت عليــه شعـــاب الحي حيـــن دعــا
أنصـــاره بوجـــوه كــالدنـــانيـــر

أما الأستعارة العامة فهي الاستعارات المألوفة التي توارد عليها الشعــرراء

ولا جدال في أن الاستعارة الخاصة تحتاج الى طاقات جديدة يكتبها الشاعر أو الأديب من خبرته بالمعاني والكشف عنها وربما كان أبو تمام من أغوص الشعراء على الاستعارة وقد يغرب فيها احيانا ويمكن ان تفسر استعاراته على هدى من ثقافته العميقة وادراكه الواسع ، وحيلته في توليد المعاني ــ ولا مشاحة في أن التفنن في الاستعارة يقوم على أساس من دقة النظم ورعاية أسراره وهنا يقول عبد القاهر معقبا على كلامه في الاستعارة : وأعلم أن ليس النظم الا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه واصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها .

وهنا يفيض عبد القاهر في ذكر الأمثلة وايراد الشواهد التي أدى بها النظم الى أن تكون ثقيلة على النفس مضطربة في الذوق ، بعيدة عن منازع الحسن والجودة والدقة ، حائدة عن سبيل الجمال والفتنة التي ينبغي أن يمتاز بها النص الأدبي حتى يؤدي ثماره ، ويحظى بما يرجوه منه صاحبه من التأثير في النفس ، واثارتها ، وحملها على الحركة الدائبة في ارتياد آفاق المعاني المدلول عليها بالنظم .

وقد ذكر من ذلك قول المتنبي :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه

بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

ويكاد يحدد عبد القاهر أسباب الفساد في النظم في التقديم

والتأخيـر ، والتجوز في استعمـال الأدوات وكثرة ايراد الحشـو في أثناء النظم نفسه ،

رايه في التقديم والتاخير :

مـن الثابت إن الجمـلة في العربية تنقسم الى قسميـن ١) جملة أسميـة وهي التي تتألف مـن مبتدأ وخبر ٢) وجملة فعليـة وهـي تتألف مـن فعل وفاعل أو اسـم فعـل أو مـا اليـه مما يؤدي معنى الجمـلة وقد جمد على استعمـال معيـن لا سبيل الى الخروج عنه ، كالمصدر النائب عـن فعله ويكاد عبد القاهر في حديثه عـن التقليم والتأخيـر يؤصل اصلا : وهو أن تقديـم الشيء على وجهيـن

تقديـم يقال فيـه انه على نية التأخيـر وذلك في كل شيء أمررته مع التقديـم على حكمه في صناعة لنحو وذلك مثل تقديم الخبر والمفعول على الفعل مع اعرابهمـا على ما كانا عليـه

وتقديـم لا على نية التأخيـر بلجعلت فيه الخبر مبتدأ مثل قولنا المنطلق زيـد بعـد قولنـا زيـد المنطلق ومثل ذلك يقال في الاستفهام بالهمـزة أأنت فعلـت هذا أو أفعلت هذا كمـا في قوله تعالـى أأنت فعلـت هذا بآلهتنـا يا ابرهيـم فان القصد هنـا مـن تقديم أنـت حمـله على الاقرار بالفعل الحاصل الذي لا مشاحة في حدوثه ولا جدال في وقوعـه •

وكمـا في قول الشاعـر

أيقتلنـي والمشـر فـي مضاجعـي

ومسنونـة زرق كـأنيـاب أغـوال

فان القصد مـن التقديـم هنـا انكار الفعل والاستغراب مـن حدوثه واظهـار الدهشة المنكرة لوقوعه مـن المتـربص له والمتهيىء لاحداثـه •

وشبيه بالاستفهام في التقديم والقصد منـه النفي فالشاعر الـذي يقـول :

وما أنا أسقمت جسمي به   ولا أأنا أضرمـت فـي القلـب نار

يريد أن السقم حاصل وواقع ولكنه ينفي جلبه له ، واتصافه بـه وهكذا يـرى عبد القاهر أن التقديـم يقصد به الى معان أخـرى وأن التغايـر في النظم دليـل عليها ، وبرهان لها ، وتأكيـد لوجودهـا وكذلك القول في حذف أحد أجزاء الجمـلة أو فضلة مـن فضلاتها ،

راي عبد القاهر في الفروق الحاصلة في الاخبار :

قد رأينا أن الخبـر بمـا هو خبر يراد به ايصال فكرة أو تعبيـر عـن معنـى وهنـا يفرق عبد القاهر بيـن الخبـر الذي هو جزء مـن الجمـلة والخبر الذي هو مـن تمـام الجمـلة فالخبر الذي هو جزء من الجمـلة لا يصح الاستغناء عنه يحذف لدليل يدل عليه يفهم مـن سيـاق الكلام وقـرائن الأحوال أما الخبر الذي ليس جزءا من الجمـلة فانه لا يصح حذفه لانعدام الدليل عليه ومثل ذلك الحال في قولنـا جاء زيد راكبا ، فانا لو حذفنـا كلمـة راكبا التي هي في الواقع صفـة لزيـد وقيد في الفعل الحاصل مـن زيد ـ لم نستطع أن نفهم معناهـا دون ذكرها نصا وهنا يفيض عبد القاهر في أن الاخبار بالفعل يقتضي

التجدد والحدوث آنا بعد آخر ، أما الاخبار بالاسم فيقتضي الثبـــوت والاستمرار على نحو ما

ومــن هنا يكثر المدح في مقام الشجاعة والكرم بالفعل لدلالته على التجدد كمـــا في قول الشاعـــر

لا يأنــف الدرهـــم المضروب صرتنـــا
لكــن يمــــــر عليهـــا وهـــو منطلـــق

فقد عبر عــن المال ووفوره الى صرة الممدوح ومروره عليها منطلقا لا ينى ولا يتوقف ،

وقـــول الشـــاعـــر

أو كلمـا وردت عكـــاظ قبيلـــــة
بعثوا الــى عريفـهــم يـتـوسـم

والشاهد هنـــا التعبيـــر بفعل التوسم وتجدد الفعل حينا بعد آخر

كمـــا أن عبد القاهر يعرض لفكرة التعريف والتنكيـــر وأثرهـــما في تحديد المعنى كمـــا وكيفما ولا نستطيـــع أن نصل الى وجه يشبـــه اليقيـــن في الابانة عـــن خصائص التعريف والتنكيـــر ما لم تستأنس بما ذكره النحاة الذيـــن حصنوا توا ليفهم مـــن الرياضة النحوية ، وحاولوا ان يكشفوا فيها عـــن أسرار اللغة في التعبير ، ومقاصده في البيـــان ، ولا شـــك أن النحاة الأوليـــن كانوا أعرف بهذه الأسرار وأقوى ادراكا لها نلحظ ذلك واضحا في كتاب سيبويه ثم في كتب معاني القرآن علـــى

اختلاف نزعات أصحابها النحوية ، كمجاز القرآن لأبي عبيدة ، ومعاني القرآن للفراء ويقرب منهما في هذا الاتجاه الزمخشري في المفصل ، وشرحه لابن يعيش ، ثم المغني لابن هشام ، وانا لنجد في ابن هشام كثيرا من مناقشاته لاصول البلاغة في حديثهم عن الأدوات ومعانيها وما يمكن أن تخرج اليه من معان ثانية نجد ذلك واضحا في حديثه عن لو واستعمالاتها ثم في كلامه عن عموم السلب وسلب العموم وتكرار النكرة في التعبير عن معنى وما اليها مما يلقاه المتصفح لهذا الكتاب ، أما مفصل الزمخشري فقد ساعده على ما أورد فيه من بيان أسرار اللغة حسه الفني الذي امتاز به برغم نشأته الفارسية ، وما أداه اليه اجتهاده من محاولات متكررة للكشف عن هذه الأسرار ،

دلالات الكلام عن عبد القاهر :

قد مر بك تعريف عبد القاهر للنظم بأنه تآخى معاني النحو وأن هذا التآخي قد ينتج دلالات أخرى غير الدلالات النحوية وهنا يقرر عبد القاهر

أن الكلام على ضربين

ضرب أنت تصل منه الى الغرض بدلالة اللفظ وحده كما في قولنا خرج زيد وذلك اذا أردت به الحقيقة التي لا يختلف في تقديرها اثنان

وضرب آخر أنت لا تصل منه الى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها الى الغرض ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل فالمعاني الثانية عند عبد القاهر مردها الى هذه العناصر

الثلاثة المؤلفة للصورة الأدبية عنده ثم يقول واذ عرفت هذا فههنا عبارة مختصرة وهي أن تقول المعنى ومعنى المعنى ويقصد بالمعنى ما يفهم من اللفظ بمجرد النطق به ثم يفضي ذلك المعنى الى معنى آخر

وهذا التفسير لأنواع الدلالة عند عبد القاهر هو ما أطلق عليه الأصوليون المنطوق والمفهوم ، فالمنطوق هو المعنى الذي تدل عليه الألفاظ المنطوقة والمفهوم المعني الذي يصل اليه الانسان من دلالات الالفاظ المنطوقة : وقد حصر عبد القاهر الوسائل التي تؤدي هذه الدلالات الثانية بالكناية والاستعارة والتمثيل أو الاستعارة التمثيلية ، وقد كشفنا من قبل عن رأي عبد القاهر في الاستعارة .

ومهما قيل في الدلالات الثانية فان عبد القاهر وصل كل أولئك بالنظم وعرض لأنواع الاستعارة غير أنه أشار الى أن الاستعارة برغم أنها مبنية على التشبيه فانه يقرر أن الاستعارة قد لا يستطاع أن تحل الى تشبيه كما أنه ينعى على كثير من المفسرين عدم ادراكهم للمعاني الثانية واسرافهم في حمل الكلام على ظاهره دون محاولة مثابرة لادراك هذه المعاني اذ يقول :

ومن عادة قوم يتعاطون التفسير بغير علم أن توهموا أبدا في الألالفاظ الموضوعة على المجاز والتمثيل أنها على ظواهرها فيفسدوا المعنى بذلك ويبطلوا الغرض ويمنعوا السامع وأنفسهم العلم بمواضع البلاغة وبمكان الشرف وناهيك بهم اذا هم أخذوا في ذكر الوجوه وجعلوا يكثرون في غير طائل ، هناك ترى مما شئت من باب جهل فتحوم وزند ضلالة قد قدحوه »

وهنا نسأل لم اتهم عبد القاهر أولئك المفسرين بما اتهمهم به .

والاجابة عن ذلك السؤال تحتاج الى الماع لما كان عليه المجتمع الاسلامي يومئذ من تنافر أدى اليه اختلاف المناهج ـ في فهم النصوص وبخاصة ما كان منها مبينا لأصول الاعتقاد فاذا عرفنا أن عبد القاهر عاش في القرن الخامس وهو الذي شهد تحولا آخر مجرى الحياة والفن ، نتيجة لما أصاب الدولة العباسية من تفكك وانقسام وما نتج عن ذلك من ظهور بيئات أخرى كل منها يحتضن مذهبا خاصا أو يدين بفكرة معينة سواء في الشام أم في العراق أم في الشرق بعامة ،

واذا كانت الشعوبية بمعناها العام قد ظهرت أوائل العصر العباسي وأنشأت تنادي بآرائها ومبادئها ، وكان قد دان بها كثير من الشعراء والادباء فانضموا اليها ودافعوا عنها فان أمثال هذه الاهتزازات التي أصابت المجتمع الاسلامي فمزقت وحدته ، وفرقت شمله ، قد حدثت ايضا في الفكر الاسلامي فمنهم الملحد ، والمعتدل في الاعتقاد ، ومنهم المجدد والمحافظ في التشريع ، ومن بينهم الشاعر أو الأديب الذي يرى في المروى من الشعر المثل الفنية الرفيعة التي يحاول أن يتطاول أليها ومنهم الفنان الذي يعتقد أن الجدة أفضل من القدم ، وأن السير خير من الوقوف لأنه دليل الحيوية الدافقة ، والتجدد المطرد ،

واذا كان عبد القاهر كان أشعريا في الاعتقاد ، فانه كان يرى أن هذه الاشعرية ينبغي أن لا تقف عند ظاهر النص بل لا بد من فهمهما على هدى من اللغة مع مراعاة التنزيه في الاعتقاد ، ولا يتأتى

هذا التنزيــه الا اذا أولت الآيات المحددة لأصول هــذا الاعتـــقاد ، والواصفــة للذات العليــة ، بمــا يحقق أكمل صور التنزيه وأبعدها عن الدنــو مــن الحوادث التي تعيش على الأرض ،

ومــن هنــا يشير عبد القاهر الى ان التأويل هو الأصل أو المعاني الثانيــة هي ما ينبغي أن يسعى الى الوصول اليــه الشاعــر أو الأديب أو المفسر على أن لا يفعل المعنى النحوي لأنه أساس المعاني الثانية التى يطمع كل منهم في الوصول اليهــا .

ونلاحظ أن عبد القاهر هنا فرق بيــن الاستعارة والتمثيــل وهو ملحظ دقيق فاذا كانت الاستعارة تعتمــد على النقل أو على الادعـــاء باعتبار أن الذي استعيــر له اللفظ أصبح فردا مــن أفراد الاسم المنقول أو بعبارة أدق أصبح المستعار له فردا مــن أفراد الماصدق المدلول عليــه باللفظة المستعار ــ فان هذه الاستعارة نقل في لفظ مفرد لا في تركيب يدل على مجمــوعة من الصور المتلائمة فيما بينها حتى أصبحت تكون صورة واحــدة يمكــن أن تندرج تحتها صور تجتمع واياها ــ في أمـــور متشابهــة ، فالاستعارة في أصل وجودها غير التمثيل ، واذا كان بعــض الباحثين قد اتهمــوا العرب بانهم لم يدركوا كتاب الشعــر لأرسطو ولم يحسنوا فهمه وتطبيقــه فان أولئك المتهميــن هم الذيــن لم يحسنوا فهم كتاب الشعــر ولم يصلوا الى وجه اليقين في تحديـــد الظروف والملابسات التي أحاطت بترجمة هذا الكتاب ــ فان الثابت أن كتـــاب الشعــر قد كتبه ارسطو بعد أن مرت الحياة النقدية الأدبية بمراحـــل تاريخيــة ابتدعت فيــها كثير مــن الفنون الأدبية التي أمدت انتقاد بكثير

مـن الأصول الدقيقة التي أعانتهم على تطوير العمل النقدي •• والعرب حيـن ترجمـوا كتاب الشعر لأرسطو لم تكـن لديهم هذه الفنون التي يطبقون عليهـا كتاب الشعر ، ومـن هنـا تحدثوا عـن التمثيل في العبارة ، وحديثهم عـن التمثيـل تلمح فيه فكرة المحاكاة التي ينهـض عليـها العمـل التمثيلي وكلام عبد القاهر في قولهم مالي أراك تقدم رجلا وتؤخر اخرى فيه الدلالة على فهمهم لأصول المحاكاة والدليل على ادراكهم لفكـرة التمثيـل أنهم كرروا القول في التشبيه التمثيلي وفي الاستعارة التمثيليـة وأن التشبيه التمثيلي وان كان يعتمـد على صور منترعـة مـن أمور متعددة الا ان عمليـة النقل فيه ليست واضحة وضـوح الاستعارة التمثيليـة التي اقرها المجتمع حتى أصبحت جزءا مـن رسومه الفنيـة وتعاليمه الادبيـة تحمل معها تجارب حيـة نابضة بالحركة والحياة

الوصل والفصل :

اذا كان عبد القاهـر قد تحدث عـن النقل في صوره المتعـددة وأشكاله المختلفـة وأن هذا النقل كان يتم في لفظ مفرد أو عبارة تحمل معها ماضيا تاريخيا فانه لم يفته أن يتحدث عـن الفصل والوصل بين الجمل وهو ما يمكـن أن يحدث معه اتساق النظم وتلوينه بحيـث يؤدي دوره في عرض الفكرة موصولة الأسباب بالمنتج ، ثم بالأشخاص الذيـن يفهمـون النص الادبي جملـة وتفصيلا ويعرف البلغاء الوصل بأنه عطف بعض الجمـل على بعض بألواو والفصل ترك العطف بالواو الى عدم ، العطف أو العطف بأدوات أخرى غير الواو كالفاء وثم وأو •

وحـــين تحدث البلغاء عــن الوصل أدركوا أن العربية تمتاز عن غيرها بكثرة حروف العطف وهذه الكثرة قد يسيء الأديب استعمـــالهـــا فلا يفرق بين الادوات تفريقا جوهريـــا يعصمه مــن الخطأ في استعمالها أو الترخص في هذا الاستعمـــال بحيـــث لا يتحقق معه الغاية المرجوة من ادراك الفروق الدقيقة بـــين هذه الادوات مرتبطـــة بالفكرة التي يـــراد اداؤها واستمع اليـــه يحدثك في افاضة عــن صعوبة هذا الباب ودقته : يقــــــول :

اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل مـــن عطف بعضها على بعض او ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة تستأنف منها واحدة بعد أخرى مـــن أسرار البلاغة ومما لا يتأتى تمـــام الصواب فيه الا للأعراب الخلص والأقوام الذين طبعوا على البلاغة وأوتوا فنا من المعرفة في ذوق الكلام وقد بلـــغ من قوة الامر في ذلك أنهم جعلوه حدا للبلاغة » .

وهنـــا يفرق عبد القاهر بيـــن الأعراب الخلص في ذوق الكـــــلام وادراك مقاصده ومراميـــه وبيـــن غيرهم ممـــن لم يؤتوا هذا الذوق الا عند طريق الممارسة الواعية للنصوص ، وأسرار اللغة في التعبير ، واذا كان الأمر على هذا النحـــو فان الحديث عــن الفصل والوصل لا تكفي فيه علامة الترقيم التي يدعو اليها الاستاذ أميـــن الخولي في محاولته المجددة للدرس البلاغي ، ذلك أن علامات الترقيم ليست الا دلائل على هـــــذه الأسرار التي لا يستطاع دركها الا بدراسة واسعة مستفيضة ، وفكرة النظم القائمة على العطف بيـــن الجمل أو ترك العطف تعتمد أساسا علـــى

النحو وهو الذي يعالج فيما يعالج أساليب الوصل بين الجمل عن طريق العطف بالواو .

وانما خص البلغاء الوصل بالعطف بالواو لأن هذه الاداة لاتفيد غير الاشتراك في الحكم سواء أكان هذا الحكم اعرابيا ام غير اعرابي بأن كانت الجملة الأولى تمتاز بخصائص لا يراد اشراك الجملة الثانية فيها

والحق أن عبد القاهر أصل في الوصل والفصل أصولا تبناها البلغاء الخالفون وأداروا تقسيماتهم له على هدى منها

ومن هذه الأصول ، أن العطف بالواو يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه ، وأنه لا يمكن الوصل الا أن تكون ثمت مناسبة بين المتعاطفين ، وأن هذه المناسبة يمكن لمحها اما من وجود تضاد بينهما ، أو تناقض ، أو وحدة في الموضوع ،

والقصد من المناسبة أن يكون بين الأمرين المتعاطفين ما يقتضي تداعيهما في الذهن حسب ما يشير اليه قانون تداعي المعاني .

ومن هذه الأصول : أن الجملتين اذا كانتا بمعنى واحد أو قريب من التوحد وجب فصلهما ، كما أنهما اذا اختلفتا من ناحية الصيغة وجب فصلهما وكذلك اذا اتحدتا وأدى العطف الى ايهام خلاف المقصود وجب الفصل .

ولا ضرورة الى التعقيد او الالتزام بهذه المصطلحات المشتتة للذهن ككمال الاتصال وكمـال الانفصال وشبه الكماليـن •

كذلك أشار عبد القاهر الى أن الجمـلة الثانية اذا كانت علة الحكم السابق وجب فصلها ذلك لأن العلة والمعلول كالشيء الواحد ، والعطف بطبيعته يقتضي المغايرة •

كمية المعنى وطرائف تحديد هذه الكمية وحصره عـلى فرد او حصر فرد عليه :

الواقع أن عبد القاهر في تحديده للمعنى نظر الى أمريـن أولهمـا المعنى المدلول عليـه باللفظ ثم المعنى الثاني المعبر عـنه بالمفهوم •

وتحديد كميـة المعنى ينظـر فيه الى هذيـن النوعيـن مـن المعنى المنطوق منهمـا والمفهـوم •

فاما وسائل هذا الحصر أو القصر كمـا يسميه البلاغيون فاربعـة وهـي :

١ ــ النفـي والاستثناء

٢ ــ انمـا

٣ ــ العطف بـل أولا او لكـن

٤ ــ تقديـم ما حقه التأخيـر

وهذه الأدوات الثلاث الأولى تعيـد القصر بطريق الوضع اللغوي اما تقديم ماحقه التأخيـر فانه تفيد القصربطريق الفحوى أو النظم

وكل هذه الادوات تفيد القصر في الحدود التي خصها بهما النحويون فاذا استعمل الأديب أداة مكان أخرى لاعتبارات يلحظها كان ذلك هو المعنى الثاني

وقد أفاض عبد القاهر في بيان معاني هذه الأدوات وطرائق استعمالها وحجته في ذلك أنه ينير السبيل امام الأديب شاعرا كان أو ناثرا لدقة الاستعمال والتفنن فيه •

والمعروف أن النفى والاستثناء يستعمل في مقام الانكار الناتج من دقة المعنى ، واهمية الفكرة والقرآن الكريم يستعمله في تأكيد بشرية الرسول أو تأكيد ملائكية يوسف فيما يرويه القرآن مما جرى على ألسنة صواحبات أمرأة العزيز •

وعلى العكس انما ، تستعمل في مقام لا يعمق فيه الانكار بحيث يستبد بنفسه المخاطب • أو فيما كانت فيه الفكرة المعروضة شيئا يكاد يصدقه العقل أو تألفه العادة •

أما تحديد المقصور والمقصور عليه فهذه مسألة تقليدية مقررة لا مجال فيها للاجتهاد والتصرف غير !ن هنالك أمورا يعدونها من باب القصر كتعريف الطرفين وضمير الفصل بين المبتدأ والخبر أو الايجاز في مقام الاطناب أو ما الى ذلك من الأمور التي تتعلق بطبيعة اللغة •

وليس تحديد كمية المعنى أو قصره خاصا بالعربية وحدها فأن اللغات تكاد تعرف وسائله ومسالكه لارتباطه بالفكر والتعبير عنه

اعجاز القرآن وصلته بالنظم :

أشرت من قبل الى أن قضية الاعجاز ترتبط دائما بكتاب وأن هذا الكتاب لقي من أهله والدائنين به تقديسامللك عليهم منافذ الاحساس فلا يكادون يدينون باعجاز كتاب آخر له مثل هذه المكانة في قومه الذين نزل عليهم وظهر بينهم رسول أو داعية يؤكد اعجازه وتفوقه بحيث لا تتطاول اليه طاقاتهم مهما بلغت من القوةوالتمكن ولا سبيل الى بيان اسباب هذا الاعجاز الا بدراسات واسعة تتناول كل ما يتعلق بهذا الكتاب من ناحية الفكرة وعرضها ، وألفاظه ونظمها ، وما انفرد به من أساليب لم يألفها أهله وان كانوا أهل هذه اللغة التي نزل بها ولهم وحدهم حق التصرف فيها بما يجعلها طيعة لهم ، سهلة عليهم •

وقد عرفت أن عبد القاهر يكاد يحدد الاعجاز في النظم •

وقد عرفت أن النظم عند عبد القاهر لا يكاد يقف عند حد رصف الكلمات ورعاية جرسها وائتلافه وانما يعالج ــ الى هذا كله ــ قضية الفكر والمعاني التي تدور فيه وكيف يستطيع الأديب البارع أن يؤلف بين هذه المعاني على نحو فريد لم يسبق اليه ان كان من اهل الاصالة والابتكار ، أو ان يؤلف بين الموروث منها بحيث يؤدي هذا التأليف الى توليد صورة فنية جديدة لا تلمح فيها الا آثار مادة موروثة •

واستمع الى عبد القاهر يكشف لك عن رأيه في قضية الاعجاز اذ يقول :

وههنا أمر عجيب وهو أنه معلوم لكل مـن نظر أن الألفاظ من حيث هـي ألفاظ وكلم ونطق لسان لا تختص بواحد دون آخر وأنها انمـا تختص اذا توخى فيها النظم واذا كان كذلك كان مـن رفع النظم مـن البيـن وجعل الاعجاز بجملته في سهولة الحروف وجريانها جاعـلا له فيمـا لا يصح اضافته الى الله عز وجل •

وهكذا كان النظم عند عبد القاهر يكاد ينحصر في هذه الخطى :

١ ــ فكـرة يراد ادائها

٢ ــ ألفاظ تختار على قدود هذه المعاني

٣ ــ ترتيـب الألفاظ على ما تقتضيه صناعة النحو

٤ ــ جعل الترتيـب ملائما لترتيب المعاني في النفس

٥ ــ اختيار الألفاظ على أساس مـن ملاءمة الجرس للنكرة

٦ ــ استنباط المعاني الثانية مـن واقع النظم فاذا ما حاولـنا أن نقيـم نظرية عبد القاهـر في النظم وأن تتخذها أساسا قيما محاولـه مـن تحليـل الأعمـال الأدبيـة والكشف عـن الجديد فيها اوالموروث الذي صاغته صياغة جديدة •

احتجبنا الى جملة أمور لا بد أن نضعها في الاعتبار وأن نحدد مكانها في سيـر العمل النقدي الذي نحاوله

وأول هذه الأمور وأحفلها بالعناية : الفكرة المعروضة ومدى مـا بينها وبيـن صاحبها مـن تجاوب أو تنافر ولا سبيل الى الحكم على

هذه الاشيـاء الا بالتعمـق في شخصية صاحب العمل الأدبي لنعـرف الدوافع والحوافز ، والأهداف ، والغايات ، وما بينهمـا مـن الوسائل التي اتخذها الأديب للكشف عـن هذا كله •

ثم نظر بعد هذا كله الى الفكرة مـن ناحية تركيبها في ذهـن صاحبها ، وهل كانت فكرة مدروسة أولاها مـن عنايته وتقديره مـا تستحقه أو أنها مجرد دفعة عاطفيـة محرومة ، أو مهتورة ، أو منهومـة

وبهذا نستطيع أن نقيم كثيرا مـن شعر الغزل الذي نكتفي بوصفه بأنـه شعر خليـع أو فاجر أو •• أو ••• دون أن نتابع البحث عمـا وراء •

وخذ مثلا لذلك شعر بشار في الغزل وهل كان يصدر فيه عن تقديره لفكرة الجمال ، وأثرها في المجتمع ، تحفزه الى العمل ، وتشد مـن عزمه، وتفتح له أبوابا واسعة مـن التفاؤل المؤدي الى تأميـن سلامة الحياة ، وعمـارتهـا

وهنـا نلحظ أمرا شديد الخطر في الدراسات الادبية وهو أن بشارا أو اضرابه مـن أولئك الشعراء لم تكـن لديهم فكرة واضحة عن الجمال الا ما ارتسم في أذهانهم مـن أنه وسيـلة ارضاء الرغبة واشباع الشهوة فحسب ، أما ما وراء ذلك مـن أنه ميزان توزن به الشخصيـة السوية ، يصدر صاحبه فيه عن دراسة واعية وادراك نافذ ، وتقدير قوي لوظيفة الجمـال في هداية الحياة ، وسلامتها •

كذلك نستطيـع أن نقيم شعر الهجاء بعد ان خلا مـن تلـك

المنافرات القبلية واتجه الى الشخصية ونلحظ ذلك واضحا عند الجاحظ في البخلاء ، وعند ابن الرومي في شعره

فان كليهما يدرس شخصية المهجو دراسة أصيلة واعية متخذا ما يصدر عنها من اعمال دلائله في استننباط المعاني النفسية التي تدور في وعيه ، وهكذا نرى أن نظرية النظم ليست من الهوان بحيث يستطيع القول فيها من لم يحسن فهمها والحق أن فكرة النظم تقوم على مبدأين أولهما التركيب وثانيهما التحليل .

فأما التركيب فيكاد يتحدد في بناء العمل الفني وأما التحليل فيختص بالتفسير الكاشف عن كل أداة أو وسيلة من وسائل هذا التركيب .

وبعد فتلك هي الملامح العامة للدراسة البلاغية ، وقد كشفت لك عما انتهى اليه الأمر في درسها بتلخيص بعض فنونها ولا يقف الأمر عند حدود هذه المصطلحات التي تتقاذف وعيك وادراكك فلا تكاد تستقر في أية زاوية من زواياه وانما البحث البلاغي اصول وقواعد

تعتمد على دراسة اللغة ووظيفتها ثم تطورها الدلالي ثم النظم بهذا المعنى الذي كشف عنه عبد القاهر ،

وقد تبين لك مما ذكرناه في حديثنا عن اللغة وتطورها الدلالي أن التصور اللغوي عند العرب لم يكن يسير في طريق واحد وانما اختلف باختلاف المستعملين لهذه اللغة ، وقد قارنا بين بعض هذه التصورات بما يكشف لك عن وجوه المشابهة بينها .

فمثلا نرى الأصوليين يقولون بالمنطوق والمفهوم ونرى البلاغيين يقولون بهما ثم يكلمون القول فيهما بحديثهم عـن الكناية •

ونستطيـع بعد هذا كله أن يفرق بيـن المجاز والكناية بأن الأول يعتمـد على النقل أما الكناية فلا نقل فيها وانمـا هي تعبيـر أو ألفاظ لها لوازم يمكن أن يريدها المتكلم تحقيقا منه لقضية الوصف بمضمونها ،

وهكذا نرى ان البحث البلاغي في حملـة أمر لم يصبه الجمود الا نتيجـة ما جمـد عليـه اصحابه مـن تكرار لمصطلحات لم يحدد مكانها مـن سلسلة التطور اللغوي •

فكرة الذوق وعملها في تقييم الاثر البلاغي :

يقرر عبد القاهر ان الاحساس بالفكرة وعمقها ، وطريقة النظم في ادائها هو الاساس الذي يرتكز عليه تقييم العمل الادبي وأن الناقـد والاديب مهمـا بذل مـن الجهد فانه لا يستطيع ابراز كل الأصول التي يعتمـد عليها ذلك التقييم اذ يقول :

وليس الأمر في هذا كذلك فليس الداء بالهين فيه ولا هو بحيث اذا رمت العلاج منـه وجدت الامكان فيه مع كل أحد مسعفا والسعي منجحا لأن المزايا التي تحتاج أن تعلمـهم مكانها وتصور لهم شأنها أمور خفيـة ومعـان روحانيـة أنت لا تستطيـع أن تنبه السامع لها وتحدث لـه علما بها حتى يكون مهيأ لادراكها وتكون فيه طبيعة قابلة لها ويكون له ذوق وقريحة يجد لهمـا في نفسه احساسا بأن مـن شأن هذه الوجوه والفروق أن تعرض المزية على الجملة فيها ومـن اذا تصفح الكـلام وتدبـر الشعـر فرق بيـن موقع شيء منها وشيء •

وعبد القاهر هنا ـ وفي غير ذلك الموضع من كتابه دلائل الاعجاز يؤكد أن فكرة الذوق القاضية على العمل الادبي لا تعتمد على دراسة مرتبطة بالنظم محددة في اطارات عقلية أو ذهنية يستطيع الدارس أن يضع يده عليها وأن يتخذها معايير أو مقاييس يقيس بها العمل الفني ، وانما الأمر في هذا كله بعد الدراسة والخبرة يعتمد على الذوق الرهيف ، والاحساس النافذ والادراك الواعي ولا سبيل الى تحصيل هذا الذوق الا بالتمرس بالأساليب ورواية الشعر وتفسيره ، والاحساس بوجوه الفروق بين صنيع الشعراء فيه ، حتى تتكون لدى الناقد ملكة يستطيع بها أن يمايز بين الجيد والرديء منه ، سواء في الفكرة أم في الصياغة .

وهنا يؤصل عبد القاهر أصلا وهو أن ادراك الجمال وأسراره يرتد الى أمور روحانية لا سبيل الى التعبير الدقيق عنها ، والى الكشف عن أسرارها ما دامت اللغة لا تملك من الوسائل المعينة على التعبير عنها طاقات كافية .

ومرد ذلك عنده الى أن المعاني الروحانية أمور تدرك ولا يعبر عنها

وربما كان ذلك لأن اللغة فيها من العجز ما فيها مما لا تطوع معه لهذا التعبير والتبيان .

وهنا يقارن بين طبيعة العلم ، وطبيعة الفن فيقول :

واذا كانت العلوم التي لها أصول معروفة وقوانين مضبوطة قد اشترك الناس في العلم بها واتفقوا على أن البناء اذا أخطأ فيه

المخطىء ثم أعجب برأيه لم يستطع رده عن هواه وصرفه عن الرأي الذي رآه الا بعد الجهد والا بعد أن يكون حصيفا عاقلا ثبتا اذا نبه انتبه واذا قيل له ان عليك بقية من النظر وقف وأصغى ..

فكيف بأن ترد الناس عن رأيهم في هذا الشأن ـ الفنون ولآداب ـ وأصلك الذي تردهم اليه وتعول في محاجتهم عليه استشهاد القرائح وسبر النفوس فليها وما يعرض فيها من الاريحية عندما تسمع وكان ذلك الذي يفتح لك سمعهم وبكشف الغطاء عن اعينهم ويصرف اليك أوجههم وهم لا يضعون أنفسهم موضع من يرى الرأي ويفتى ويقضى الا وعندهم أنهم ممن صفت قريحته وصح ذوقه وتمت أدواته .

فقد فرق عبد القاهر بين العلم والفن وأن العلم يعتمد على قواعد يمكن أن تتخذ معايير للحكم على الحقائق الواردة فيه أما الفن فان له ادواته ولكنها أدوات محدودة بحدود الصورة الفنية أما البحث عن روح هذه الصورة وبيان ما فيها من وجوه الابداع والجمال فلا يجتمع لهذه الادوات وانما تحتاج الى دربه خاصة وادراك بصير وقدرة خارقة على اجتياز الحدود والرسوم الى الوصول الى جوهر العمل الفني ،

وقد فصل القول في الذوق وأثره في العمل الفني ابن خلدون في مقدمته في الفصل الذي عقده للكلام عنه ،

وبعد فهذه أصول نظرية النظم عند عبد القاهر وقد اتخذت في العصر الحديث أساس التجديد في الدرس البلاغي عند كثير من العاصفين الخالفين .

المعـــاني :

يعرف البلاغيون هذا العلم بأنه الذي يحترز به عـــن الـخطأ في التعبير بالصور اللفظية عـن الأفكار والمعاني المتصورة في الذهــن .

أو بأنه العلم الذي يعرف به أحوال اللفظ العربي مـن ناحية مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحة الألفاظ المعبـرة عـن الفكرة ، وكلا التعريفين يكشف لنا عـن طبيعة علم المعاني ، ووظيفته في التعبير عـن الفكر تعبيرا يلائم أحوال المخاطبين وقدراتهم في الفهم ، ومدى ما يكون لديهم مـن الاستعداد لتقبل الفكرة التي يراد أداءها .

وقد أثار تعريف القدماء أمريـن :
هما الحال والمطابقة لمقتضى الحال

والمراد بالحال الأمر الداعي للمتكلم الى ايراد كلامه على نحو خاص كالتوكيـد ، أو القاء الخبر بدونه ، أو الاغراق في أساليب التوكيد رعاية لما كان عند المخاطب مـن شك في مضمـون الفكرة المعبر عنها .

أما المطابقة فهي ايراد الكلام طبقا لهذه الحال .

موضوع علم المعاني :

موضوع هذا العلم هو الجمـلة وهي تتألف من مسند اليه ومسند :

والمسند اليه ما يتحدث عنه ويشمل المبتدأ الذي له خبر والفاعـل ونائب الفاعل واسم كان واسم ان واسم ما الحجازية واسم لا النافيـة للجنس ، والنافية للوحدة .

او بعبارة أدق ما كان أصله مبتدأ ثم دخلت عليه أداة من أدوات النسخ المعروفة في علم النحو .

أما المبتدأ الذي له فاعل سد مسد الخبر كما في قولنا :

ما قائم أخواك ، فليس بمسند اليه وانما هو مسند والمسند اليه هو الفاعل ، وانما أعرب قائم مبتدأ رعاية للصياغة النحوية وهو في الواقع مسند لأنه وصف للفاعل فهو بمثابة الفعل في الجملة الفعلية وانما أعرب هنا مبتدأ لأن النحو يأبى اعرابه غير ذلك .

والمسند هو الفعل والخبر ، واسم الفعل والمصدر النائب عن فعل الأمر .

وما زاد عن ركني الاسناد من القيود والاضافات والصفات فانها قيود ، كذلك الجمل الحالية وجمل النعت ليست داخلة في حدود الاسناد لأنها تحل محل المفرد فاذا قلت مثلا أقبلت الفتاة تبتسم فان جملة تبتسم بمنزلة مبتسمة وركنا الاسناد هما أقبلت والفتاة .

اقسام الجملة :

المعروف أن اللغة اما أن تعبر عن واقع حدث وانتهى ، أو عن أمر يستشرف المتكلم الى حدوثه ، والأول هو الجانب الوصفي من وظيفة اللغة ، او التقريري ، أما الثاني فهو جانب الدفع الى أمر يمكن أن تستفيد به الحياة في تطوراها وعمراتها ويصح أن يؤدي الى فساد الأمر واضطرابه ففيه احداثات جديدة لم تكن .

والأول يسمى الخبر والثاني الانشاء

وقد عرف البلاغيون الخبر بأنه ما يمكـــن أن يقال لصاحبه انك صادق أو كاذب اذا كان يتفق والواقع ، أما الثاني فلا يصح أن يقـــال لقائله انك صادق أو كاذب اذ ليس له واقع يمكـــن أن يقارن به فيحكـــم بصدق قائله أو كذبه •

الانشـــــاء

ينقسم الانشاء الى قسميـــن طلبي وغير طلبي •

فالطلبي ما يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطلب ويكون بالأمر والنهي والاستفهام والتمني والنداء وهي المجمـــوعة في قولهم :

مر ونه وارع وسل واعرض لحضهم

تـــمن وارج • كذاك النفي قـــد كمـــلا

وليس النفي منها وانما جيء به تكملة لقاعدة نحوية •

وأحيانا يطلق الخبر ويراد به الأمر تنبيها للمسارعة اليه ، وحثا على امتثال الأمر به ، وأغلب ما يستعمل هذا الاسلوب في مقام الـــدعاء ، أو التكاليـــف الشرعيـــة المؤدية الى اصلاح المجتمع وسلامته ، وتسمى هذه الجمل خبرية لفظا انشائية معنى ، كقولهم : غفر الله له ، ورحمه الله ، وكقوله تعالى والوالدات يرضعن أولادهن حوليـــن كامليـــن ، فانه يفهم منها الأمر بالارضاع ، كما في قوله تعالى : ولله على الناس حج البيت فانه يفهم منها الأمر بالحج •

أما الانشاء غير الطلبي فهو ما لا يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت

الطلب ، وله صيغ كثيرة منها التعجب والمدح والذم والقسم ، وأفعال الرجاء وصيغ العقود .

وليس المراد من التعجب الصيغ النحوية المعروفة وهي ما أفعله وأفعل به بل يشمل كل اساليب التعجب التي تواضع عليها أهل اللغة واستعملها المجتمع ، نحو لله دره فارسا ، ونحو يا للعجب ويا للماء ويا للعشب ، وما اليها من الأساليب التي تدل على دهشة ألمت بقائلها من امر رآه ، أو حادثة صادفها ، ونلاحظ أن الأسلوب غير الطلبي من الانشاء يعبر عن رأي أو فكرة ، أو موقف للمتكلم به ، فالمدح والذم ، والتعجب والرجاء ، وانجاز العقود كلها مما يتصل بصاحب الكلام .

ونلاحظ أن الأسلوب الانشائي من أخص ما يمتاز به الشعر من الأساليب ولذلك يكثر فيه بل نبه النقاد القدماء الى ضرورة الاكثار منه في الشعر .

قال بشار :

يا عبد حبي من قريب وتأملي عين الرقيب
وارعي ودادي غائبا فلقد رعيتك في المغيب

فقد استعمل صيغة الأمر ثلاث مرات كما استعمل اسلوب النداء وهو من أساليب الانشاء .

الجملة الخبرية :

الأصل في الخبر أن يلقي لأحد أمرين اما افادة المخاطب فائدة جديدة لم يكن يعرفها وتسمى فائدة الخبر أو افادة المخاطب أن المتكلم

عارف بذلك الخبر مع العلم المخاطب سلفا به، وأغلب ما يستعملهذا النوع من الاخبار في أمر يتعلق بالمخاطب حتى يكون عالما بمضمونه كقولك : أعرف أنك تصحو من النوم مبكرا لتذاكر دروسك •

هذا هو الأصل في الاخبار كما أن ما قدمناه في الكلام عن الانشاء هو الأصل في الانشاء فاذا استعمل أيهما في غير ما وضع له في أصل الاستعمال اللغوي كان خروجا عما وضع له اللفظ أو الأسلوب ويسمى عند البلاغيين خروجا عن مقتضى الظاهر •

والمراد بالظاهر هنا أصل الاستعمال اللغوي في دلالاته الأولى ، فالخبر للافادة، والانشاء لاحداث امر جديد ، فاذا استعملالخبر لغير ذلك والانشاء لغير ما وضع له كان ذلك خروجا عن الظاهر •

وعلى ذلك اذا خرج الخبر عن ظاهره الى معان أخرى يستشرف اليها المتكلم ، كان ما خرج اليه الخبر خروجا عن الظاهر • وهذه المعاني التي يستشرف اليها المتكلم كثيرة يمكن أن يحددها مفسر النص أو السامع له او قارئه من الظروف والملابسات ، ودراسة نفسية المتكلم والسامع معا •

فقد يلقى الخبر للاسترحام ، أو التحسر ، أو اظهار الضعف ، أو الفخر ، أو الرثاء ، أو الحث على السعي أو المجد •

ونجد في القرآن الكريم وفي الشعر كثيرا من الأمثلة لخروج الخبر عن ظاهره •

فزكريا اذ يقول : رب اني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ، لا يريد الا اهار الضعف •

والمتنبي اذ يقول :

أنا الذي نظر الأعمى الى أدبي
واسمعت كلماتي من به صمم

لا يقصد الا الفخر .

والشاعر الذي يقول :

اذا أنت لم تشرب مرارا على القذى
ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

لا يقصد الا الى الحكمة واسداء النصح .

وهكذا نرى ان الاخبار تخرج عن اصل وضعها الى معان أخرى يستشرف اليها الأديب على أن ادراكها مشروط بدراسة الظروف المحيطة بالنص وبصاحبه والملابسات المحتفة بهما معا .

اقسام الخبر او اضرب الخبر

هذا التقسيم خاص بطريقة تركيب الجملة حسب حالة المخاطب ، فان كان خالي الذهن أو بعبارة أخرى جاهلا بمضون الحكم ألقي اليه الكلام دون تأكيد نحو : محمد نجح في الامتحان ، ويسمى هذا الضرب من الكلام ابتدائيا .

وان كان مترددا في الحكم أكد اليه الكلام بما يلائم درجة التردد نحو : ان محمدا نجح ، ويسمى هذا الضرب طلبيا .

وان كان منكرا تمام الانكار اكد اليه بما يستطاع من الأساليب

اقسام الانشاء

الأمر : طلب الفعل على وجه الاستعلاء ، وله صيغ منها فعل الأمر

واسم فعل الامر ، والمضارع المقرون بلام الامر والمصدر النائب عن فعل الأمـــر •

والغرض مـــن ذكر كلمة الاستعلاء أن القصد أولا من الأمر حمل المخاطبعلى الامتثال به وتنفيذه ولا يتأتى ذلك الا اذا كان الآمر له سلطان على من وجه اليه الأمر ، فاذا كان المتكلم بلفظ الأمر ادنى مرتبة مـــن المخاطب به سمي دعاء كما في قوله تعالى : غفرانك ربنا واليك المصير •

فانه مصدر نائب عن فعل الأمر •

ذلك هو أصل وضع الأمر في اللغة وقد يخرج الى معان أخرى يمكن أن يلحظها السامع أو المفسر للنص •

منها التهديد ، والسخرية ، والتخيير ، والاباحة ، والارشاد ، والدعاء ، وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة لخروج الأمر عن ظاهره لمقاصد وأغراض •

وفي الشعر العربي كثير ،

فبشار يقـــول :

واستغـــن بالوجبـــات عـــن ذهـــب
لم يبـــق قبلك لامـــرىء ذهبـــــه

ويراد به الارشاد ، والقرآن يقول : قل كونوا حجارة أو حديدا ، والقصد منـــه التهديد ، كمـــا يقول أيضا في معرض السخريـــة مـــن

الكافريــن : فبشرهم بعذاب أليم •

وهنا نفرق بيــن الاباحة والتخيير ، فالاباحة ترتبط بأصل الحكــم كقولهم : تزوج هندا أو أختها ، أما التخيير فلأمور اخرى لا تتصل بحكم كقولهم : كل هذا أو ذاك ، أي أنت بالخيار في تناول أيهما شئت •

والقرآن حيــن يقول : كلوا واشربوا ولا تسرفوا ، لا يريد حقيقة الأمر بالأكل والشرب وانما يريد الاباحة •

وهكذا نرى أن الامر يخرج عن معناه الى معان أخرى يحددهـــا متذوق النص والمدرك لاسرار التعبير •

النهي : وهو طلب الكف عــن الفعل على وجه الاستعلاء أيضـــا وهو أصل وضع هذا الأسلوب في اللغة وهو المسمى بظاهر النص نحو قوله تعالى : ولا يأتل اولو الفضل منكم والسعة ان يؤتوا أولي القربى ، ونحو : ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون ، وصيغة النهي المضارع المقرون بلا الناهيــة •

وقد تخرج صيغة النهي عن معناها الحقيقي الى معان أخرى تستفاد من السياق وقرائن الاحوال ومنها الدعاء : لا تؤاخذنا بما فعــل السفهاء منا ، خطابا لله عز وجل ، والالتماس اذا كان المتكلم والمخاطب متساويي الدرجة الاجتماعية كقولك لزميــلك : لا تؤذني ، والتمني مثل قول أبي نواس في مدح الأمين :

يا ناق لا تسأمــي او تبلغــي ملكـــا
تقبيــل راحتــه والــركـــــن ســيان

ومنها الارشاد والتوجيه

نحـــو قول الشاعر :

ولا تجعــل الشورى عليــك غضاضــة

فريش لخوافي قــــوة للقـــــوادم

ومنها التهديد والتعجيز والسخرية وما اليها مـــن المعاني •

الاستفهـــــام :

هو طلب الفهم وهو أصل وضعه اللغوي ، وله أدوات كثيرة أهمها الهمزة ، وهل ثم بقية اسمــاء الاستفهام وهي مشتركة بيـــن الشرط والاستفهام كمـــن ، وما ، وأين ، ومتى ، وأيـــان •

الهمزة وهل :

يطلب بالهمزة أحد أمريـــن :

التصـــور أو التصديـــق •

والتصور هو ادراك المقرر أي أحد طرفي الجمـــلة وفي هذه الحالة يؤتى بالمسؤول عنه بعد الهمزة نحو : أراغب أنت عن آلهتي يـــا ابراهيم ؟ وغالبا ما يأتي المعادل في الجمـــلة مقرونا بأم نحو : أمحمد أم علي حضر ؟ وتسمى أم المتصلة •

أما التصديق فهو ادراك النسبة بين ركني الجمـــلة مثل : أذاكرت دروسك ؟ وفي هذه الحالة يمتنع ذكر المعادل ، أما هل فانها لطلب التصديق ولا يؤتي بعدها بمعادل فان جاءت بعدها أم قدرت بمعنى بل وكأنها بداية استئناف جمـــلة جديدة بعد الاضراب عـــن الأولى •

أما بقية أدوات الاستفهام فانها لطلب التصور •

فمـن للسؤال عـن الذات العاقلة ، وما لما لا يعقل أو الماهيـة ، وأين للمكان ومتى للزمان وكيف للحال وأيان للسؤال عن زمن مستقبل واني وتأتي لمعان كثيرة فتكون بمعنى كيف ومـن أين ومتـى ، وأي مشتركة بيـن جميـع هذه المعاني بحسب ما تضاف اليه •

أما كم فان كانت استفهاميـة دخلت بين أدوات الاستفهام وان كانت خبرية فليست مـن هذه الادوات •

وقد تخرج ألفاظ الاستفهام الى معان أخرى كالنفي والانكـار والتقرير والتوبيخ ، والتعظيم ، والتعجب والتسوية والتمني والتشويق •

فمثال النفي هل الدهر الا ليلة ونهارها لأن هل هنا بمنزلة ما بدليل نقض النفي بالا ، والتقرير كقوله تعالى الست بربكم ، والانكار مثل :

أيقتلنـي والمشرفـي مضاجعـي
ومسنونة زرق كأنـياب اغـوال

النـداء :

طلب الاقبال بحرف مـن حروف النداء الثمانية وهي الهمزة وأي ويا وآ وأي وايا وهيا ووا •

والهمزة وأي لنداء القريب وسواهما لنداء البعيد وقد يخرج النداء عـن معناه الى معان أخرى وقد ينزل البعيـد منزلة القريب أو العكس•

أما التمني والترجي فهما معروفان والاول يتعلق برجاء البعيـد حصوله والثاني برجاء الممكـن حصوله ويتمنى بليت وقد تستعمل هـل ولو ولعل لغرض بلاغـي •

ويترجى بلعل وعسى وقد تستعمل ليت لغرض بلاغي وانما يتمنى بهل أحيانا لجعل الأمر البعيد قريبا فيسأل عنه ويتمنى بلو للاشعار بامتناع الأمر المتمنى وعزته وندرته ذلك لأن الاصل في لو الامتناع

ونلاحظ فيما سبق أمرين :

اولهما ان الاستعمال اللغوي الاول أو وظيفة الاسلوب في الاداء اللغوي يسمى الظاهر وهو ميدان عمل أهل اللغة كما أنه نقطة بداية التطور الاولى في الدلالات اللغوية الثانية التي هي محل تصرف الأديب ، وميدان نشاطه ،

ويمكن أن نزيد الامر وضوحا بأيراد بعض الامثلة فالاستفهام طلب الفهم . تلك وظيفة في اللغة وتلك ميدان بحث اللغوي او النحوي كما يسميه بالظاهر وخروج الاستفهام الى معان أخرى كالتشويق أو الامر أو التهكم او التقرير ذلك عمل الأديب وتلك معان ثانية لا يشتشرف اليها الا البصير بصناعة الادب ولا يرقى الى ابرازها الا الناقد العالم بجيد الكلام ورديئه .

وخلاصة القول :

أن البلاغي مطالب بأن يعرف ذلك التطور الدلالي واثره في استعمال اللغة ، على ألسنة المتصرفين في فنونها المختلفة .

القصر :

تجري على ألسنة الباحثين ثلاثة اصطلاحات وهي القصر والحصر

والتخصيص والفروق بينها دقيقة

فاما القصر فهـو تخصيص أمر بأمر بأداة الفرض

وطرق القصر أبعة :

١ ـ وهي النفي والاستثناء وهي ما والا وان النافية والا ، وهل والا

٢ ـ انمـا

٣ ـ العطف بلا أو بل أو لكـن

٤ ـ تقديم ما حقه التأخيـر

وتفيـد الادوات الثلاث الأخرى القصر بطريق الوضع اللغوي أمـا الأخير فانه يفيـده بطريق الفحوى والنظر في طبيعة التركيب وظروفـه والفكـرة المعبـر عنها ،

الجملة المقصورة :

نلاحظ أن الجمـلة المقصورة تتركب مـن مقصور ومقصور عليـه وادات قصـر .

والمقصور عليه في النفي والاستثناء ما بعد الا

نحـو قوله تعالى وما محمـد الا رسول فأنه قصر محمـدا على الرسالة وحدها دون نظر الى بقيـة الصفات

والمقصور عليه في انمـا هو المتأخر وانما نحو انما محمد كريم فقد قصر محمـدا على الكرم دون غيره مـن الصفات

والمقصور عليه العطف بلا السابق عليها نحـو محمـد كريـم لا بخيـل ، وفي العطف بيل أو لكن ما بعدها . م االارض ثابتة لكـن

متحـــركة منت قصر الأرض على الحركة ، والمقصور عليه في التقديم هو المقـــدم نحـــو اياك نعبـــد واياك نستعين •

الفروق بين ادوات القصر :

تستعمل ما والا أو النفي والاستثناء في مقام الانكار لأصل الحكـــم المدلول عليـــه بالجمـــلة أو ما ينزل فيه المخاطب منزلة المنكر نحو ومـــا محمـــد الا رسول قد خلت مـــن قبله الرسل ، وقد ذكر عبد القاهر في دلائل الاعجاز أن الاية نزلت لما اشيـــع أن الرسول مثل في غزوة أحد وأن بعض المسلميـــن الأولين كانوا يستكثرون ان ينزل به الموت فنزلت الاية مصورة لما كانوا عليـــه حيال هذه القضيـــة ، وقد قصرته الآية علـــى الرسالة وهي وظيفته الأولى التي اختاره الله لها دون تبريه مـــن الموت أو ما يعرض له مـــن المخاطـــر التي تعرض لبني الانسان •

أما انمـــا فانها تستعمل في مقام لا انكار فيه فالمضمون الواردة فيه لا مشاحة فيه ولا جدال عليـــه بالقدر الذي حول مضـــــمون النفـــي والاستثناء كمـــا في قوله تعالى وانما حرم عليكم الميتة والدم ولحـــم الخنزيـــر ، وقد ذكـــر المفسرون أن معنى الآية ما حرم عليكـــم الا الميتة فهي بمثابة النفي والاستثناء •

وقد ينزل ما هو موضع الشك موضع الثابت الذي لا مشاحة فيه كمـــا في قول الشاعـــر في مدح مصعب ابـــن الزبيـــر

انمـــا مصعـــــب شهاب مـــن الله

تجلـــت عـــن وجهـــه الظلمـــــاء

اقسام القصر :

ينقسم القصر الى قسمين : قصر صفة على موصوف وقصر موصوف على صفة فمثال الأول ما كريم الا محمد ومثال الثاني ما محمد الا كريم •

كما أنه ينقسم الى حقيقى واضافي فاذا كان القصر يختص فيه المقصور بالمقصور عليه بحسب الحقيقة والواقع بحيث لا يتعداه الى غيره سمى قصرا حقيقيا وان كان بالنظر الى امر اخر سمى أضافيا والقصر الحقيقي ليس موضع نظرا البلاغي وانما القصر الاضافي محل اعتبار البلاغي ونظرته ، والافتنان فيه •

وهو ينقسم بحسب حال المخاطب الى قصر افراد وقصر قلب وقصر يقين وكل منها بحسب الاعتبار فاذا قلت مثلا ما محمد الا كريم لمن يعتقد انه كريم لا شجاع كان قصر افراد وكان قصر قلب لمن يعتقد فيه الشجاعة دون الكرم وان كان مترددا في اثبات أي الصفتين له كان قصر تعيين •

موقف البلاغى من هذا الاسلوب :

يتحدد موقفه في استعمال بعض أدوات القصر والمفاضلة بينها ، كما يعني بالقصر الاضافي ، أما القصر الحقيقي فلا يدخل في نطاق عمله وربما كان ادخل في باب العلم والقانون

الفصل والوصل :

الأبواب الماضية في علم المعاني تتعلق بالجملة وتأليفها وما قد

يدخل عليها مـن ادوات تكسبها قيدا أو فكرة جديد وهو أشق ابواب هذا العلم اذ يحتاج الى حصافة وعمق اوراك ، يتهيأ معهما نـوع مـن الادراك لحقيقة المعاني التي تدل عليها الجمل وصلة كل منها بالآخر .

والفصل والوصل كغيره منـه ما يتعلـق بعلم النحـو ، وهـذا لا مجال لتصرف البلاغي فيه ومنـه ما يتعلق بالفكرة نفسهـا والتصرف في عرضها والافتنان في بيانها وجلائها .

ويعرف البلاغيون الوصل بأن العطف بالواو والفصل ترك العطف

ويجب الفصل بيـن الجملتيـن في ثلاثة مواضيع :

١ ـ أن يكون بينهمـا اتحاد تام وذلك بأن تكون الجملـة الثانية بيانا او توكيدا او بدا من الاولى بحسب نظرة الاديب وتقديره ويسمى الفصل في هذه الحالة بكمال الاتصال ، ذلك لان العطف يقتضي المغايرة بين الجملتين ولا مغايرة بينهما ولذلك وجب الفصل .

فمثال التوكيـد قوله تعالى ذلك الكتاب ، لا ريب فيه فجملة ذلك الكتاب والة على أنه كتاب الحق الذي ريبة فيه والجمـلة الثانية انمـا جاءت توكيدا للجملة الأولى ، ومثال البدل قوله تعالى امدكم بما تعملون أمد كم بأنعام وبنين جنات وعيون فان الجملـة الثانيـة بمنزلة البـدل مـن الجمـلة الأولى ،

واذا كان بيـن الجملتيـن تمـام الخلاف والتبايـن كاختلافهمـا في الخبرية والانشائية أولا يكون بينهمـا مناسبـة تقتضي الوصـل وجب فصلهمـا ويسمى كمـال الانقطاع ومـن ثم عابوا على ابي تمام قـولـه .

لا والذي هو عالم أن النوى صبر وأن أبا الحسيـن كريم اذ لا مناسبة بين مرارة النوى وكرم ابي الحسين •

٣ ــ يجب الفصل اذا كان الجمـلة الثانيـة بمنزلة جواب لسؤال مقدر ناتج عـن الجمـلة الأولى ويسمى شبه كمـال الاتصال

نحـو ومـا أبرىء نفسي ان النفس لأمارة بالسوء وغالبا ما يؤكد الجمـلة الثانيـة بان كما في هذه الآية ،

وقد ذكر بعض المتأخرين مـن مواضـع الفصل الاستئنـاف وعدوا منها أن تبدأ الجملـة الثانية بما انتهت اليه الجملـة الاولى ،

نحـو أ حسنت الى زيد زيد حقيق بالاحسان ولكن هذا الموضع عنـد التأمل يرجع الى شبه كمـال الاتصال بالمعنى الأول فلا ضرورة لعده بابا مستقلا ،

مواضع الوصل :

ويجب الوصل في ثلاثة مواضع •

١ ــ اذا قصد اشراكهمـا في حكم اعرابي نحـو زيد يلهو ويلعب

٢ ــ اذا اتفقا خبرا وانشأ مع وجود مناسبة بينهمـا نحو محمد رسول اللـه والذيـن معه أشداء على الكفار رحما وبينهم ــ تراحم ركعـا سجـدا •

٣ ــ اذا اختلفا خبرا وانشأ وأوهم الفصل خلاف المقصود نحـو لا وأيدك اللـه

٤ ـ اذا كان للجمـلة الأولى معنى زائد لا يراد اعطاؤه للثانية نحو ما محمـد الا كريم زيد بخيل فالجمـلة الأولى مقصورة ولا يراد نقل القصر الى الثانيـة بطريق العطف •

الايجاز والاطناب والمساوة :

المساواة أن تكون الألفاظ على أقدار المعاني ، نحو قوله تعالى ، مـن يعمـل سوءا يجز به ، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم ، مـن حسـن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه فانك لا تجد في هذه العبارات تقسيما ولا ايضاحا ، ولا قيودا ، واذا حذفت منها كلمة فسد المعنى ، واضطرب أمـــره

الايجـاز : جمع المعاني كثيرة تحت اللفظ القليل مع الابانـة والافصاح وهو نوعان

أ ـ ايجاز قصر ويكون يتضميـن الكلام القصير معاني كثيرة نحو له تعالـى •

ولكـم في القصاص حيـاة •

ب ـ ايجاز حذف وذلك بحذف بعض الجمـلة كحرف من حروفها أو فعل أو اسم ، لأن في الكلام دلالة عليه ولأن المعنى بدون ذكـره يستقيـم •

كمـا في قوله تعالـى :

فاما الذيـن أسودت وجوههم اكفرتم أي يقال لهم اكفرتم ، وكما

في قوله تعالى ولو أن قرآنا سرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ، بل لله الأمر جميعا فجواب لو محذف تقريره لكان اياه وكما في قول المتنبي ٠

أتى الزمان بنوه في شبيبته ٠ فسرهم واتيناه على الهرم

أي فسرهم ولم يواتنا بما يسرنا به كما فعل مع السالفين ٠

الاطنـــاب :

الأطناب زيادة اللفظ على المعنى لفائدة يقدرها المتكلم ويكون بعدة أمور : منها ذكــر الخاص بعد العام أو العكس

والايضاح بعد الابهام

والتكرار لداع مــن الدواعي التي يتطلبها الموقف والاعتراض ٠

والتذييل وهو تعقيب الكلام بجملة تشتمل على معناه توكيدا لــه وهو قسمـــان

أ ــ ما جرى مجرى المثل ان استغني عمــا قبله

ب ــ ما لم يجــر مجرى المثل ولا استغناء له عمــا قبله ٠

والاحتراس لدرء شبهة قد تعرض للمتكلم ان لم يحترس ، فيفطــن لها ويدفعها عــن نفسه ،

فمثـــال الخاص بعـــد العام

جاء مجلس النواب ورئيسه

ومن قوله تعالى تنزل الملائكة والروح فيها ومثال العام بعد الخامس

رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات

ومثال الايضاح مبد الابهام

وقضينا اليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين

ومثال التذييل قول الخطيئة

تزور فتى يعطي على الحمد ماله

ومن يعط أثمان المحامد يحمد

ومثال الاحتراس :

صببنا عليها ـ ظالمين ـ سياطنا

فطارت بها أيد سراع وأرجل

فقد رأينا بعد هذا العرض لعلم المعاني كما اصطلح على تسميته في القرن السادس الهجري على يد السكاكي أن البحوث التي أثارها أصحاب الدرس البلاغي فيه منها ما هو متصل بالنحو وهو تحديد الوظيفة الأولى لكل اسلوب ومنها ما يرجع الى تصرف الاديب وفطنته وتقديره للفكرة ، وصلتها بحياة الناس الذين ينتج الادب لهم ،

وهذا التناول هو ما يسميه عبد القاهر ، بالمعنى ومعنى المعنى ، والواقع ان الاديب لا يستطيع التصرف في المعنى النحوى او المعنى الاول ، وانما تتحدد قدرته في التصرف في معنى المعنى ،

ومن هنا قد يدخل على عمله الخطأ ان لم يكن بصيرا بحياة المعانى في نشأتها وتطورها ، وخصائص الاشياء وصفاتها التي يريد التصرف في مدلولاتها بما يزيد عمله الفني أصالة وعمقا ،

واذا نحن تأملنا ما ذكره النقاد في كتبهم كصاحب الوساطة والموازنة والعسكري ، وعبد القاهر وغيرهم مما عانوا الدس البلاغي في صورة نقدية لبعض ما انتج الشعراء والادباء بعامة وجدناهم يعقدون أبوابا يتحدثون فيها عن أغلاط الشعراء وقد يشيرون اليها عرضا في حديثهم عن الفنون البلاغية كالاستعارة والتشبيه •

البيان :

يعرف علماء البلاغة البيان بأنه التعبير عن المعنى الواحد بطرق مختلفة الدلالة واختيار ابلغها أثرا في النفس واللفت الى المعنى الذي يريد أداه وتهيئة السامع للاستجابة له أو النفرة منه •

ولما كانت البحوث الخاصة بعلم البيان تتوقف على الدلالة فقد عرفوها بانها أخذ أمر من أمر وهي تنقسم الى قسمين

أ ــ دلالة وضعية ولا تعلق لها بعلم البيان كدلالة الاشارات والأنصاب الموضوعة في المسالك والطرق لهداية السائرين

ب ــ دلالة لفظية وهي تنقسم بدورها الى ثلاثة اقسام •

١ ــ مطابقية وهي دلالة اللفظ على كل المعنى وهذا النوع من الدلالة يستعمله العلماء المعنيون بالفكر العلمي التجريبي الذي لا مجال

للتصرف فيه وكلما كان العالم دقيقا في استعمـــال هذه الدلالة امتاز عمله بالوضوح والدقــة والامانة في بيان الفكرة وعرضها

٢ ــ دلالة تضمنية وهي دلالة اللفظ على جزء المعنى على خــلاف بينهم في تحديد كمية المعنى ومدى انقسامه الى أجزاء

٣ ــ دلالة التزاميــة وهي دلالة اللفظ على شيء خارج عــن حقيقة المعنى المدلول عليـــه اصلا باللفظ ولكـــن الشيء اللازم له قضت العادة بلزومه له كدلالة البوم على الشؤم ، والغراب على النحس وكثرة الرماد على الكرم وكلما تعددت اللازمات والملزومات أدى ذلك الى غمـــوض الفكـــرة ، وبذل الجهـــد في الوصول اليها ، وهذا بدوره يؤدي الـــى قوة الفكرة نفسها وعمقها •

ويكاد يتحدد عمل البياني او الدارس لعلم البيان بهذيـــن النوعـــين مـــن الدلالة •

وجميـــع بحـــوث علم البيـــان تدور على أساس منهمـــا

ويمكن ان نحدد بحوث هـــذا العلم في المجاز بنوعيه مرسل واسنادي وفي التشبيه والاستعارة والكناية •

فكرة النقل واثرها في بحوث علم البيان :

نقل اللفظ مـــن معنى الى آخر اما أن يتم بغير طريق المشابهة وذاك هو المجاز في اللفظ المفردة ،

وهو ما اصطلح على تسميته بالمجاز المرسل ، وليس للأديب حـــق

التصرف في عمليـــة النقل هذه وانمـــا الذي يقوم به هو المجتمع ، ومـــن هنا لا نستطيع ان يحكم على أن هذه الكلمة مجاز او غير مجـــاز الا اذا ادركنـــا الخطوات التي مرت بها حياة الكلمة منذ كانت معنى ما ديا الى أن صارت ذات دلالات متعددة كل منها يقترن بزمن مـــن الآزمان أو بيئة من البيئات ولنضرب لذلك مثلا بكلمة الصلاة والزكاة والحج ومـــا اليـــها من الألفاظ التي تطورت دلالاتها منذ كانت الصلاة في أصل معناها الساري الاتكاء على العجز ثم تطورت الى الصلاة بمعنى الاقـــــوال الافعال المخصوصة في البيئة الاسلامية ، وهي قبلها كانت تطلق على الدعاء اذ يأخذ فيه الداعي وضعا معينا يظهـــر فيه الخشوع والامتثال ، وتحتف به الخشيـــة والخوف ، والرجاء .

فالصلاة بالمعنى الاول مادية صرفة ، وبالمعاني التالية معنوية ترتبط أساسا بعمل القلب في الخوف والرجاء والدعاء وهي بالمعنى الأول حقيقة وبالمعاني الثانيـــة مجاز ثم آلت بعد ذلك الى حقيقة عرفية يراها اللغوي مجازا ويراها الديني او صاحب العرف الخاص حقيقة لا يختلف عليهـــا أحـــــد .

المجـــاز المرسل :

هو استعمـــال الكلمة في غير ما وضعت له لعلاقة المشابهة دون ارادة لمعناها الأصلي مع قرينة مانعة مـــن هذه الارادة ، والقرينة اما لفظية في التعبيـــر الذي وردت فيه هذه الكلمة او عقليـــة يقضي العقل عـــدم ارادة معناها الأصلي ، على أنه لابد أن توجد علاقة بيـــن المعنى المنقول عنـــه والمنقول اليـــه .

وهذه العلاقة اما السببية والمسببية والجزئية والكلية ثم اعتبار ما كان واعتبار ما يكون والمحلية والحالية •

فمن أمثلة السببية له على أياد كثيرة والأيادي هنا نقلت الى النعم عن طريق التجوز لأن اليد وهي الجارحة سبب من أسباب الأعطاء والمنح ومن أمثلة المسببية قوله تعالى ينز لكم من السماء رزقا والتجوز في الرزق اذ يراد به النبات المسبب عن الغيث النازل من السماء ومن أمثلة المحلية فليدع ناديه لأن النادي مكان اجتماع القوم والعلامة المكانية أو الحالية

ومن أمثلة الجزئية قوله تعالى يجعلون اصابعهم والمراد جزء منها

وهكذا نرى أن العلاقات المصححة لعملية النقل في المجاز المرسل كثيرة ومتنوعة وان أمر تجديدها متروك لمتذوق النص والقرينة الصارفة للفظ عن معناه الأول الى معان ثانية منها ما هو عقلي كما في قوله تعالى وأسأل القرية ، وهو من بيت كريم أو لفظية كما في قوله تعالى اني أراني أعصر خمرا لأن العصر لا يكون الا للعنب أو مادة يمكن أن تعصر ، أما الخمر فماء أو مائع أو سائل لا يمكن عصره •

المجاز العقلي :

وهو أسناد الفعل أو ما في معناه الى غير ما هو له لعلاقة مع قرينة مانعة من ارادة الاسناد الحقيقي والاسناد المجازي يكون الى سبب الفعل أو زمانه أو مكانه أو مصدره او باسناد المبنى للفاعل الى المفعول أو المبني للمفعول الى الفاعل فمن أمثلة الفعل المسند الى السبب قولنا ، قادته

ارادته الى الهاوية وقول الرسول مـن لم تنهه صلاته عـن المنكر فـلا صلاة له لأن الارادة والصلاة كانتا السببيـن في حدوث الفعل ،

ومثال المسنـد الى الزمان قولنـا سعدت أيامه لأن الايام لا تسعد وانمـا الذي يسعدهم الناس الذيـن يعيشون هذه الأيام التي يرون فيها الخير ، ينعمون فيها بالبر ،

ومثال المسنـد الى المكان : أزدحمت الشوارع والطرقات والازدحام للناس السائريـن فيها ومثال المبنى للفاعل الى المفعول قوله تعالى فـي عيشة راضيـة والعيشة لا ترضى وانما يرضى عنها الناس ومثال المبنى للمفعول الى الفاعل قوله تعالى :

واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبيـن الذيـن لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا فالحجاب ساتر لا ستور

وهكذا نرى أن المجاز العقلي يتعلق بلأسناد لا بالألفاظ التي تبنى منها الجمـلة المتجوز فيهـا •

التشبيه :

هو عقـد مقارنة بيـن أمريـن بطريق النقل في معاني الألفاظ وعلى نحو خاص من تأليف العبارة وبنائها •

ولا بد في ايجاد صورة التشبيه كاملة مـن أن تتألف مـن اربعة عنـاصر

١ ـ مشبه ٢ ـ مشبه به ، أداة تشبيه ٤ ـ وجه شبه

وقد دار البحث في التشبيه أول أمره في بيئة الفقهاء حين تصـدوا لدرس القياس التشريعي حتى يستطيعوا أن ينقلوا حكما منصوصا قضى به في أمر الى أمر آخر لم يرد له ذكر في النصوص قرآنا كانت او سنة .

ونجد في رسالة الشافعي كلاما مجمـلا عـن التشبيه وعلاقتـه بالقيـاس اذ يقـول

وقد نجد الشيء يشبه الشيء والشيء غيره فتلحقه بما هو أقرب به شبهـا .

ولكن البلاغيين توسعوا في دراسة التشبيه وامعنوا في كثرة التقسيمات لانواعه المختلفـة وضروبه المتعـددة اتخـاذه أداة لا يضاح الفكـرة الغامضة أو جلائها أو التنفير منها والترغيب فيها الى غير ذلك مـن أغـراض التشبيه التي استقرأها علماء البلاغة مـن النصوص التـي تصدوا لدرسهـا .



اغراض التشبيه ومقاصده :

قد استقرأ البلاغيون هذه الاغراض من واقع ما درسوه من النصوص وتحليلها والكشف عن البواعث التي تختفي وراء التعبير الذي ورد فيه التشبيه .

ويمكن أن نلخص هذه الأغراض في :

١ ـ بيان امكان المشبه بذكر أمر ممكن يشبه به كقول البحتري :

دان الى أيدي العفاة وشاسع
عن كل ند في الندى وضريب
كالبدر أفرط في العلو وضوءه
للعصبة السارين جد قريب

والقصد هنا بيان الفرق بين الرجل الكريم وبين سواه من الكرماء فهو عالي المنزلة ولكنه قريب الى أهل الحاجة والطالبين لها

٢ ـ بيان حال المشبه اذا لم يكن معلوم الصفة فيأتي التشبيه واصفا له وكاشفا عن حاله كما في قول النابغة :

كأنك شمس من الملوك كواكب
اذا طلعت لم يبد منهن كوكب

٣ ـ بيان مقدار الصفة التي يتصف بها المشبه كما في قول المتنبي في وصف الأسد الذي قتله ابن عمار بسوطه :

ما قوبلت عينـــاه الا ظنـــتا •

تحـــت الدجـى نار الفريـق حلولا

اذ المعروف أن عيني الاسد محمرتان ولكن شبهما بالنار لبيان شدة احمرارهمـا وقوة نفاذهمـا ، وما تنبيء هذه الحمرة عنه مـن القوة والبأس •

٤ ـ تُقرير حال المشبه والاستدلال بالتشبيه على هذا التقرير كما في قـوله تعـالى

والذيـن يدعون مـن دون الله لا يستجيبون لهم شيء الا كباسط كفيـه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه

٥ ـ تزييـن المشبه أو تقبيحه •

أقسام التشبيـه

يقسم البلاغيون التشبيه الى أقسام كثيرة باعتبارات متعـددة فيقسمونه بحسب القسمة العقلية مـن ناحية الحس والعقل

الى تشبيه أمر حسي بحسي
الى تشبه أمر حسي بعقلي
الى تشبيه أمر عقلي بحسي
الى تشبيه أمر عقلي بعقلي

وهذه التقسيمات يمكـن أن ترد الى فترات زمنيـة عاشت فيها بحسب تـدرج الحيـاة العقليـة التـي تعيشهـا الامـة ونلحـظ

أن الشعر الجاهلي تكظثر فيه التشبيهات الحسيـــة اذ كان مستوى الحياة العقليــة والفنية لا يأذن بغير ذلك ولا يعين عليه •

كما نلحظ أن التشبيه بالعقليات يجد طريقــه في العصر العباسي بعد أن اتصل العرب بثقافات وأنشأوا يعرفون معنى التجريد في صوره الاعتقاديــة والوصفية •

ومن أمثلة التشبيه

رب ليل كأنه الصبح في الحســن وأن كان اسود الطيلسان

انما يريــد الوصول الى جوهر الأشياء التي يحدث بينها التشبيه ويشير الــى ان الالوان الظاهــرة لا تــدل علــى هـــذا الجوهــر أحيانا وهو تشبيــه حسي بحسي

والشاعــر الذي يقــول

كأن أخلاقك في لطفها ورقة فيها نسيــم الصباح

انما يشبه أمورا عقليــة بحسيــة •

والمراد بالحسيات ما تدرك باحدى الحواس الخمس وهي الذوق والشم ، واللمس والرؤية والسمع وما عداها فأمور عقلية

والواقع أن تشبيه المعقول بالمحسوس انما يراد به تجسيم المعنـــى في صورة واضحة محددة لا يختلف عليها أحد

أما تشبيــه المحسوس بالمعقول فالغرض منه التجريد وأن المشبــه أصبح أمرا معقــولا مسلما به فلا جدال عليه ولا اختلاف فيه

تقسيم التشبيه من ناحية الاداة ووجه التشبيه :

يمكــن تقسيــم التشبيه بهذه الاعتبارات الى :

١ ـ التشبيه المرسل وهو ما ذكرت فيه الأداة.

٢ ـ التشبيه المؤكد وهو ما حذفت منه الاداة وذلك لجعل المشبه والمشبه به لشيء الواحد مثل هند بدر وسعاد شمس ،

٣ ـ التشبيه المجمل ما حذف فيه وجه الشبه وترك أمر استخراجه لفطنة المتذوق واحساسه بالفكرة .

٤ ـ التشبيه المفصل ما ذكر فيــه وجه الشبه

٥ ـ التشبيه البليغ ما حذف منه الأداة والوجه

فالشاعــر الذي يقــول :

أنا كالماء ان رضيت صفاء

واذا ما سخطـــت كنت لهيــبا

يشبه نفسه بالماء في الصفاء اذا كان راضيــا فاذا سخط كان كالنار تحرق ما تلقاه وتبدد مــن طريقها ما تجده

والتشبيه هنا مرسِل لوجود الأداة في قوله أنا كالماء

وفي عجز البيت كنت لهيبا تِشبيه مؤكد لحذفه الأداة والتشبيــه الاول مفصل لوجود وجه الشبه وهو الصفاء

والتشبيه الثاني مجمل لعدم وجود وجه الشبه

كمــا أنه تشبيه بليغ أمينا لحذفه الأداة منه •

التشبيه التمثيلي :

وهو ما كان فيه وجه الشبه منتزعا مــن أمور متعددة كما في قول الشاعــر

وكــأن الهــــلال فـــوق لجـــين
غرقت فـــي صحيفـــة زرقـــاء

فانه يشبه الهلال بالنون المصنوعة من الفضة وقد غرقت في السماء ذات القبة الزرقاء ووجــه الشبه هنــا منتزع مــن صورة شيء مقوس في شيء أزرق شديد الاتساع

التشبيه الضمني :

أحيانا لا تظهــر صورة التشبيه كاملة بل يلمح المشبه والمشبه بــه لمحا في أثناء الكلام ويسمى التشبيه في هذه الحالة ضمنيا أي امرا متضمنا كمــا في قول الشاعــر

مـــن يهـــن يسهـــل الهوان عليـــه
مــــا لجـــرح بميـــت ايـــــلام

والقصد تشبيه الرجل الذليل بالميت الذي فقد الاحساس بالأشيــاء فـــلا يهمــه شيء ، ولا يعبأ بأمر وهـــذا النوع مــن التشبيه يؤتى به ليفيــد أن الحكم الذي أسنــد الي المشبه ممكــن •

ومــن أمثلة التشبيه الضمني قول المتنبي

وأصبح شعري منهما في مكانه
وفي عنق الحسناء يستحسن العقد

فالمتنبي يريد أن يشبه شعره بعقد الحسناء

التشبيه المقلوب :

وهو جعل المشبه به مشبها لا سبيل الادعاء كما في قولنا كأن النسيم في الرقة أخلاقه وكما في قول ابن المعتز

والصبح في طرة ليل مسفر
كأنه غرة مهر أشقر

فأن بياض الصباح أقوى من بياض غرة الفرس

ولكنه قلب التشبيه على سبيل المبالغة والادعاء

والذين يستعملون هذا النوع من التشبيه يريدون أن يؤكدوا المعنى القائم في المشبه حتى صار مما يشبه به وأصلا يقاس عليه غيره .

الاستعارة :

الاستعارة تعتمد على النقل فاذا كان النقل بطريق التشبيه سمى النقل استعارة . ولأنها تعتمد على التشبيه قالوا ان كل استعارة تشبيه في الأصل تصرف فيه حتى صار نوعا قائما بذاته وهي تعد من المجاز العفوي الحاصل في اللفظة المفردة

وهم يقسمون الاستعارة الى قسمين :

أ استعار تصريحية وهي التي صرح فيها بالمشبه به وطوى ذكر المشبـــه •

ب ــ مكنية وهي ما حذف فيها المشبه به ورمز اليه بشيء مـــن لوازمـــه •

فمثال الاستعارة التصريحيــة قول الله تعالى

كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس مــن الظلمات الى النور

فانه هنا يشبه الكفر بالظلمة ثم يحذف المشبه ويبقى المشبه بـــه وكذلك الأمر في النور •

ومنــه قول المتنبي

فلم أر مثلي مــن مشى البحر نحــوه
ولا رجــلا قامت تعانـــقه الأســــــد

فانه يشبه الممدوح بالبحر ثم حذف المشبه

ومثال المكنية قول الشاعر

ولمــا قلـــت الابـــل امتطينـــــا
الى ابــن أبــي سليمــــان للخطوبـــا

والاستعارة هنا في الخطوب فانه شبهها بالابل ثم حذف المشبه به وابقى المشبه على سبيل الاستعارة بالكناية.

ويرى الشيـــخ عبد القاهر أن الاستعارة المكنية احيانا لا يمكـــن

حلها الى مشبه ومشبه بـه والا أدى ذلـك الى غثاثة التعبير ، وضياع مـائـه ،

وأنه يمكـن ان تلمح الاستعارة لمحا يعتمـد علـى الاحساس بها والادراك لهـا .

تقسيم الاستعارة الى اصلية وتبعية :

تكون الاستعارة أصلية اذا كان اللفظ الذي جرت فيه اسما جامدا وتكون تبعيـة اذا كان اللفظ الذي جرت فيه مشتقا فعلا أو حرفا مـن حروف الجر .

فمثال التبعيـة في الفعل قوله تعالى :

ولما سكت عـن موسى الغضب فقد شبه انتهاء الغضب بالسكـوت بجامع الهدوء ثم استعيـر اللفظ الدال على المشبه به وهو السكـوت للمشبه وهو انتهاء الغضب ثم اشتق مـن السكوت بمعنى انتهاء الغضب سكت بمعنى انتهى ونلاحظ ان كل استعارة تبعية قرينتها مكنية وانه اذا أجريت الأستعارة في واحدة امتنع اجراؤها في الأخرى

وانما سميت الاستعارة في المستبق والفعل تبعيـة لجريانها اولا في المصدر ثم في الفعل أو الاسم المشتق

تقسيم الاستعارة من ناحية الترشح والتجديد :

الاستعارة المرشحة ما ذكر معها ملائم المشبه به كمـا في قوله تعالى اولئك الذيـن اشتروا الضلال بالهدى فما ربحت تجارتهم

والاستعارة هنا في اشتروا وهي تصريحية تبعية وقد قرنت بقولـه فما ربحت تجارتهم اذ انه شبه عمليـة استبدال الضلالة بالهدى بعمليـة التجارة القائمة على الاخذ والاعطاء ومنها قوله

وأرى المنايـا ان رأت بـك شيبـة
جعلتـك مرمـى نبلهـا المتواتـر

فانه يشبه المنايا بأبطال يرمون ثم حذف لماشبه به ورمز اليه بشيء مـن لوازمه وقد قرنها بمـا يلائم المشبه به مثال الاستعارة المجـردة وهي التي قرنت بمـا يلائم المشبه قول الشاعر

يؤدون التحيـة مـن بعيـد
الـى قمـر مـن الايوان بـاد

ومثال الاستعارة المطلقة وهي التي لم تقترن بما يلائم الشـبه ولا المشبه به قولـه تعالـى

انا لمـا طغـى المـاء حملناكم في الجارية

ولا يعتبر الترشيح والتجربة والاطلاق الا بعد استيفاء الاستعارة قرينتها الصارفة للفظ عـن معناه اللغوي وأنه تـم النقل فيه بطريق التشبيـه •

ولهذا لا تسمى قرينة التصريحية تجريدا ولا قرينة المكنية ترشيحا •

الاستعارة التمثيلية :

وهي مأخوذة مـن التشبيه التمثيلي وهي تركيب استعمل في غيـر

ما وضع له لعلاقـــة المشابهة مع قرينة مانعة مـــن ارادة المعنى الاصلـــي والأمثال كلها استعارة تمثيليـــة

كمـــا في قول الشاعـــر :

اذا قـــالـــت حـــزام فصـــد قولها
فان القـــول مـــا قالـــت حـــزام

الكناية وانواعها :

الكناية لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز ارادة المعنى الأصلي وتنقسم الكناية الى ثلاثة أقسام

كناية يراد بها الصفة كمـــا في قولنـــا جبان الكلت مهزول الفصيل ، بعيـــدة مهوى القرط ، طويل النجاد

٢ ـ كناية يراد بها موصوف كمـــا في قو لالشاعـــر احمـــد شوقي

ولـــي بيـــن الضلـــوع دم ولحـــم
همـــا الـــواهـــي الـــذي ثكـــل الشبابا

فالدم واللحم هنـــا همـــا القلب

٣ ـ كناية يراد بها النسبة كمـــا في قولنـــا

المجـــد بيـــن ثوبيـــك ، والكـــرم تحت رواسك .


تم تنفيذ وطبع
هذا الكتاب
في مطابع مؤسسة
جواد للطباعة والتصوير
تلفون ٢٩٠١٣٢ - ٢٢٨٣٤٦
بيروت - لبنان